القسم الثانى

أعلام الأدب المهجرى

تمهيد

ليس من الممكن أن أكتب عن جميع أدباء المهجر ؛ فهناك أدباء لم أستطع الوصول إلى آثارهم ، ولا أتيح لى أن أتصل بهم – بالمراسلة – اتصالاً يمكننى من معرفة ما فيه الكفاية عنهم وعن أدبهم . ولذلك لابدّ لى من الاقتصار فى هذا القسم الثانى من هذا الكتاب على دراسة طائفة من أبرز أعلام الأدب المهجرى ، وآثارهم الأدبية ؛ مشيراً فى الوقت نفسه إلى أن آخرين غيرهم قد سبق أن تعرّضتُ لهم ولآثارهم الأدبية – رجالا ونساء – بما يعرّف القارئ إلى أدبهم ؛ وذلك فى القسم الأول من الكتاب .

وأرجو أن يثق الذين لم أتمكن من دراستهم ههنا من أننى لم أقصد قط إلى إهمالهم ، أو انتقاص فضلهم وأدبهم ، أو الإساءة إلى أحد منهم .

يضاف إلى هذا أننى لو استطعت دراسة جميع الأدباء المهجريين – الأحياء منهم والأموات – لكان على هذا الكتاب أن لا تقف صفحاته دون الألف ، على أقل تقدير .

وشىء آخر أحب أن أنبه إليه قبل أن أبدأ بدراسة أعلام الأدب المهجرى ، وهو أنه قد سبق أن أصدرت كتاباً كاملاً عن الشاعر إيليا أبى ماضى ، وكتاباً آخر مثله عن الشاعر إلياس فرحات . ولقد ترددت طويلاً قبل أن أعاود الكتابة عن هذين الشاعرين الكبيرين فى هذا القسم الثانى من الكتاب ، لأننى قلت فى ذينك الكتابين كل ما أعرفه عن الشاعرين ، ولم يعد لدىّ من جديد أقوله فيهما وفى أدبهما .

غير أننى – من جهة أخرى – أيقنت من أن القراء لن يعذرونى إذا خلا هذا الكتاب من فصل عن كل منهما . وإزاء هذا لم أجد بدًّا من أن أعود إلى الكتابين السابقين لأختار منهما شيئاً أنقله إلى هذا الكتاب عنهما . وإنى لذلك أستميح القراء المعذرة لهذا النقل الاضطرارى . وإنما يشفع لى أن الكثيرين من القراء لم تتح لهم فرصة الاطلاع على ذينك الكتابين ، فهم لذلك سيجدون شيئاً مختصراً عن هذين الشاعرين ، حيث لابدّ من الكتابة عنهما فى كتاب كهذا .

١ – أمين الريحانى

لست أستطيع أن أكتب – حين أكتب – عن أمين الريحانى إلا وفى نفسى وذهنى منه أكثر من صورة واحدة ، وأكثر من شخصية واحدة ؛ فهو عندى أكثر من أديب : هو كاتب وشاعر ، وهو رحالة كثير الرحلات والمؤلفات ، وهو رسول إصلاح اجتماعى ووطنى وإنسانى ، وهو فيلسوف اجتماعى ، وهو داعية قومى ، عمل للوحدة العربية قبل أن يفهم العرب معنى الوحدة وأهميتها وضرورتها لهم ، وحين لم يكن يؤمن بالعروبة والقومية العربية إلا أفراد قلائل جداً بين العرب .

هو كل ذلك فى آن واحد ، والكتابة عنه يجب أن تتناول ذلك كله وإلا كانت كتابة عن جانب واحد من جوانبه الكثيرة ، وعن شخصية واحدة من شخصياته المتعددة ، وعن موهبة واحدة من مواهبه الكبيرة .

ولد أمين بن فارس الريحانى فى قرية الفريكة فى لبنان فى ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٧٦ ، وتوفى فيها سنة ١٩٤٠ ؛ وبين هذين التاريخين أربع وستون سنة تنقّل فيها أمين بين الشرق والغرب : فركب البحر بينهما أكثر من عشرين مرة منذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره ؛ وتجول فى الصحارى العربية فزار ملوكها وأمراءها ، وعاشر شعوبها ؛ كما تجول فى بلاد الغرب الأوربية والأميركية ، وخرج من كل ذلك بمؤلفات لا تقل عن خمسين مجلداً : كتب بعضها بلغة الضاد ، وبعضها بالإنكليزية . وكثير منها طبع فى حياته ، وبقى بعضها ليتولى أخوه ألبرت الريحانى إصداره بعد موته ؛ وقد فعل ألبرت ذلك مستأنفاً رسالة أخيه الأدبية والقومية ، ومتمماً لها ، وما يزال يفعل .

دخل أمين المدرسة ، أول ما دخلها ، فى قريته الفريكة ، فتتلمذ هو وأخته سعدى على الخورى مرقس فى كنيسة مار مارون ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى مدرسة المعلم نعوم مكرزل – صاحب جريدة الهدى فى أميركا فيما بعد – ولما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر إلى أميركا مع عمه « عبده » ومعلمه نعوم مكرزل . وهناك

أدخله عمه فى مدرسة راهبات المحبة ليتعلم اللغة الإنكليزية . فلم يمكث فيها أكثر من عام واحد ، ثم أخذ يعمل مع عمه وأبيه – الذى كان قد لحق بهما إلى هناك – فى التجارة . وفى السابعة عشرة من عمره انصرف إلى التمثيل المسرحى ، وراح يجوب أرجاء البلاد الأميركية مع فرقة تمثيلية معروفة هناك نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى العمل فى متجر أبيه وعمه من جديد .

غير أنه فى عمله التجارى لم ينقطع عن الدرس والمطالعة ، فالتحق بمدرسة ليلية وراح يواصل الدرس ، كما استمر يطالع الكتب الإنكليزية والفرنسية ؛ وفى الوقت نفسه أخذ يكتب آراءه وخواطره بلغة عربية غير سليمة ، ويرسلها إلى جريدة الهدى التى أنشأها معلمه نعوم مكرزل فى نيوريورك ، فكان معلمه يصحح لغة مقالاته قبل نشرها .

ولم يلبث أمين أن مرض وهزل جسمه ، فعاد إلى لبنـــان ليجـد العافية فى ربوعه ؛ وكان ذلك عام ١٨٩٨ . وهناك أخذ يعمل معلماً للغة الإنكليزية فى مدرسة قرنة شهوان ، القريبة من الفريكة ، وراح فى الوقت نفسه يتعلم اللغة العربية .

وفى هذه المدرسة وقع فى يده كتاب لزوميات أبى العلاء المعرى ، فعكف على درسها بعناية واهتمام ، فامتلأت نفسه إعجاباً بالمعرى وشعره الإنسانى ؛ فآلى على نفسه أن يترجم شيئاً من اللزوميات إلى اللغة الإنكليزية ليقدم للعالم الغربى هذا الشاعر العربى القديم المبدع .

وفى ذلك يقول فى مقدمة كتابه « ملوك العرب » :

« عدت إلى بلادى كئيباً . . وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتابِ شِعر أنسانى الكسائى وسيبويه وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة .

جمعنى الله سبحانه وتعالى بأبى العلاء المعرى ، بعد أن هدانى بواسطة الفيلسوف الإنكليزى – كارليل – إلى الرسول العربى . قرأت اللزوميات معجباً

بها ، ثم قرأتها مترنحاً ، ورحت أفاخر بأنى من الأمة التى نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم .

عدت إلى أميركا أستصحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . . .»

وإلى ذلـــك الحين الذى عرف فيه الريحانى أبا العلاء ، لم تكن معرفته لبلاده العربية ولحقيقة أمته العربية وقوميته ذات بال . ولم يهتد إلى شىء من ذلك إلا عن طريق الأجانب ومؤلفاتهم . وكان ذلك يحز فى نفسه كثيراً . وفى ذلك يقول فى مقدمة « ملوك العرب » عينها :

« كان كارليل أول من عاد بى من وراء البحار إلى بلاد العرب . أجل ؛ وقد يستغرب قولى إنى عرفت بواسطة الكاتب الإنكليزى الكبير سيدَ العرب الأكبر النبى محمداً ، فأحسست لأول مرة بشىء من الحب للعرب ، وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم .

ثم فى غزواتى للكتب الإنكليزية غنمت كتاباً استوقفنى ظاهره الفخم ، وراقتنى الصور فيه . وما كان العنوان لينبئنى بشىء أكرهه أو أحبه . قرأت كتاب « الألهمبرا » فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان « الحمراء » ، وعرفت أن الحمراء هى لؤلؤة تاج العرب فى الأندلس .

لله أنت أيتها البلاد العربية التى لم يشأ الله أن أجهلك حياتى كلها ، فبعث إلىّ ، وأنا بعيد عنك ، إنكليزياً يعرّفنى إلى رسولك ، وأميركياً يصف لى محاسن أبنائك » .

* * *

ومن هنا راحت الفكرة تختمر فى رأس الريحانى ليطوف البلاد العربية ، وليتعرف إليها وإلى شعوبها عن كثب . وقد فعل ذلك حينما أتيحت له الفرصة ، ووضع فى رحلاته المؤلفات التالية بالعربية :

(ملوك العرب ، جزءان – تاريخ نجد الحديث – قلب العراق – قلب لبنان – المغرب الأقصى) .

ووضع بالإنكليزية كذلك : (ابن سعود ونجد – حول الشواطئ العربية – بلاد اليمن) .

والريحانى بهذه المؤلفات لا يزال من أكبر المراجع العربية – إلى يومنا هذا – فى تعريف العرب ببلادهم . ودراساته للبلاد العربية التى ما تزال تدعى بالمحميات – وهى فى كتابه « ملوك العرب » – لا تزال من أوفى المصادر العربية فى التعريف بتلك البلاد العربية . ولعل الريحانى كان بهذه الرحلات أول من فكر من العرب ، فى عصرهم الحديث ، فى أن الوحدة العربية لا يمكن أن تقوم دون أن يعرف العرب بعضهم بعضاً ، ودون أن يعرفوا الظروف المختلفة والبيئات المتباينة التى يعيش فيها كل قطر من أقطارهم ؛ وبكلمة أخرى ، لا يمكن تحقيقها عن غير طريق الدراسة الوثيقة لأحوال الأقطار العربية وشعوبها ، وظروف معاشهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ووسائل الحياة عندهم .

وعدا المؤلفات المتقدم ذكرها كتب الريحانى كتباً أخرى تكمل حلقات رحلاته ، وتعرّف بملوك البلاد العربية وأمرائها ، كما تبين حالة البلاد العربية فى ذلك الحين . ومن هذه الكتب ، بالعربية :

(فيصل الأول – النكبات – التطرف والإصلاح – خارج الحريم – زنبقة الغور – الريحانيات . وبالإنكليزية : (العراق – الملك فيصل) ولم ينشر هذان الكتابان بعد ؛ وكتاب « قدر فلسطين » [١]، وقد نشره ألبرت الريحانى حديثاً .

وليست هذه كل مؤلفاته ؛ فهناك مؤلفات أدبية أخرى بالعربية والإنكليزية بعضها طبع مرة واحدة ، وبعضها أعيد طبعه مرتين أو أكثر ، وترجم الكثير منها إلى لغات عالمية متعددة ، لا تقل عن خمس عشرة لغة . وفى ما يلى نتم سلسلة مؤلفاته فنذكر : (موجز تاريخ الثورة الفرنسية – المحالفة الثلاثية – المكارى والكاهن – ثلاث خطب – أنتم الشعراء – وفاء الزمان – سجل التوبة – رسائل أمين الريحانى – وجوه عربية وغربية) وهذه كلها باللغة العربية . وباللغة الإنكليزية الكتب التالية :

(رباعيات أبى العلاء المعرى – المر واللبان – كتاب خالد – لزوميات أبى العلاء – تحدّر البلشفية – جادة الرؤيا – أنشودة الصوفيين – دروس فى ألف ليلة وليلة – وَجْدة – كريمة) .

(١) The Fate of Palestine.

يضاف إلى هذه المؤلفات كلها مجموعات كبيرة من المقالات والمحاضرات والرسائل ، باللغتين العربية والإنكليزية ، لم تجمع كلها بعد فى كتب مستقلة . وجدير بالذكر أن المجموعة العربية الكاملة لمؤلفات الريحانى قد أصدرها أخوه ألبرت بمناسبة المهرجان الذى أقيم فى أكتوبر ١٩٦٥ تكريماً لذكرى الأمين فى لبنان ، وما يزال يوالى طبعاتها مجموعة ومتفرقة باستمرار .

* * *

بدأ ظهور الريحانى الأدبى فى المهجر قبل أن يعرف الناس جبران خليل جبران ورفاقه الآخرين ؛ وكان هو أول من كتب الشعر المنثور بين العرب متأثراً فى ذلك بالشاعر الأميركى وولت ويتمان ، الذى كان يعمل لتحرير الشعر من قيود الوزن والقافية . وقد راقت طريقته هذه للريحانى واستهوته ، فكتب عدداً من القطع الشعرية المنثورة ، ونثرها بين تضاعيف « الريحانيات » . وقد جمعها أخوه ألبرت فيما بعد فى كتاب مستقل دعاه « هتاف الأودية » . وفى ما يلى نموذج منها بعنوان « دجلة » :

أصافحه والقلب فى يدى
أحييه والروح على لسانى
أقف أمامه فتنكشف أمامى أعاجيب الزمان
له كلمة تخيف ، وكلمة تثير ، وكلمة تحيى وتميت
وهو يسير فى سبيله هادئاً مطمئناً
يحمل الخير من الشمال إلى الجنوب
من إقليم إلى إقليم يجىء بفيضه
يتحول غرباً وشرقاً لتعم بركاته البلاد
تقول له الجبال : اقرأ السهول أمامنا
ويقول هو للسهول : أقرئى سلامى قحطان ومضر
هو رب العراق ، هو حياته الخالدة
عينه عين الدهر ، ولسانه لسان الزمان
وحافظته حافظة الخالد من الأكوان

شاهد من الممالك ما قام منها بالسيف
وما قام منها بكلمة سحر حلال
وما قام منها بالعلم والفنون
تلألأت على ضفافه أنوار السرور والأهواء
وجرت فى ظلال نخيله مواكب العزة والمجد
وانطفأت الأنوار ، ودرست القصور
واضمحلت آثار العظمة كلها – إلى حين –
وظل هو سائراً فى سبيله هادئاً مطمئناً .

على أن هذا الأسلوب المنطلق الذى ينثر الخيال الشعرى الجميل فى العبارات النثرية القصيرة ، لم يلبث أن استهوى جبران كذلك فيما بعد ، فانطلق يكتب فيه محلقاً ، وأبدع فيه ما شاء له نبوغه وعبقريته ، فنسى الناس أن الريحانى كان أسبق منه إلى هذا الأسلوب ، واعتبروه من إبداع جبران نفسه ، لأن جبران تفوق فى إبداعه فيه على القليل الذى كتبه الريحانى بهذا الأسلوب نفسه ؛ فمؤلفات جبران التالية كلها مكتوبة بهذا الأسلوب الشعرى الغنى بالخيال والجمال والصور الروائع ، والأحاسيس الدافئة الهامسة : « النبى – يسوع ابن الإنسان – دمعة وابتسامة – المجنون – التائه – السابق » وغيرها .

وكان الريحانى منذ صغره ، وقبل أن يتمرن على حمل القلم لترجمة أحاسيسه فى مقالات وخطب وكتب ، يجيل فكره فى مجتمعه وشؤونه ، فكانت نفسه تثور على ما يعانيه مجتمعه من صنوف الجهل والجور ، وما يخضع له شعب بلاده من عبودية لرجال الدين ورجال الحكم ورجال الإقطاع . وحينما أصبح قادراً على التعبير عن ثورته هذه بالقلم راح يصب نقمته شواظاً من نار على كل لون من ألوان الجهل والظلم والعبودية : تارة ساخطاً معنفاً ، وطوراً متهكماً ساخراً . فلقى على ذلك الكثير من حملات رجال الدين ورجال الإقطاع معاً ؛ فنشروا فى أوساط الشعب الساذج الجاهل أن الريحانى ملحد ، يفسد الضمائر ، ويحاول أن يهدم الدين ، ويزرع الشكوك فى نفوس الشعب . وزاد رجال الدين أن حاربوا كتبه وحعلوها فى

القائمة السوداء التى لا يجوز لكاثوليكى قراءتها ، وفرضوا الحرمان من الكنيسة على من يتجرأون على قراءة شيء منها .

ولكن هذا كله لم يردع الريحانى عن أن « يقول كلمته ويمشى » ، مؤمناً بأن الحقيقة هى التى تعيش دائماً ، وأما الجهل والجور والعبودية فمصيرها إلى الزوال .

ومثلما حارب الريحانى الجهل وعبودية رجال الإقطاع والإكليروس ، حارب كذلك الاستعمار الفرنسى فى لبنان وسوريا ، والبريطانى فى مصر والعراق وفلسطين ، وحمل عليه حملات كثيرة قاسية بمقالاته وخطبه ومؤلفاته . وقد لقى على هذا أيضاً كثيراً من العنت والاضطهاد ، ولكنه استمر فى طريقه بتصميم وإيمان راسخين .

وحارب كذلك التفرقة والتباعد بين أبناء الأمة العربية ؛ والذى يقرأ كتابه « ملوك العرب » يرى كيف كان الريحانى فى سياحته فى الجزيرة العربية يسعى ويعمل بكل قواه ليزيل العداء من نفوس ملوك الجزيرة وأمرائها ؛ فقد توسط بين ملك نجد – عبد العزيز آل سعود – وأمير الكويت حتى أحل التفاهم بينهما محل الخصام ؛ وسعى لدى ملك الحجاز – الحسين بن على – والشريف الإدريسى ليعقد بينهما محالفة أخوّة ومودة ، وليوحد بين بلديهما لمصلحة العرب ؛ ووضع بنفسه مسودة الاتفاقية بينهما ، وإن لم يصل إلى النجاح الذى يريده . وكان يريد أن يوجد حلفاً عربيًّا يجمع ملوك الحجاز ونجد واليمن والإدريسى فى إمبراطورية عربية واحدة . وهو الكاتب العربى الوحيد الذى طمح وسعى إلى مثل هذه الغاية الكبرى .

وهكذا جمع أمين الريحانى بين الأدب ، والإصلاح الاجتماعى ، والدعوة الوطنية والقومية ، فكان فى كل ذلك رسولاً أميناً يؤدى رسالة الحب والخير والتعاون إلى المجتمع العربى كله ، كما كان فى الوقت نفسه رسولاً بين الشرق والغرب : يحمل إلى الشرق دعوة القوة والمدنية عن الغرب ، ويحمل إلى الغرب الروحانية الخيّرة المسالمة عن الشرق . وقد أدى هذه الرسالات كلها إلى آخر يوم من حياته .

ولئن كان الريحانى قد لقى محاربة قوية من رجال الإكليروس ورجال الإقطاع فى لبنان – بشكل خاص – فقد لقى كذلك كثيراً من التكريم والحفاوة

والإجلال حيثما حلّ : فى العراق ، ومصر ، والمغرب العربى ، وفلسطين ، وجميع أنحاء الجزيرة العربية . وقد أقيمت له الحفلات العديدة فى كل مكان ، تقديراً لأدبه وجهاده وسعيه المخلص إلى الإصلاح ومحاربة الفساد ، والعمل على نهضة الشرق وتحريره .

وقد جاء فى كتاب « أمين الريحانى » لمارون عبود ما يلى :

« . . وكما تُوِّج فولتير من قبل ، تُوِّج الريحانى بإكليل من الغار فى حفلة شائقة أقامها على شرفه نادى الثريا الأميركانى ، كما أنبأنا سليم سركيس فى مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان ، فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم . على أننى وُفِّقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحانى الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب المؤلفات الراقية فى اللغتين العربية والإنكليزية .

« تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان فى مدينة نيويورك تكريماً لوطنيِّنا أمين الريحانى ، على أثر ما تبينوه فى مؤلفاته من الأدب الجم ؛ وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الإنكليزية . . . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين الريحانى إلى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى رئيس نادى الثريا الأميركى خطاب الثناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتَوّج به الأمين » .

وذكر مارون عبود كذلك أن اسم الريحانى قد ذكر فى دليل مشاهير كتاب أميركا وكندا سنة ١٩٣٠ ، وفى دليل مشاهير الأدباء المطبوع فى إنكلترا .

* * *

هذا شيء عن الريحانى ومؤلفاته ، وشهرته الأدبية فى الشرق والغرب ، وهو يكفى لبيان مدى ما بلغه الريحانى من الشهرة الواسعة كأديب واقعى ، ورسول أدبى قومى ، ومصلح اجتماعى ، وما أداه من رسالة أدبية سامية تظل معها مؤلفاته جديدة كلما تقادم عليها الزمن .

ولقد عاش الريحانى فى المهجر مع جبران ونعيمه ورفاقهما ، وكتب معهم

فى الفنون والسائح ، كما كتب فى الهدى ومرآة الغرب وغيرهما من صحف المهجر ، ولكنه لم يشترك معهم فى الرابطة القلمية حينما أنشئت ، فقد كان بينه وبين جبران خلاف جرّ إلى خصومة شديدة ، فلم يكن ممكناً الجمع بينهما فى رابطة واحدة .

إلا أن هذا العداء الذى استحكم بين الأديبين الكبيرين فى الحياة لم يمنع الريحانى بعد وفاة جبران من أن يرثيه بحرارة ، وأن يستقبل جثمانه ، حينما أعيد ليدفن فى قرية بشرّى ، بنجوى دامعة مخلصة فى الوفاء ، قال فيها :

« جبران ، أخى ورفيقى وحبيبى

إن للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقى للبنان

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون ، الذى يضمك اليوم وغداً يضمنى إليه .إن ترابى ، غداً ، فى الفريكة يناجى ترابك فى الوادى المقدس

ومن ظلال الصنوبر الذى سيظلل ضريحى ، سيحمل النسيم قبلات عطرة صباح مساء ، إلى ضريحك فى ظلال الأرز» .

وحينما أصدر ميخائيل نعيمه كتابه عن حياة جبران ، عام ١٩٣٤ كان الريحانى أول من فطن إلى ما فيه من غمزات تسىء إلى جبران الإنسان ، وأول من ثار فى وجه نعيمه لأجلها ، ودخل معه فى عراك شديد العنف على صفحات الجرائد اللبنانية .

* * *

كان الريحانى قد أصيب منذ عام ١٩٠٧ بمرض عصبى فى يده اليمنى ، وقد رافقه ذلك الداء إلى آخر حياته ؛ ولعله السبب الذى أدى إلى مصرعه عام ١٩٤٠ ، فقد كان يقود دراجته فى الشارع العام على مقربة من الفريكة ، فارتخت عليها يده ، فسقطت به سقطة عنيفة ، ونقل إلى مستشفى ربيز فى بيروت ، ولم يلبث فيه سوى أيام قلائل ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الجمعة ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٠ . ونقل رفاته إلى الفريكة ، حيث يقوم ضريحه الفخم فى مدفن الأسرة الريحانية محجة للزائرين .

وفى بيت الريحانى فى الفريكة اليوم متحف صغير خصصه أخوه ألبرت الريحانى لكل ما خلفه أمين بعد موته من آثار ؛ ففيه الهدايا والرسائل التى تلقاها

من ملوك العرب وأمرائهم ، والملابس التى كان يرتديها فى أثناء سياحته فى الأقطار العربية ، ونسخ من مؤلفاته العديدة . وهناك غرفة أخرى بقيت كما كانت فى عهد أمين : بسقفها المزخرف ، وأرضيتها الخشبية ؛ وغرفة أخرى تحوى مكتبته الكبيرة الفخمة ، وغرفة رابعة ما تزال فيها الصورة الدينية التى كانت تتعبّد لها المرحومة أم أمين الورعة طوال حياتها . وقد كان أمين حريصاً كل حياته على رضى أمه ومحبتها ، وعلى أن تظل لها عبادتها المفضلة . وما يزال أخوه ألبرت حريصاً كذلك على أن يبقى هذا الأثر من آثار تقواها وعبادتها الملازمة حرصه على آثار أخيه الأدبية ، وعنايته بطبعها طبعات أنيقة فخمة تليق بمكانته العالية . ومثل ذلك حرص على أن يرافق زوّاره إلى زيارة ضريح الأمين ، على ربوة فى أعلى الفريكه .

٢ – جبران خليل جبران
عميد الرابطة القلمية

« يا إخوتى وجيرانى ! ويا أيها المارّون ببابى كل يوم ! . . لقد أحببتكم كثيراً ، وفوق الكثير قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم ، وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً . فى ربيع قلبى كنت أترنم فى جنانكم ، وفى صيف قلبى كنت أحرس بيادركم أجل ، قد أحببتكم جميعاً : جبّاركم وصعلوككم ، أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت من يتلمس منكم سبيله فى الظلام ، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام »(١) .

كذلك أحب جبران العالم ؛ والمحبة عنده هى « ضحك بعيد فى أعماق الروح »(٢) فهو يحب العالم بكل ما فيه من إخلاص « الإنسان » وحنين « الشاعر » وحيوية « الفنان » ، وهى الصفات الثلاث التى يتكون منها ذلك « الأديب » الذى ندعوه « جبران خليل جبران » : فلقد كان جبران « إنساناً » ،

---

(١) السابق . (٢) آلهة الأرض .

يحب كل إنسان على وجه الأرض خارجاً عن حدود الدين والجنس والإقليم ، لأن كل إنسان هو أخوه فى رابطة الإنسانية الكبرى ، أو هو صورته فى محيط الوجود الواحد الذى لا ينفصل : ثم لأن « المحبة هى ربه ومعلمه على كل حال[١] » .

وكان « شاعراً » يرسم بدم القلب ، ويكتب بعصير الروح ، ليغنى بأفراح الإنسانية ، ويبكى بأوجاعها ؛ وكان « فناناً » يعبر بالخطوط عن نوازع النفس البشرية ، ويصوّر آلام الإنسانية وآمالها . وقد سخر كل مواهبه العالية لقيادة البشرية إلى الجمال والخير والحق ، وإلى الحب والسعادة والحرية . ولا غرو فجبران أول أديب عربى فى العصر الحديث جهر بإيمانه المطلق بوحدانية الوجود ؛ فهو دائماً « يرى صورته فى كل الصور ، ويسمع صوته فى كل الأصوات »[٢] ويقول : « خيّل إلىّ فى الأمس أنى ذرّة تتموج مرتجفة فى دائرة الحياة بغير انتظام ، واليوم أعرف كل المعرفة أننى أنا الدائرة ، وأن الحياة بأسرها تتحرك فىّ بذرات منتظمة »[٣] . لذلك لا غرابة فى أن يبذل حبّه للناس ، وأن تكون محبته لا تعطى إلا نفسها ، ولا تأخذ إلا من نفسها . . . ولا تملك شيئاً . . لأنها مكتفية بالمحبة[٤] أو هى بكلمة أخرى ، محبة لأجل المحبة نفسها ، لا لغرض ترابى آخر . وهل فوق هذه المحبة محبة يبذلها إنسان للناس ؟

إذن فالمجتمع الإنسانى هو الألف والياء فى أدب جبران : الشاعر والفنان ، وهو الحقل الذى يغرس فيه عصارة روحه وشعوره ، وفيض عقله وخياله . ونحن ، بعد ، نستطيع أن ندرس كل ما خلفه لنا جبران من بدائع أدبه ، ومن روائع فنه على أنه نفحات من المحبة الكبيرة يبذلها لأبناء الحياة المتعطشين إلى المحبة الحقيقية . فجبران الشاعر « الثائر » فى (الأجنحة المتكسرة) ، و« المتمرد » فى (الأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، وحفار القبور ، والعواصف) ، و« الحالم » فى (دمعة وابتسامة) ، و« الحكيم » (فى المجنون ، والسابق ، والمواكب) ، و« الهادى » فى (النبى) هو عينه جبران المحب للإنسانية فى كل هذه الكتب ، والذى يدفعه حبه العظيم إلى أن يظلّ يحفر القبور – بقلمه – ليدفن فيها كل ما

---

(١) آلهة الأرض .
(٢) رمل وزبد .
(٣) رمل وزبد .
(٤) النبى .

ينغص سعادة الإنسانية من حماقات بعض أبنائها الذين يعيثون فيها فساداً ليبنوا لأنفسهم مجداً وجاهاً وسلطاناً وثروة على حساب البعض الآخر ، ويدعون كل أعمالهم تقاليد وشرائع مقدسة . وهو يسخّر كل فنه وشاعريته فى محاولة الوصول إلى كل قلب ، وكل ضمير ، وكل إدراك ، ليوقظ فى الناس الشعور الحى بإنسانيتهم التى يجب أن لا تذل وتضعف .

. لقد ثار جبران على كل ما فى الحياة من لؤم وجهل وضعف ؛ فهل تكون الثورة على اللؤم والجهل والضعف إلا محبة كبيرة للإنسانية التى ترزح تحت أعبائها الثقيلة ؟ وحتى حين يهتف بمرارة ساخطة قائلاً : « إنى أكرهكم يا بنى أمى ، لأنكم تكرهون المجد والعظمة ! أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم »(١) أليست كراهيته هذه حبًّا مقدساً مخلصاً ؟ ! لقد قال هو نفسه فى سبب هذه اللهجة الساخطة ما يلى : « لا بأس ، فإنى سأحبهم أكثر ؛ نعم ، أكثر فأكثر ، ولكنى سوف أسدل على محبتى ستاراً من البغض ، وأستر عواطفى بشديد كراهيتى »(٢) وأضاف قائلا : « كذا شهرتكم بشفتى ، ولكن قلبى ، والدماء تنزف منه ، كان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها »(٣)

وجبران فى هذا كله هو فى طليعة الرعيل الذى شق فى الأدب العربى هذا الطريق ، وقلمه كان أول قلم عربى ، فى مطلع عصر النهضة الحاضرة ، كان يتفجر بقوة دافقة بنور الحرية والمحبة والأخوة الإنسانية . ثم بتأثيره سارت بعض الأقلام الأخرى على الطريق التى عبّدها هو بجهاده الكبير .

ولم يكتف جبران بأن نفخ الروح الصحيح فى الأدب العربى الحديث ، وإنما كان أول من شق للناس سبيل البساطة فى التعبير عن خوالج النفس والحياة ، ومع البساطة الجمال فى الأساليب الكتابية . وقد كانت مؤلفاته فى حينها فتحاً جديداً ، لم يكن يعرف مثله الأدب العربى الحديث الذى كان ينوء قبل جبران تحت ركام من الألفاظ المتحجرة ، والقواعد الثقيلة .

لقد بدأ نجم جبران الأدبى فى الظهور ، من مهجره البعيد ، منذ أوائل هذا

---

(١) العواصف .

(٢ و ٣) السابق .

القرن العشرين ؛ ثم قبل أن تشبّ الحرب الكونية الأولى ، وفى أثنائها ، كان أدب جبران ملء الأسماع والقلوب فى الشرق العربى ؛ فقد تفتحت عيون الناس وقلوبهم على ألوان جديدة زاهية من الأدب تطل عليهم من بين دفات الأجنحة المتكسرة وعرائس المروج ، ودمعة وابتسامة ؛ فيها الروح الفائرة ، والعاطفة الحارة ، والفكرة المتوقدة ، وفيها الخيال المحلق ، والتصوير الرائع ، والعبارة المشرقة . وفى أثناء الحرب الكونية الأولى ، وبعدها ، اتصل بجبران جماعة من الشبان المتوقدى الشعور ، والمخلصين فى رغبتهم فى تحرير الأدب العربى من قيوده الثقيلة التى تعوقه عن رؤية النور ، فكان من تعاونهم جميعاً حافز جديد على النهوض بالأدب العربى ، إلى حيث يجرى مع أرقى الآداب العالمية ؛ فكانت « الرابطة القلمية » التى ضمت باقة طيبة من ذوى المواهب الأدبية الكبيرة ، كان على رأسهم جبران ينفخ فيهم من روحه ويبارك نشاطهم وإخلاصهم ، مما جعل « الرابطة القلمية » شعلة متوهجة ، تحمل إلى الشرق نوراً ، وحياة ، وحرية ، ويداً رحيمة تمسح عن عينيه جمود العدم .

كانت كتابات جبران قبل تأسيس الرابطة القلمية ، بالعربية ، ثم انصرف بعد ذلك إلى التأليف بالإنجليزية ، لأنه شاء أن تنتشر رسالته الأدبية بحيث تعم أكبر عدد ممكن من الناس . كان أول سهم أطلقه من جعبته فى هذا الاتجاه الجديد ، هو كتابه « المجنون » ثم تلاه بـ « النبى » الذى حمل خلاصة رسالة جبران الروحية المثالية إلى البشر الغارقين فى مادية العصر الحاضر الطاغية على كل ما هو روحى خالد فيهم . ثم مضى بعد ذلك قدماً فى هذا السبيل ، وإن كان لم يتخلّ عن مواصلة إمداد « السائح » – جريدة الرابطة – بفصول روائع من كتاباته العربية . ولقد اجتمع لديه من المؤلفات الإنجليزية عدد غير قليل ، أقبل عليه القراء فى الغرب ، وما يزالون إلى اليوم يزدادون إقبالاً ، وترجم إلى عدد كبير من اللغات العالمية ، وكذلك إلى العربية ، إذ كان المطران بشير[1] يعنى بترجمة مؤلفاته الإنجليزية إليها بأسلوب يقرب كثيراً من أسلوب جبران نفسه .

(١) توفى المطران بشير عام ١٩٦٥ .

أمـا كتبه الإنجليزية فهى : المجنـــون « The Madman » ، النبى « The Prophet » ، السابق « The Forerunner » ، آلهة الأرض « The Earth Gods » يسوع ابن الإنسان « Jesus Son of Man » ، رمل وزبد « Sand and Foam » ، التائه « The Wanderer » ، وحديقة النبى « The Garden of the Prophet » – وهذا الأخير ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور ثروت عكاشة .

ولما كان جبران رساماً ، ينحو فى فنه منحى رمزيًّا خاصًّا ، لذلك لم تخل كتبه هذه – وكذلك كتابه الشعرى العربى « المواكب » – من مجموعات من الرسوم الرمزية التى تمثل فِكَراً معينة من مواضيع تلك الكتب . غير أنه لا يستطيع أن يحل رموز هذه الرسوم ، كما أرادها جبران ، إلا الأقلون ؛ فمثلاً إذا أراد جبران أن يرمز إلى قدرة الله المدبرة للكون رسم كفًّا فى وسطها عين تحيط بها العوالم أجساماً مترابطة فى حلقة واحدة ضبابية متماسكة منسجمة للدلالة على الوحدانية الكاملة المطلقة فى الوجود ، تلك الوحدانية التى كان جبران شديد الإيمان بها ، والتى استطاع أن ينقل إيمانه بها إلى زملائه فى الرابطة ، فوجد من بينهم من حملوا رسالتها بعده مخلصين .

وإذا أراد أن يصور النزوع إلى الحرية ، رسم شابًّا طويلاً قوىّ الجسم ، له جناحان ، وقد انفرجت رجلاه وتجمعت كل قواه ، وتكمشت كل عضلاته القوية من فرط ما بذله من جهد لكى يطير عن الأرض ، ولكنه لا يتمكن من الطيران لأن رجليه مقيدتان بقيود كثيرة هائلة من رغباته ونوازعه الأرضية .

وهكذا قل فى رسومه الأخرى المبثوثة فى أكثر كتبه ، فهى رموز إلى فكر كبيرة يعتنقها جبران . وقد كان يتعمد الجمع بين الأدب والفن فى كتبه ، لأن ميزته الكبرى هى التصوير : التصوير بالألفاظ ، والتصوير بالخطوط ؛ فكان يجمع بين فن التعبير بالألفاظ ، وفن التعبير بالخطوط ، لكى تتعاون الصورة واللفظ على تأدية معانيه الكبيرة .

وخلاصة القول : لقد كان جبران ، فى عصر النهضة هذا ، أول أديب عربى آمن بأن الأدب هو رسالة سامية تؤديها الألفاظ المكتوبة ، وأن رسالته هى أن يفتح عيون الناس على الجمال والحق ، ويقودهم إلى ينابيع الحب والحرية

وقد حمل رسالته هذه بإخلاص ، وسار ينشرها بين قومه أولاً ، ثم بين سائر أبناء الحياة ثانياً ، لأن رسالة الحياة لا تقتصر على أناس دون الآخرين ، وإنما تتخطى كل حدود الزمان والمكان ، والدين والجنس ، واللغة والإقليم ، والتقاليد والشرائع ، لتلقى فى كل النفوس بذور الخير والحق والسعادة الأكيدة . .

وهكذا استطاع جبران ، الشاعر والفنان ، أن يكون النفحة الأولى فى حياة الأدب العربى الحديث ، وأن يجعل للأدب العربى جذوراً قوية باقية فى حقل الآداب العالمية الخالدة ، ويجعل من بين حملة الأقلام العرب أديباً عالميًّا خالداً يفاخر به الشرق والغرب على السواء ، وأن يجدد عهد الرسالات التى ظهرت فى الشرق قديماً ، بنشر الإيمان برسالة الشرق الروحية التى يمكنها أن تقود أبناء الحياة إلى سعادة الحياة .

سيرة جبران

بين بربارا يونغ ، وميخائيل نعيمه ، ويوسف الحويّك ، وماري هاسكل

من المفيد جداً أن نعقد هنا مقارنة بين كتابين وضعهما صاحباهما فى ترجمة حياة جبران وأعماله الأدبية والفنية . وهذان الكتابان هما : « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمه و« هذا الرجل اللبنانى — This man from Lebanon » — لبربـارة يونغ .

والمعروف أن نعيمه كان رفيقاً لجبران خلال فترة طويلة منتجة من حياته وحتى يوم وفاته ، وأن بربارة يونغ كانت سكرتيرته خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته ، وكانت « القابلة » التى تلقت يداها ميلاد روائعه الأدبية منذ عام ١٩٢٥ ، حتى اللحظة التى فارق فيها الحياة فى مستشفى « سان فنسنت » فى نيويورك ، الساعة الحادية عشرة ليلاً ، من اليوم العاشر من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١ ، وكانت بعد وفاته وكيلة أعماله الأدبية .

وما دام الأمر كذلك فلابد من أن يكون ما يكتبه هذان الرفيقان عن الرجل ذا أهمية خاصة ، ويستحق من القراء الاهتمام الشديد ، كما يستحق المقارنة لكى نرى كيف ينظران إلى حياة الرجل الواحد الذى لازماه ، والذى أبديا فى كتابيهما حبًّا له ، ولكنه كان حبًّا حارًّا عميقاً فى أحد الكتابين ، وحذِراً غامضاً ، مثيراً للريب أحياناً ، فى الثانى .

وأول ما يلاحظه القارئ المتمعن فى الكتابين هو فقدان المودة بين المؤلفين فقداناً تامًّا : فنعيمه لا يذكر برباره يونغ فى كتابه كله إلا مرة واحدة فى الفصل الأول ، فيشير إلى أنه التقى بها أمام غرفة جبران فى المستشفى أثناء ساعات نزاعه ويصفها – دون أن يذكر اسمها – بأنها : « طويلة القامة ، عظيمة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادة الأنف ، غارقة العينين » وأنها « شاعرة أميركية فى النصف الأول من عقدها السادس ، عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقرّبت منه ، وكانت تساعده فى نسخ مؤلفاته ، وقد التقيتها مرة عنده . . »

والقارئ قد يفهم من هذا – إذا استطاع أن يحزر أن برباره يونغ هى المقصودة بهذا الكلام – أن علاقتها بجبران علاقة عابرة جدًّا ما دام نعيمه يقرر أنه التقى بها عنده « مرة واحدة » خلال سبع سنوات ؛ فى حين تتحدث هى عن صلتها بجبران بما يؤكد أنها لازمته ، وكانت رفيقة عمله الدائمة خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته . فتقول فى مقدمة كتابها : (لقد كان من حسن حظى ومن دواعى غبطتى أن أعرف جبران شاعراً ورساماً ورفيقاً حبيباً لمدة سبع سنوات ، وحتى اللحظة الأخيرة من حياته . سبع سنوات من الصداقة والعمل ، حتى لقد قال هو نفسه مرة متلطفاً إننا كنا « شاعرين نعمل معاً باسم الجمال ») .

ثم تروى فى الفصل التاسع أن عملها مع جبران بدأ فى خريف عام ١٩٢٥ واستمر إلى النهاية ؛ فهى التى كانت تتلقى مولد قصائده ومؤلفاته الجديدة كلها ، وهى بعد ذلك التى أعدت كتابه الإنجليزى « حديقة النبى – The Garden of the Prophet » للطبع ، لأن جبران مات قبل أن يعده الإعداد اللازم ، بل تركه أجزاء مبعثرة تحتاج إلى من له معرفة وثيقة بروح جبران وطريقته وأهدافه لكى يؤلف بينها .

أما نعيمه فلم تذكر برباره يونغ اسمه الصريح ، ولا وصفته قط فى أية صفحة من صفحات كتابها وصفاً صريحاً كوصفه لها ، ولكنها أشارت إليه إشارة صغيرة غامضة فى خلال حديثها على انفراط عقد « الرابطة القلمية » بعد وفاة جبران فقالت (One *who Shall be nameless,* has departed from the faith) أى: « وواحد من أعضاء الرابطة ، لن أسميه ، حاد عن الإخلاص لها » .

وليس لدينا أى شك فى أن هذا الشخص الذى تعنيه وتأبى أن تذكر اسمه هو نعيمه نفسه ؛ أما بقية أعضاء الرابطة الذين كانوا أحياء عندئذ فقد ذكرت أنهم ظلوا يعملون فى رابطتهم بملء الإخلاص لها ولذكرى عميدها الذى سبقهم إلى الأبدية .

هذه الإشارات العابرة – أو الحرب الباردة – بين نعيمه وبرباره تصرّح بأقصى وضوح عن روح العداء المستحكمة بين الاثنين – لا ندرى لماذا ، أو لعلنا ندرى إذا علمنا أن جبران قد ائتمن برباره على مؤلفاته وأعماله الأدبية بعد وفاته ، ولم يكل أمرها إلى نعيمه ؟ . . – وهى ترينا كذلك كيف كتب كل منهما كتابه عن جبران بروح تختلف عن روح الآخر . وهما إذا اتفقا – إلى حدّ ما – فى الحديث على بعض آثار جبران الأدبية والفنية ، وأهميتها ، وأثرها البعيد ، فإنهما يختلفان كل الاختلاف فى ما يتعلق بشخصه وسلوكه كإنسان ؛ فبينما يهبط به نعيمه إلى الدرك الأسفل من الشهوانية ، تمضى برباره يونغ فى الحديث على حياته الخاصة ، وشعوره الجنسى ، ومسلكه الأخلاقى – فى الفصل الرابع عشر من كتابها – فترينا إياه إنساناً كباقى الناس المرهفى الشعور ، يتأثر بعوامل الجنس ، ويشعر بالظمأ إلى امتلاء العاطفة ، ولكنه لا ينحط إلى درك اللا أخلاقية الشهوانية .

ويتساءل القارئ : هل اتفق الكاتبان فى شىء بقدر ما اختلفا فى كتابيهما ؟

والحقيقة أنهما ، فى ما يتعلق بجبران الإنسان ، كانا شديدى الاختلاف ، بل كانا على طرفى نقيض ، فلم يكادا يتفقان إلا على أن جبران ولد ومات ، وبين الولادة والموت تنقّل بين لبنان وأميركا وفرنسا ، وكان أديباً وفناناً ، ألّف كتباً بالعربية والإنجليزية ، وصنع رسوماً عديدة ، وما إلى هذا من الأمور الأولية

التى لا يجوز الاختلاف فيها لأن جميع الناس يعرفونها ولو لم ترد فى هذين الكتابين .

وطبيعى جداً أن يختلف كاتبان فى طريقة عرضهما للأشياء . وفى تذكر بعض الحوادث ؛ ولكننا لا نفهم كيف يختلف كاتبان مثل نعيمه وبرباره يونغ – عاشا مع الرجل نفسه مدة غير قصيرة من عمره – فى الرواية الواحدة ، للشىء الواحد من أعماله أو أقواله ، وفى النظر إليه – والمفروض أن ينظرا من جانب واحد – إلا أن تكون هناك عوامل نفسية خاصة هى التى تقرر هذه النظرة وتلك الرواية . . .

من ذلك ، مثلاً ، رواية نعيمه لحادثة تلاوة فصول من كتاب « النبى » وتمثيله فى إحدى كنائس نيويورك . وهو يروى أن ذلك قد وقع مرة واحدة ، فى حين تذكر برباره يونغ أنه كان يجرى كل سنة .

إن المؤلفين يتفقان على عظمة هذا الكتاب ، ولم يقصرا فى الثناء عليه – وهو كتاب أثبت الواقع عظمته كذلك بدليل عشرات الطبعات التى طبعها بالإنجليزية ، وعشرات اللغات العالمية التى ترجم إليها ولكن لماذا كان الاختلاف فى حادثة تمثيله وتلاوة فصوله فى الكنيسة ؟ !

وكذلك لماذا كان اختلاف المؤلفين فى رواية عبارة جبران (I am a false alarm) وشرح معناها ، بحيث اكتفى منها نعيمه بهذا الجزء وحده ، وفسرها بأنها اعتراف من جبران بحقارته النفسية ، وتصوير منه لنفسه بصورة الخدّاع الحقير ؛ فى حين أوردتها برباره بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وذكرت العبارة كاملة كما يلى : «I am a false alarm, I do not ring as true as I would» ثم أكملت شرحها بأن جبران لم يكن يرضى عن نفسه إلا إذا رآها فى أعلى مستوى من الكمال الإنسانى . وهو شرح يتفق كل الاتفاق مع النصف الثانى من العبارة ، ويتفق كل الاتفاق أيضاً مع ما يرويه أصدقاء جبران الآخرون – عدا نعيمه – عن سيرة جبران ، وما تبينه أقوال جبران فى جميع مؤلفاته .

والقارئ يشعر فى رواية برباره بأبلغ الإعجاب والمحبة لهذه الروح – روح جبران – التى تعيش فى صراع دائم لأجل الكمال . فى حين أن رواية نعيمه تشعره

بالنفور والحذر من هذا الإنسان الذى يعيش على خداع نفسه وخداع الآخرين . وشتان ما بين الصورتين !

وهناك حوادث وأمور وأقوال وردت فى الكتابين بكثير من التناقض والاختلاف ، كالذى ورد من قصة العمارة التى اشتراها جبران وأجّرها لرئيسة إحدى الجمعيات النسائية ؛ وأحاديث علاقات جبران الجنسية ، ومعارضه الفنية ، وقيمته فى نظر الناس ، ووطنيته ، وغيرته على أبناء بلاده ، مما لا يتسع المجال لتفصيله .

وهناك كتاب آخر عن جبران للفنان اللبنانى يوسف الحويّك عنوانه : « ذكرياتى مع جبران » وقد صدر عام ١٩٥٧ وفيه كثير من الإنصاف لجبران .

خذ مثلا فصل « مرض جبران » من كتاب يوسف الحويك (صفحة ١١٩ – ١٢٦) ، حيث يروى الحويك أن جبران أراد أن يهدى إلى روزينا الإيطالية سلسلة وثلاثة أساور من الفضة ، ولكنه لم يجرؤ على تقديمها لها بنفسه ، بل قدمها إلى يوسف وقال له : « أعطها يا يوسف هذه الهدية كما لو كانت منك » . فرفض يوسف أن يفعل ذلك ، بل التفت إلى الفتاة وقال لها بالإيطالية : « اقبلى هذه الهدية من جبران واشكريه » .

وإليك كيف يكمل يوسف الحويك هذه القصة :

« والتمعت عينا روزينا بفرح طفلة تفاجأ بهدية تحبها ، ولم تحاول ضبط سرورها ، وسارعت إلى الخيط المدلى من عنقها تستبدل به السلسة الجديدة . وبعصبية أدخلت الأساور الفضية فى زندها ، ثم التقطت يد جبران وهمّت أن تقبلها . فقلت لها :

على خده ! . .

فتخضبت وجنتاها بالدم ، وكذلك وجنتا جبران ، وتركها تقبله دون أن يجرؤ على إعادة القبلة . . . »

ثم يعلق الحويّك على ذلك بقوله :

« لقد كان جبران حييًّا ، **يجيد فنون الغزل فقط فى الكتابة والكلام** » .

ويضيف إلى ذلك :

« **لم يكن جبران إبان وجوده فى باريس « دون جوان » كما يزعم البعض ...** »

ويوسف الحويك كان رفيق جبران فى باريس من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٠ . وكانا يقيمان معاً ، ويعملان معاً ، ويتنزهان معاً . والحويك أعرف « بخصوصيات » جبران خلال هذه الفترة من أى إنسان آخر . ويعترف نعيمه نفسه فى مجلة « الحكمة » البيروتية بأنه لا يعرف شيئاً عن خصوصيات جبران الغرامية (الحكمة – عدد كانون الأول سنة ١٩٥٦ – فى حديث لنعيمه مع الدكتور جميل جبر) .

أما حكاية ميشلين التى كان لها شأن كثير البروز فى ما كتبه نعيمه عن جبران فإن يوسف الحويك يلقى لنا ضوءاً على هذا الاسم ، وبهذا الضوء نستطيع أن نستنتج نحن الحقيقة الكامنة وراءه ، وإن لم يهدنا إليها الحويك ولا سواه .

فى الفصل الختامى من كتاب « ذكرياتى مع جبران » للحويك ، وعنوانه « سفير روزينا » حديث بين الحويك والفتاة الإيطالية الفنانة – وهى فتاة رائعة الجمال كما يذكر الحويك – . وكان جبران قد غادر باريس ووصل إلى بوسطن ومن هناك كان يكاتب صديقه الحويك . وهذا هو الحديث :

روزينا – هل لديك أخبار من المسيو جبران ؟

الحويك – نعم ، وهو دائماً يسألنى عنك .

– أرجوك عندما تكتب له أن تهديه سلامى وتقول له . . .

– ماذا أقول له ؟

– إن روزينا كلما نظرت إلى الأساور الفضية تذكرك بالخير ...

ثم يتابع الحويك ذلك الفصل قائلاً :

سألتها فجأة :

– روزينا ! أصدقينى الخبر . . ما رأيك بصديقنا جبران ؟ أنا أعلم أنك كنت أثناء أسفارى تجلسين له[١] ، وأنه كان يدعوك أحياناً للأكل . . .

---

(١) كانت روزينا « مثالا » للرسم لجبران ويوسف الحويك . وقد حال جبران حينما أدخلها عليه يوسف لأول مرة بشعرها المنسدل كسبائك الذهب (لم تر عيناى أجمل من هذا الشعر) ثم قال بعد أن نزعت ثيابها واتخذت مجلسها على الطاولة ليرسمها : (هؤلاء هم الملائكة : آه أيا ليتنى واحد منهم !) .

فقالت روزينا :

– جبران يا سيدى أمير ، لطيف ، مهذب . لم تبدر لى منه ولا مرة حركة أو كلمة غير لائقة . لم أكن دائماً أفهم كل ما يقول ، إنما كنت بحدسى أشعر أن أحاديثه هى فوق مستوى الأحاديث العادية ، وأنها ممتعة وشائقة .

وأردفت بعد تفكير قليل : كدت مرة أتزاعل مع مرغريت[1] لأنها قالت لى : إن جبران ككل الرجال ، وإنه دعاها يوماً للغداء ، وأخبرها أنه يحب امرأتين : « بياتريس ومسالين » .

ويضيف الحويك قائلاً :

(هنا لم أتمالك من الضحك ، وقلت لها :

لم يكن جبران يحسن التعبير عن نفسه بالفرنسية ... وليست بياتريس) ومسالين هاتان سوى رمزين . . .

ميشلين ، ومسالين ! . .

إنهما اسمان متشابهان جداً . . ولكن مسالين إمبراطورة رومانية مشهورة فى التاريخ أما ميشلين ففتاة خيالية من صنع ميخائيل نعيمه . . . ويخيل إلىّ أن هذا الاسم محرّف عن « مسّالين » ، وأن حكاية اجتماعات جبران وميشلين فى باريس بالأوصاف والتفاصيل الخيالية المسيئة إلى جبران ، كما وردت فى كتاب نعيمه كلها ابتدعت على أساس قول جبران إنه يحب بياتريس و« مسالين » وإن لم يصنع ميخائيل نعيمه قصة أخرى عن بياتريس ... ومعروف أن هذا هو اسم حبيبة الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى التى كتب فيها « الكوميديا الإلهية » و« الحياة الجديدة » .

إن هذا الفصل من كتاب « ذكرياتى مع جبران » للحويك يفسر لنا بجلاء حقيقة قصة « ميشلين » فى كتاب نعيمه عن جبران . وقبل الحويّك كان عبد المسيح حداد ، رفيق العمر لجبران ، قد أنكر كذلك قصة « جبران وميشلين » فى حديث له مع يوسف البعينى نشرته « العصبة » و« السائح » .

ولكنّ هناك مصدراً آخر لسيرة جبران ، لعلّه أصدق المصادر لأنه أقربها

---

(١) فتاة يهودية كانت تبيع الكتب ، وكانت تحب جبران كثيراً ولكنه لم يكن يعيرها التفاتاً .

إليه وألصقها به . ذلك المصدر هو (مارى هاسكل) ومذكّراتها عن جبران . كما كشفها توفيق صائغ فى كتابه (أضواء جديدة على جبران) الذى صدر أولاً فصولاً فى مجلة (حوار) اللبنانية عام ١٩٦٦ ، ثم نشر على حدة فى العام نفسه .

هذه الأضواء الجديدة من مذكرات مارى هاسكل تجعل من الضرورى أن يعيد ميخائيل نعيمه النظر فى كتابه ، لتصحيح الكثير ممّا جاء فيه عن سيرة جبران ، وعن ميشيلين ومارى هاسكل ، وعن علاقات جبران الإنسانية والجنسية ، وغيرها .

إن نعيمه قد جعل جبران يدمّر حياة ميشيلين تدميراً كاملا – ولا سيما فى اجتماعاته معها فى باريس ، التى زوّقها نعيمه بكلّ ما شاء له الخيال من صور الحقارة والنذالة – وأن يدفع بها إلى الاختفاء نهائيًّا من الحياة . ولكنّ مذكرات مارى هاسكل ترينا أن ميشيلين – المعلمة فى مدرسة مارى هاسكل ، وصديقة جبران ومارى هاسكل معاً – قد تزوّجت ، وأنجبت ، وعاشت حتى العام نفسه الذى توفى فيه جبران (١٩٣٠) وتوفيت بعده بستة أشهر . وليس فى ما ترويه مارى هاسكل عن صلة جبران بميشيلين ما يمكن أن يشير إلى أن جبران قد دمّر حياتها ، أو حاول ذلك .

ويحاول نعيمه أن يصوّر لنا جبرانَ صورة قذرة أخرى ، وأنه حين عرض على مارى هاسكل أن يتزوّجها ، سألته : « هل أنت نظيف يا جبران ؟ » ومضى يعلّق على ذلك ما شاء من تعليق يسيء إلى سمعة زميله ورفيقه القديم . ولكن المذكرات تؤكد أن مارى كانت تحب جبران ، وتودّ لو تتزوجه ، لولا أنها كانت أكبر منه بعشر سنوات ، وأنها كانت ترى نفسها آخذة فى الانحدار نحو الشيخوخة ، فى حين يمضى هو صعداً نحو القوة والمجد . وكانت تشعر بحسّ الأنثى وغريزتها أن هذا الفارق الكبير لن يكتب السعادة لزواجهما .

لقد أراد نعيمه فى كتابته لسيرة جبران أن يصوّره أسوأ صورة ممكنة ، ولكننا لم نجد بين زملائه الآخرين فى الرابطة ، ولا بين أصدقاء جبران العديدين ، وأحسنهم يوسف الحويك ، وبرباره يونغ ، ومارى هاسكل ، من يدعم رواياته أو يرضى عنها . حتى عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس ، من زملاء نعيمه فى

الرابطة القلمية ، نفيا بشدّة كلّ ما اختلقه نعيمه عن جبران وما صوّره به من صور الحقارة الخلقية . حتى الريحانى ، أكبر خصوم جبران فى حياته ، لم يستطع إلاّ أن يهاجم نعيمه بعد صدور كتابه حول جبران ، لما وجده فيه من اختلافات مسيئة إلى الحقيقة .

من خصوم جبران

لكل عظيم فى الدنيا خصوم وأنصار ، خصوم قد يثيرهم اختلاف المبدأ والعقيدة ، أو اختلاف نهج التفكير والعمل ، كما قد يثيرهم الحسد أو التعصب ؛ وأنصار قد تؤلف بينهم وحدة المبدأ والعقيدة ، أو وحدة نهج التفكير والعمل ، كما قد يؤلف بينهم الإعجاب والحب . وجبران خليل جبران ، ككل عظيم آخر ، عاش ومات كثير الخصوم ، وكثير الأنصار ؛ ولم يعدم بعد موته خصوماً وأنصاراً جدداً ، وسيظل له فى كل جيل خصوم وأنصار ما دامت مؤلفاته حية بين الناس .

وليس من غرضى الآن أن أتحدث على أنصار جبران ، كما ليس من غرضى أن أتعرض للخصومات مع رجال الدين أو رجال السلطة الذين نالهم من قلم جبران أعنف الهجمات فى كتب متعددة ، حتى اضطروا إلى التعاون على حرق أحد هذه المؤلفات فى شوارع بيروت مرة ، وهو كتابه « الأرواح المتمردة » ؛ ولكننى سأقصر حديثى على الخصومات الأدبية والفكرية وحدها ، أو على الأصح ، على أشياء من هذه الخصومات الأدبية .

كان أشد خصوم جبران فى حياته صديقه ورفيق مهجره أمين الريحانى . وكانت الخصومة بينهما قد بدأت بسبب خلاف عقائدى قومىّ — كما ذكر الأستاذ ألبرت الريحانى فى مقال له فى العدد الأول من مجلة « القلم الجديد » المحتجبة[١] — ثم تطورت واشتدت بحيث أصبحت أدبية وشخصية أيضاً . ومعروف

(١) مجلة (القلم الجديد) ، لصاحب هذا الكتاب — عمّان — الأردن — أيلول / سبتمبر ١٩٥٢

أن الريحانى كان واقعيًّا فى أدبه ، وكان من أعظم حملة رسالة القومية العربية ، وعلى هذه الدعوة وقف نشاطه الفكرى وجهاد حياته كلها . أما جبران فلم يؤمن قط بفكرة القومية العربية ، بل كان من ناحية الشعور القومى لبنانيًّا إقليميًّا ، وإلا فهو إنسانى واسع العاطفة ؛ وهذا هو الأغلب فى معتقده السياسى . ولذلك لم يكن غريباً أن يتعرض لخصومة الكثيرين ممن امتلأت نفوسهم بالعقيدة العربية القومية ، وفى طليعتهم رسول الوحدة العربية أمين الريحانى .

ولقد كان من نتيجة هذه الخصومة العنيفة بين الأديبين العظيمين أن الرابطة القلمية قد تألفت فى نيويورك ولم يشترك فيها الريحانى ، لأن وجوده فى رابطة واحدة مع جبران كان ضرباً من المستحيل . والحقيقة أن هذين الأديبين كانا علمين بارزين فى الأدب المهجرى ، ولكل منهما شهرته البعيدة فى أوساط الأدب فى الشرق والغرب ، وكل منهما يمثل اتجاهاً فى الأدب ويعتبر فيه « رأساً » . . واجتماع « رأسين » مثلهما فى الرابطة القلمية كان غير ممكن .

ثم مات جبران ، فزال من قلب الريحانى كل أثر للعداوة الشخصية والحقد عليه ، ورثاه بمقال يقطر أسى ولوعة ، ويطفح نبلا ووفاء وتقديراً . وقد نشر المقال فى مجلة « المقتطف » . وحينما أصدر ميخائيل نعيمه كتابه حول سيرة جبران عام ١٩٣٤ ، ثار الريحانى فى وجهه ثورة عنيفة ؛ ونشب بين الريحانى ونعيمه نقاش أدبى بلغ إلى أقصى درجة من العنف ، وكان ميدانه بعض صحف لبنان السيارة .

وكما كان الريحانى من خصوم جبران ، بسبب الواقعية الأدبية لدى الريحانى والعقيدة القومية ، كذلك كان الشاعر المهجرى إلياس فرحات من الناقمين عليه وعلى أسلوبه الكتابى وعلى الرابطة القلمية كلها من أجله . وصحيح أن خصومة فرحات لم يشتهر أمرها كثيراً ، إلا أننا لا نرى بأساً من الإشارة إليها ههنا . ولقد عبر فرحات عن نقمته على جبران والرابطة القلمية فى رباعيتين نشرهما فى ديوانه الأول « الرباعيات » وهما :

الأولى :

إنى لأعجبُ من آداب رابطةٍ … قد أوجدتْ فى نظام الشعر تشويشا
شنَّتْ على الأدب الميمونِ غارتَها … فأمعنتْ فيه تشويهاً وتخديشا

طارَتْ فخلْنا نسوراً فوقَنا ارتفعَتْ ثمّ استقرّتْ فكانت كلّها ريشا
أشعارها عَلْقَمٌ مــعْ أنهــا شربتْ من مــاء صنّين والعــاصى وقاديشا

* * *

والثانية :

أصحابُنــا (المتمــرّدون) خيـالهمْ تقضى قريش به وتحيا حِميَرُ !
لغــةٌ مشوّشة ومعــنى حائــرٌ خلف المجـاز ، ومنطقٌ متعثّرُ
« وزعيمهمْ » فى زعمهــمْ متفنّــنٌ عجباً ! أكان الفنّ فى ما يضمرُ ؟
لا الأرض تفهمُ مــا يسطّــرهُ لها ذاك الزعيمُ ، ولا السماء تفسّرُ !

ويذكر توفيق ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » أن ابن عم لجبران اسمه « نخله جبران » ، وهو أحد أغنياء المهاجرين فى البرازيل ، كان مستعدًّا لشراء خمسمائة نسخة من « الرباعيات » على شرط أن تخلو من هاتين الرباعيتين عند الطبع ؛ فلما رأى أن فرحات قد أدخل هاتين الرباعيتين غضب ورفض أن يشترى شيئاً منها .

أما خصوم جبران فى الشرق العربى فقد كانوا كثيرين جدًّا ؛ فقد جاء جبران بأسلوبه الخيالى المترقرق ، ذى التعابير الرمزية ، فى أحيان كثيرة ، فى زمن كانت تسود فيه كلاسيكية العبارة واللفظة القاموسية ، وبلاغة القدماء . ولذلك كان صوت جبران يعدّ نشازاً فى بيئة ما تزال تغطّ فى أحلام التقليد . وأكثر ما لقى جبران وزملاؤه الرابطيون من حملات وتهجمات كان فى مصر ، ومنها انتشرت العدوى إلى أقطار عربية أخرى ؛ ولولا العقاد والمازنى ، ومجلتا الهلال والمقتطف ، لاستطعنا أن نقول إن أوساط مصر الفكرية كانت كلها ضد جبران والرابطة ، فقد استقبلوا كتاباتهم ، ومؤلفاتهم بالنقد والتجريح ؛ وحجتهم فى ذلك خروجهم عن « أصول » العربية الصحيحة . وكان آخر خصوم الأدب المهجرى الأشدّاء فى عداوتهم له من المصريين ، الشاعر عزيز أباظه ؛ وظلّ على عداوته هذه حتى وفاته . إلا أن حملاتهم كلها لم تستطع أن تمنع « الأسلوب الجبرانى » من أن يسيطر على الأقلام الجديدة ، ويصبح هو الأسلوب الأدبى المفضل لدى الأجيال الأدبية الجديدة .

وهناك كتابان صغيران ، لغير أدباء مصر ، هوجم فيهما جبران هجوماً عنيفاً جداً .

أحد هذين الكتابين بعنوان « محاولات فى درس جبران » للكاتب اللبنانى أمين خالد . وقد كتب مقدمته الأستاذ فؤاد أفرام البستانى ، وطبع الكتاب فى مطبعة اليسوعيين فى بيروت عام ١٩٣٣ ، بعد أن نشرت فصوله متسلسلة فى مجلة « المشرق » اليسوعية . وأما الكتاب الثانى فهو بعنوان « جبران خليل جبران » ، ومؤلفه كاهن فلسطينى ناصرى من كهنة الروم الكاثوليك ، هو الأب إلياس زغبى . وقد طبع الكتاب فى مطبعة حريصا للروم الكاثوليك فى لبنان عام ١٩٣٩ ، بعد أن نشرت فصوله متسلسلة فى مجلة « المسرّة » التى تصدر عن دير حريصا .

الكتاب الأول يدرس جبران فى مؤلفاته ويتعرض له من الناحيتين : الأخلاقية والدينية . وقد هاجم جبران بشدة ، وحمل عليه حملات لا هوادة فيها ، معتمداً فى نقده ومهاجمته على تحليل أقواله وكتاباته تحليلاً فيه شىء من الصواب والمنطق ، وأشياء من التأويل والاستنتاج اللذين يحتاجان على الأقل إلى إعادة النظر . . . ولكنه كان موفقاً إلى حد بعيد فى الاتجاه بالنقد الأدبى وجهة الواقعية الاجتماعية والأخلاقية والعقائدية ، لا وجهة الفن المجرد . وهو بذلك أول دراسة تحليلية « خصومية » مركّزة لجبران .

أما الكتاب الثانى فقد كتب بعد أن وضع ميخائيل نعيمه كتابه على جبران ؛ ولذلك اعتمد فيه الأب زغبى كثيراً على روايات نعيمه ، ثم مضى بعد ذلك يدرس جبران فى مؤلفاته بمثل الروح والعنف واللهجة التى درسه بها أمين خالد ؛ فكان من الطبيعى جداً أن يتفق مع أمين خالد فى كثير من آرائه ، وأن يزيد عليه ، بحيث لا يجد لجبران فضيلة واحدة يمكنه الاعتراف بها . وكما خرج أمين خالد من دراسة جبران بأن جبران « يتميز بعدم الاكتراث للأخلاق فى بحثه عن لذة الجسد ، وبالخروج على قواعد الدين » كذلك خرج الأب زغبى بأن جبران « يهدم صرح الديانة المسيحية ، وينبذ جميع الأديان ، وأنه كثير الآلهة ولكن ليس الله بينها ؛ وأنه يدين بمذهب عبودية العقل والإرادة للشهوة الحيوانية ؛ وأنه هادم للسلطة المدنية ، والسلطة الدينية ، والأسرة » . وهو « صياح على قدّ الوجع »

كما يقول المثل العامى ؛ لكثرة ما لقى رجال الدين من حملات جبران عليهم .

* * *

وهنالك خصم آخر ، هو الكاتب المهجرى جبران مَسّوح (١) ، حشر جبران فى زمرة الأدباء الذين يتاجرون بأقلامهم ؛ فقال فى مقال له وجَّه الحديث فيه إلى صاحب جريدة « الصياد » اللبنانية عام ١٩٥٢ :

« المرحوم جبران خليل جبران قرف الأدب العربى وهجره إلى الأبد . . ولكنه راح يكتب بالإنكليزية ، لأن شركات الطبع والنشر الأميركية غنية تدفع أكثر من الشعب الفقير ... فهو لذلك تاجر بعبقريته ؛ ومن طبائع العبقريات أنها عندما تصير فى المزاد تقطع كل علاقة بينها وبين وطنها . . . » .

أما أن جبران « قد هجر الأدب العربى إلى الأبد » ، فليس صحيحاً ألبتة ؛ فعلى الرغم من أنه انصرف منذ سنة ١٩١٨ إلى تأليف الكتب بالإنكليزية ، إلا أنه استمر إلى النهاية يكتب فى « السائح » ، جريدة الرابطة القلمية ، كما يشهد بذلك صاحب « السائح » نفسه ؛ وقد شهد به نعيمه فى كتابه عنه ، وشهدت به الكاتبة الأميركية برباره يونغ – سكرتيرة جبران فى السبع السنوات الأخيرة من حياته – فى كتابها « هذا الرجل اللبنانى » . وفى ما يلى أترجم كلامها عن الصفحة ٣٥ من الكتاب :

« وحتى آخر حياته استمر يكتب بلغته القومية المحبوبة ، وكلما مرت الشهور كان يزداد شغفاً بقراءة العربية بصوت مرتفع ليشبع لذته فى سماع رنين ألفاظها » .

وأما تعلقه بقومه ، ونشره لفضلهم وفضائلهم باللغة التى يفهمها الأميركيون والعالم الغربى ، فلا يمكن أن ينكره إنسان . وأنا أحيل القارئ إلى كتاب برباره يونغ نفسه ليقرأ فيه الفصل الثامن بعنوان : « أهو صوت الشعب العربى ؟ » والفصل الخامس عشر بعنوان : « جبار وممتلئ بالقوة الحية » . فى الفصل الثامن خلاصة حديث طويل أفضى به جبران إلى صحفى أميركى اسمه جوزيف غولومب ، كان يحرر فى جريدة « المساء » النيويوركية ، على العرب وحضارتهم وأثرهم فى العالم ؛ فقد جعلهم فيه أساتذة العالم فى كل شىء : فى العلوم والفنون والآداب .

(١) من أدباء المهجر الأرجنتينى ، وهو ماركسى النزعة .

وقد ختم حديثه بقوله : « إن هناك أشياء كثيرة فى الشعر والأدب والفلسفة لم تترجم من العربية بعد ، ومتى أضيفت هذه الآثار الرائعة إلى الثقافة العالمية فسيجد العالم أنها آثار عظيمة قدمها شعب عظيم » وقد علق الصحفى على ذلك الحديث بقوله : « لقد ولد جبران على بعد ميل واحد من أرز لبنان الشهير ، وهو الآن يعيش مواطناً فى العالم الجديد . أهو خليل جبران نفسه الذى يعيش بيننا حقًّا ، أم هو صوت الشعب العربى وعبقريته ؟ » .

أما لماذا انصرف جبران إلى طبع كتبه الأخيرة باللغة الإنجليزية ، فالقارئ يعلم أن جبران كان يشعر بأنه يحمل رسالة روحية إنسانية إلى جانب رسالته الوطنية ، وأن هذه الرسالة الروحية شىء أوسع بكثير من أن تحده حدود العاطفة القومية ؛ ولم يكن فى وسع اللغة العربية أن تنشرها بشكل واسع فى العالم ، فى حين أن اللغة الإنكليزية تفى بذلك كل الوفاء لسعة انتشارها . وقد كان تقدير جبران فى محله ، إذ أن كتابه « النبى » – وقد وضعه فى الأصل بالعربية ولكنه لم يطبعه بها – قد ترجم عن الإنكليزية إلى أكثر من خمسين لغة عالمية ، وأعيد طبعه بالإنكليزية وحدها عشرات الطبعات(١) . وكتاب « المجنون » ترجم بعد طبعه حالا إلى نحو أربع لغات ، ثم تضاعفت ترجماته وطبعاته فيما بعد ، كما ترجم أغلب مؤلفات جبران الأخرى . وصحيح أن هذا الانتشار العظيم قد درّ على جبران أرباحاً طائلة – ولا يزال يدرّ إلى اليوم على ورثة جبران – وليس عيباً ولا جريمة أن يربح الأديب مالاً من أدبه ولقد كان يهم جبران سعة الانتشار لنقل الرسالة الروحية التى يشعر بأنه يحملها إلى العالم . ومع ذلك فقد كانت مؤلفات جبران الإنكليزية تترجم حالا إلى العربية ، وتحت إشراف جبران نفسه ، إلا كتابيه الأخيرين : حديقة النبى ، والتائه – اللذين طبعا بعد موته .

وأما شدة تعلق جبران بوطنه فيكفى دليلاً عليها شراؤه لدير مار سركيس من الرهبان الكرمليين فى قريته « بشرى » لكى يعود إلى الإقامة فيه . ولكن الأيام لم تمهله للإقامة حيًّا ، فعاد ليقيم فيه ميتاً .

---

(١) صدرت عن دار المعاف بمصر ترجمة لكتاب « النبى » فى طبعة أنيقة مزينة بلوحات جبران نفسه بقلم الدكتور ثروت عكاشة .

الواقع أن أشال جبران – وليت لدينا ألوفاً مثل جبران – هم مفاخر لهذه الأمة ، وخير دعاية لها أمام عيون الغربيين وضمائرهم العمياء ، لأنهم يُفهمونهم أن العرب ليسوا جميعهم رعاة إبل وسكان خيام ، ولكن فيهم من يرغمون الغربيين على إحناء الرؤوس أمام عبقريتهم وعظمتهم وتفوّقهم ؛ فمن الظلم أن نتهم هؤلاء بالعقوق والتنكر لأمتهم ، وهم من أعظم مفاخرها ورسلها إلى العالم .

وبعد ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يضحك كثيراً ، ويعجب كثيراً ، حين يقارن بين أقوال خصوم جبران وأقوال محبيه ، ويرى إلى أى حد تختلف الأذواق والمفاهيم ، وتتباعد وجهات النظر فى تقدير هذا الأديب الفنان الذى دخل الآداب العالمية الخالدة من أوسع أبوابها ، وبأقصى ما يمكن من الثبات ورسوخ الأقدام ، بما أنتجه بقلمه وريشته الخلاقين من آثار خالدة[١].

٣ – إيليا أبو ماضى[٢]
من الرابطة القلمية

هناك اختلاف غير قليل فى السنة التى رأى فيها أبو ماضى نور الوجود : فجريدة « السائح » فى عددها الممتاز لعام ١٩٢٧ تذكر أنه ولد عام ١٨٨٩ ؛ وهى حتماً لم تأت بهذا التاريخ اعتباطاً ، لعضو من أبرز أعضاء الرابطة القلمية التى كانت « السائح » لسانها الرسمى ، وندوتها الفكرية . فلابد أنها أخذته من الشاعر نفسه ، ولذلك ظل تاريخ « السائح » هو التاريخ الذى يعتمد عليه كل من يكتب عن أبى ماضى ، ويتعرّض لتاريخ مولده .

غير أن الأستاذ محمد قره على ، فى مقاليه المنشورين فى جريدة « الحياة » اللبنانية على أثر وفاة الشاعر ، يقول : إنه سأله عن تاريخ مولده ، حين زار لبنان عام

---

(١) أرجو أن يرجع القارئ إلى المقالات والمناقشات التى دارت على صفحات مجلة « الأديب » البيروتية عام ١٩٥٤ وما بعده ، حول كتاب « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمه بين صاحب هذا الكتاب وأدباء آخرين . لا حاجة إلى العودة إليها فى هذا الكتاب .

(٢) انظر كتاب (إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث) الطبعة الثانية . منشورات عويدات – بيروت – ١٩٥٨ .

١٩٤٨ ، فأجابه أبو ماضى بأنه ولد عام ١٩٨٠ – وهذا خطأ طباعى واضح ، وهو حتماً يقصد عام ١٨٩٠ – والفرق بين هذا التاريخ والتاريخ الذى ذكرته « السائح » عام واحد ، مع أن المصدر فى التاريخين هو الشاعر نفسه .

أما الأستاذ جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهجر » فقد ذكر أن أبا ماضى ولد عام ١٨٩١ . وهنا يزيد الفرق عاماً آخر . ولسنا ندرى على أى سند اعتمد الأستاذ صيدح فى هذا التاريخ ، مع أنه هو نفسه يشير فى هامش الصفحة عينها (٢٥٣) إلى رواية جريدة « السائح » . وإذن لابد من أن يكون قد استند هو أيضاً إلى مصدر جدير بالثقة ، وإلا فإنه لا يجرؤ من عند نفسه على مخالفة مصدر يعرف مدى صلته بأبى ماضى .

ثم تجىء رواية رابعة ، فحين نعت جريدة « الحياة » أبا ماضى فى ١٩٥٧/١١/٢٤ ذكرت أنه ولد عام ١٨٩٤ ؛ وكذلك ذكرت جميع الصحف والإذاعات التى أذاعت نبأ وفاته أنه قد توفى عن ٦٤ عاماً . وإذن تكون كلها متفقة على أن عام ١٨٩٤ هو التاريخ الصحيح لمولده ، مع أنه يبعد خمس سنوات عن التاريخ الأول الذى جاء فى رواية « السائح » .

وغريب جداً أن تتضارب الروايات إلى هذا الحد فى مولد شاعر عظيم كأبى ماضى ، كان إلى الأمس القريب جداً ملء السمع والبصر والقلب ؛ وليس غريباً إذن أن تتضارب الروايات فى التأريخ لإنسان ممن عاشوا فى العصور المتقدمة .

أما مسقط رأس أبى ماضى والقرية التى تفتحت عيناه – أول ما تفتحتا – على جمالها وروعة مناظرها ، فهى قرية « المحيدثة » ، جارة بكفيا ، التى يحيها صنين مع شروق الشمس ، وتجثو عند أقدامها التلال والأودية ، وأشجار الصنوبر والسنديان المتعالية على السفوح والهضاب .

ولم ينل إيليا من الثقافة المدرسية إلا ما قدمته له مدرسة القرية الصغيرة ، ثم غادرها إلى الإسكندرية وما يزال فى الحادية عشرة من العمر . وكان ذلك عام ١٩٠١ ، كما يذكر محمد قره على فى « الحياة » نقلا عن أبى ماضى نفسه ، أو عام ١٩٠٢ ، كما يروى جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا » .

ولسنا نعرف الكثير عن حياة أبى ماضى فى طفولته فى « المحيدثة » ، ولا عن

شبابه الأول فى الإسكندرية . وكل ما نعرفه من القليل الذى كتب فى هذه الناحية أنه كان هناك يبيع السجائر ؛ فلم يكن الرزق موفوراً بالشكل الذى يحلم به إنسان اغترب عن أهله فى ميعة الطفولة بحثاً عن الرزق .

وقد أورد محمد قره على رد أبى ماضى على سؤال له حول هذه الفترة ، وهو كما يلى :

« وفى الإسكندرية تعاطيت بيع السجائر فى النهار فى متجر عمى ، وفى الليل كنت أدرس النحو والصرف ، تارة على نفسى ، وتارة فى بعض الكتاتيب . وقد أقمت فى الأراضى المصرية أحد عشر عاماً ، نظمت خلالها ديواناً من الشعر . أما قصائدى الوطنية فلم أودعها ذلك الديوان ، لأن سياسة ذلك الزمن كانت تعاقب بالسجن ، من شهر إلى ستة أشهر ، كل من قال بيتاً من الشعر يشتمّ فيه رائحة النقد » .

وهذا الحديث القصير هو جماع ما نعرفه عن الفترة التى قضاها الشاعر فى مصر . وليس من السهل أن نعرف أكثر منه ، فقد كان أبو ماضى ضنيناً جدًّا بالحديث على نفسه وحياته . حتى إننى حينما أردت إصدار الطبعة الأولى من كتابى « إيليا أبو ماضى » عام ١٩٥١ ، كتبت إليه أرجو أن يوافينى بموجز عن حياته لأقدمه إلى القراء ، وبصورة له أنشرها فى الكتاب ، فكتب إلىّ — بعد انتظار غير قصير — يقول : « يعزّ علىّ وأنا أجيبك عن رسالتك أن لا يكون مع جوابى رسم لى ، فإنى مهمل هذه الناحية كل الإهمال . أما سيرة حياتى فليس فيها ما يستحق النشر ، أو على الأقل هكذا أعتقد أنا ، إذ ليس فيها ما ينقع فضول أحد » .

وليس صحيحاً أن حياته ليس فيها ما ينقع فضول أحد ، فإنه لم يصل إلى المنزلة التى وصل إليها إلا بجهاد عصامى طويل ، تقلّب فيه على الشوك والجمر والحراب طويلاً قبل أن يعرف جنباه الفراش المريح . أتراه كان يخجل بجهاده هذا وهو مصدر فخر عظيم لمثله ؟

إن الذين يعانقون الثرى فى شقاء طويل ، ثم يرتفعون عنه بجهادهم الشخصى حتى يعانقوا السحاب ويتربعوا على الذرى ، هم الصفوة الممتازة من البشر الذين

لم يعرفوا ملاعق الذهب عند مولدهم ، بل أحالت أيديهم التراب إلى تبر بمواهبهم الفردية الغنية . إنهم جبابرة عظماء ، وهم الذين يكتبون تاريخ الحياة الناصع الجميل ، لا سواهم . فكيف لا يرى أبو ماضى فى حياته ما يستحق النشر ، ولا ما ينقع فضول أحد ؟

لقد كان من حق أبى ماضى أن يفتخر بحياته البسيطة كفرد كادح عصامى ، يبنى مداميك حياته العريضة بعرقه ودموعه ، لا أن يطوى صحائفها عن الناس .

أما هجرة إيليا إلى العالم الجديد فقد كانت عام ١٩١٢ ، وهناك أقام أربع سنوات فى ولاية سنسناتى يعمل فى التجارة مع أخيه مراد(١) . ويقول جورج صيدح إن هذه السنوات الأربع التى قضاها بعيداً عن دنيا الأدب ، كان لها تأثير على شاعريته ، فقد تطورت بسرعة عجيبة ، حتى غاب عن قصائده المنظومة فى خلالها ذلك الشاعر المقلد . . . الذى كان شأنه فى مصر شأن غيره من الشعراء : يستلهم شعر العصر العباسى ، ويحاول أن يقلد البارودى وصبرى وشوقى وحافظ فى أساليبهم . ولكنه حالما نزح عن المحيط المصرى تقمص شعره روحاً جديدة ، واستقل بطابع شخصى ؛ فنظم الروائع ، مثل قصيدة « ابنة الفجر » و« فلسفة الحياة » و« فى الليل » و« الخلود » وأصبح الركن الأهمّ فى بناء الشعر المهجرى الحديث فى المهجر الشمالى .

وأبو ماضى نفسه فى رده على السؤال التالى لمحمد قره على : « هل ألهتكم التجارة عن الشعر ؟ » يجيب قائلاً : « كلا ، بل ازدادت شاعريتى وتطورت تطوراً عجيباً » .

وفى عام ١٩١٦ انتقل إيليا إلى نيويورك ليبدأ حياته الصحفية ، وليبدأ كذلك مجده الشعرى العريض فى « الرابطة القلمية » بعدئذ .

وهذه الفترة الجديدة يلخصها أبو ماضى فى حديثه مع محمد قره على بقوله : « انتقلت إلى نيويورك عام ١٩١٦ ، إذ تلقيت دعوة من بعض الشباب العربى الفلسطينى يعهدون إلىّ بتحرير « المجلة العربية » التى كانوا يصدرونها فى

(١) توفى مراد بعد وفاة شقيقه إيليا . وله كتاب وحيد بعنوان (السنابل) يحتوى على مجموعة مقالات كان يكتبها مراد من حين إلى آخر ، وقد صدر عام ١٩٥٢ .

نيويورك . قبلت الدعوة ورأست تحرير المجلة المذكورة ؛ ولم يطل الوقت حتى أسهمت فى تحرير « الفتاة » التى كان يصدرها إذ ذاك صديقنا شكرى البخاش صاحب الزميلة « زحلة الفتاة » اليوم . وفى عام ١٩١٨ انصرفت إلى تحرير جريدة « مرآة الغرب » . وفى عام ١٩٢٨ تركت « المرآة » . وفى نيسان ١٩٢٩ أصدرت مجلة « السمير » ، وكنت أصدرها مرتين فى كل شهر . وفى سنة ١٩٣٦ حولتها إلى جريدة يومية » .

وقد استمرت « السمير » تصدر جريدة يومية ، وظل إيليا يحررها حتى وفاته . أما حياته العائلية فلسنا نعرف الكثير عنها ، وكل ما أعرفه أن له من الأبناء ثلاثة ، أكبرهم « رتشرد » وقد اقترن عام ١٩٥١ بفتاة أميركية اسمها « مارى لويز » ؛ وهو من علماء الذرة ، يحمل درجة « دكتور فى العلوم الطبيعية » . وتحمل زوجته درجة « أستاذ علوم » فى علم النفس . وأما الثانى فاسمه « روبرت » ، وكان يعمل فى جيش الطيران . والثالث كان مريضاً لا يتعاطى عملاً . ولعلهم جميعاً لا يقرأون شعر أبيهم أو يفهمونه ، لأنهم ولدوا وعاشوا فى بيئة أميركية ، ولغتهم هى الإنجليزية .

وأما زوجته فهى السيدة (دوروثى) ابنة نجيب دياب ، صاحب جريدة (مرآة الغرب) التى عمل فيها أبو ماضى . وقد اقترن بها حين كان يعمل فى جريدة أبيها . وهى تعيش إلى اليوم فى أميركا ، وقد عادت سنة ١٩٧٢ إلى لبنان لترى ، لأول مرة فى حياتها ، الضيعة التى خرج منها زوجها الشاعر العظيم . ثم عادت من جديد إلى أميركا .

* * *

أما « الرابطة القلمية » التى انتسب إليها أبو ماضى فى نيويورك ، فالذى كان لدينا عن تاريخ نشوئها هو ما كتبه ميخائيل نعيمه فى كتابه « جبران خليل جبران » ؛ فقد ذكر فى الصفحة ١٧١ من طبعته الأولى أن فكرة تأسيسها قد نشأت فى ٢٠ نيسان ١٩٢٠ فى بيت صاحب جريدة « السائح » ، ثم تألفت فى ٢٨ نيسان فى منزل جبران . وقد أورد نعيمه أسماء من حضروا الجلستين ، ولم يكن الملبا من بينهم ، وإن يكن بين الأعضاء المشتركين فى الرابطة باسم « العمال » .

ولم يذكر نعيمه أن الريحانى كان عضواً فيها ، وأكد لى فى إحدى رسائله أنه لم يكن قط عضواً فيها ، للخلاف الذى كان بينه وبين جبران من قبل تأسيسها . غير أن ما أورده محمد قره على فى جريدة « الحياة » على لسان أبى ماضى يختلف عن هذا ، إذ يرجع بتاريخ إنشائها إلى عام ١٩١٤ ، أى قبل انتقال أبى ماضى إلى نيويورك بعامين . ويذكر أبو ماضى – فى رواية محمد قره على فى « الحياة » – أنه انضمّ إلى الرابطة عام ١٩١٦ ، كما يذكر أن الريحانى كان أحد أعضائها . وهما روايتان متناقضتان جدًّا ، ففى حين يذكر نعيمه أن الرابطة أنشئت بعد عودته من ميدان القتال فى فرنسا ، عام ١٩٢٠ ، تبيّن رواية محمد قره على ، على لسان أبى ماضى ، أنها أنشئت قبل الحرب ، عام ١٩١٤ .

والذى أعتقده أن رواية نعيمه هى الصحيحة ، وقد اعتمدتُ عليها فى ما كتبته على الرابطة فى هذا الكتاب ، ولكن الذى ورد منسوباً إلى أبى ماضى فى رواية محمد قره على هو عن اجتماع الأدباء الذين تألفت منهم الرابطة فيما بعد فى بلد واحد هو نيويورك . واجتماعهم هناك وتآلفهم ، وتفاهمهم الفكرى ، والتفافهم حول مجلة « الفنون » لنسيب عريضة ، وبينهم أمين الريحانى ، هو الذى كان فى عام ١٩١٤ ، لا نشوء الرابطة القلمية . وقد انضم أبو ماضى عام ١٩١٦ إلى جماعتهم ، لا إلى الرابطة ، ومن هنا كان اسمه بين أعضائها حينما أنشئت عام ١٩٢٠ ، وإن لم يتمكن – لأسباب لا نعرفها – من حضور جلساتها الأولى .

وفى حياة الرابطة نضجت شاعرية أبى ماضى وبلغت قمة نضجها ، فكان شعره عنواناً للشعر المهجرى الجديد فى روحه وأفكاره وخيالاته وصياغته . لقد كان شاعر الرابطة الأكبر ، كما كان جبران ناثرها وفيلسوفها ، ونعيمه كاتبها وناقدها الفنان . وهؤلاء الثلاثة متقاربون فى مواهبهم الإبداعية ، كل فى ناحيته ، وإن يكن الأثر الأكبر للتوجيه الروحى والفكرى فى الرابطة لجبران (١) . وإذا كان نعيمه قد تأثر كثيراً بأفكار جبران فى الأخوّة الإنسانية ، ووحدة الوجود ،

---

(١) يحاول ميخائيل نعيمه فى كتابه (سبعون) أن يوهم القراء أنه هو وحده الذى كان يقود الفكر الرابطى ، ويقوم (وحده) بحركة التجديد المهجرية . وليته لم يحاول ذلك ، وحسبه أنه بين أكبر أصحاب هذه الحركة الجديدة .

والفلسفة الروحية ؛ وتفوق عليه بنصاعة العبارة ، وصفائها ، وقوتها ، وقوة الملكة النقدية ، فإن أبا ماضى قد استقل بشخصية شعرية قوية عارمة ، وإن يكن قد تأثر أحياناً ببعض الأفكار الجبرانية فى لمحات من بعض قصائده . حتى « وحدة الوجود » ، عقيدة جبران الكبرى ، تأثر بها أبو ماضى فى أبيات عابرة من بعض قصائده ، ولكنه لم يتخذها مذهباً فكرياً كما اتخذها جبران ونعيمه .

والحقيقة أنه لولا وجود هؤلاء الثلاثة فى الرابطة ما كان للرابطة شىء من ذلك الأثر البعيد فى المحيط الأدبى ، الذى أحدث انقلاباً كبيراً فى مفاهيم الأدب وأساليبه فى أقطار العروبة ؛ فهى مدينة لهم ولمواهبهم الأدبية العظيمة ، وشخصياتهم الفكرية المتفوقة ، قبل كل شىء ، ومدينة بعد ذلك للتجاوب الروحى العميق الذى كان يسيطر على مجموعة أعضائها ، وإن يكن بينهم من لم يكتب صفحة واحدة طوال حياة الرابطة ، كإلياس عطا الله مثلا . وكذلك وديع باحوط الذى لا نعرف له غير مقال واحد .

وكان هناك رشيد أيوب ، وندرة حداد ، وهما شاعران ، ولكنهما لم يبلغا من قوة الموهبة واستقلال الشخصية شيئاً مما بلغه أبو ماضى ؛ وإن يكن لكل منهما شعر رقيق غير قليل . وكان هناك نسيب عريضة ، وهو الشاعر الثانى فى الرابطة بعد أبى ماضى ؛ فقد كان ذا طابع خاص ، وشاعرية لطيفة ، وقصائد إنسانية غاية فى اللطف والرقة والحنان ، إلى جانب قصائده التأملية الجميلة ، ولكنه لم يبلغ شأو أبى ماضى فى سعة الأفق ، ونصاعة العبارة ، ووفرة الحيوية ، والحرارة ، وبعد الخيال ، وجمال الصور المنتزعة من قلب الطبيعة ، وصدق الشعور فى ما يعالجه من حياة المجتمع .

* * *

وفى نيويورك طبع أبو ماضى ثلاثة دواوين ، هى : « ديوان إيليا أبو ماضى – الجزء الثانى » ، وقد كتب مقدمته جبران ، وأثنى على صاحبه أبلغ ثناء . وطبع هذا الديوان عام ١٩١٨ ، وقد ضمنه إيليا القصائد الوطنية التى لم يتمكن من نشرها فى ديوانه الأول « تذكار الماضى » الذى طبع فى مصر عام ١٩١١ . وفى هذا الديوان الثانى كان إيليا قد وضع قدمه على أول الطريق من الشاعرية المتفوقة

المبدعة ؛ فقد تخلص من قيود التقليد ، وأطلق خياله حرًّ يرود آفاق الوجود والطبيعة دون تهيّب ولا حذر . ومن أشهر قصائد ديوانه هذا قصيدة « فلسفة الحياة » التى نالت من الشهرة أوفر نصيب وأطيبه وأوسعه .

وفى عام ١٩٢٧ أصدر ديوانه « الجداول » وهو ثالث دواوينه . وقد كتب مقدمته ميخائيل نعيمه ، فبارك شاعريته ، وأثنى على روحه ثناء جميلا . وفى هذا الديوان بلغ أبو ماضى قمة مجده الشعرى ؛ فقد جاء فيه بعدد كبير من القصائد الملأى بالغنى والدسم والجمال ، فكان ثروة كبيرة للرابطة وللشعر المهجرى ، وكسباً عظيماً للشعر العربى .

وفى عام ١٩٤٠ صدر ديوانه الرابع « الخمائل » ؛ ومن بعده نظم أبو ماضى قصائد غير قليلة ، ولكن لم يتح له أن يجمعها فى ديوان ؛ فقد اخترمته المنية فى الثالث والعشرين من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٥٧ ، وبعد وفاته جُمعت هذه القصائد فى ديوان بعنوان : « تبر وتراب » صدر عن « دار العلم للملايين » فى بيروت ، وأعيد طبعه مراراً . وكانت وفاة أبى ماضى خسارة أدبية عظيمة ، لأن مثله من الأفذاذ لا تجود بهم الأيام إلا على ندرة .

* * *

لقد كان أبو ماضى شاعراً عظيماً ، ولكنه كان إلى جانب ذلك صحفيًّا موفقاً فى مغتربه ؛ والصحافة لا تقوم على الشعر ، وإنما تحتاج إلى عقل عامل ، وحركة دائبة ، وقلم مرن يخوض فى كل موضوع من مواضيع الحياة اليومية ، والسياسية ، والإخبارية والاجتماعية ، وما إلى ذلك ؛ فالشعر فيها ليس أكثر من فاكهة أو حلوى ، وإنما قوامها النثر وحده .

ولقد مارس أبو ماضى العمل الصحفى – كما تقدم – منذ عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٢٩ محرراً لدى الآخرين فى عدد من الصحف ، ثم انفرد بإصدار « السمير » مجلة نصف شهرية لمدة سبع سنوات ، ثم حولها إلى جريدة يومية ، وظلت كذلك إلى حين وفاته . وكان له فى كل عدد من أعدادها نشاط قلمى كثير ، وكان يكتب افتتاحياتها غالباً ، فيعالج فيها شؤون المجتمع ، ومشاكل السياسة العربية والعالمية . وكان لقضايا الوطن العربى نصيب كبير من عنايته ،

فهو يعالجها ويدافع عنها فى كل مناسبة . وفى كثير من الأحيان كانت افتتاحياته تعالج شؤوناً أدبية كذلك ، أو قضايا إنسانية واجتماعية عامة .

أذكر أنه أفرد مرة افتتاحية الجريدة لمعالجة قضية اجتماعية قلّ أن يكترث لمثلها مجتمعنا الشرقى ؛ فقد قرأ إعلاناً فى إحدى الصحف اللبنانية يبحث فيه صاحبه عن « خادمة لبيته لا يزيد عمرها عن ١٤ سنة » . فعصف الألم بنفسه ، فسكبه فى افتتاحية جريدته ثورة عنيفة على المجتمع الذى يسمح لطفلة فى مثل هذه السن الغضة بأن تغادر مقاعد الدراسة لكى تعمل فى البيوت لقاء أجر يمنحها الطعام والكساء . وكان رائعاً فى معالجته لهذا الموضوع ، قوياً فى دفاعه عنه .

حقيقة أن إيليا لم يكن قوى العبارة فى نثره كما هو صافى العبارة فى شعره ، ولكنه فى عمله الصحفى كان مجبراً على أن يكتب النثر باستمرار ، وإن لم يشتهر بين الناس ناثراً بليغاً متفنناً . على أن معرفتنا له شاعراً يجب أن لا تنسينا أنه كان كثيراً ما يوفق فى افتتاحياته ومقالاته النثرية التى يكتبها بروحه ومشاعره . ولو اجتمعت مقالاته النثرية هذه فى كتب ، لوقعنا منها على الشىء الكثير من المواضيع الحساسة والمعالجات القيّمة ، وإن لم نقع على آيات فى البلاغة والمقدرة اللغوية . وإهمال هذا الجانب من حياة أبى ماضى الأدبية فيه غمط لشىء من فضله وأدبه غير قليل .

فى أواخر عام ١٩٤٨ – عام المأساة الفلسطينية ، وعلى أثرها – أتيح لأبى ماضى أن يعود إلى وطنه الأصلى ، لبنان ، لفترة قصيرة – بعد حنينه الطويل إليه – ليمثل هو والأستاذ حبيب مسعود ، رئيس تحرير مجلة « العصبة » فى البرازيل ، صحافة المهجر فى مؤتمر اليونسكو ، الذى عقد حينذاك فى بيروت . وكان فى أثناء إقامته موضع الحفاوة العظيمة لدى الأوساط الرسمية والأدبية فى لبنان وسوريا .

وفى هذه الزيارة منحته الحكومة اللبنانية وسامى الاستحقاق والأرز ، وأقيمت له فى ١٩٤٩/٢/٦ حفلة كبرى فى دمشق برعاية الرئيس شكرى القوتلى الذى علّق على صدره وسام الاستحقاق الممتاز .

وكم أود لو أعرف كيف كانت حياة أبى ماضى فى الفترة الأخيرة التى سبقت وفاته . غير أن مرثية جورج صيدح له فى جريدة « الحياة » – الخميس

١٩٥٧/١١/٢٨ – تشير إلى أنه كان مريضاً خلال الصيف السابق ، وإلى أنه كان يود أن يزور لبنان بعد زوال الخطر عنه . فقد قال صيدح يناجيه :

« بشَرتنى رسالتك الأخيرة بزوال الخطر عنك ، ومنّتنى بالتلاقى فى الصيف المقبل فى « وطن النجوم » ، أتطيَّب بأنفاس شعرك ، وتتطيب أنت بنسمات الأرز من علة قلبك ، فتسترد نشاطك ، وتجمع ما انتثر من منظوماتك » .

وتشير المرثية كذلك إلى أنه كان يعتزم التوقف عن إصدار « السمير » ، فقد قال فيها صيدح : « كتبت إلىّ منذ ستة شهور أنك عازم على حجب « سميرك » والإخلاد إلى الراحة ، وقلت : لابد من أن أنقذ نفسى من رائحة الحبر والرصاص ، وأنقذ الصحافة منى . . . »

وجاء فى جريدة (البيان) النيويوركية ، لصاحبها راجى الظاهر ، فى العدد ٦٣٣١ لسنة (٤٧) بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥٧ ما يلى :

« لقد قضى المرحوم إيليا أبو ماضى السنوات الأخيرة يشكو علّة فى القلب اضطرّته إلى دخول المستشفى فى طلب العلاج مرّتين ؛ وكانت المرة الأخيرة فى شهر حزيران الماضى حيث اشتدّت عليه العلّة وكادت تودى بحياته الغالية . ولكنه تغلّب عليها وعاد إلى داره فى أواخر شهر تموز الفائت ، وأخذ يتدرّج فى طريق الشفاء واستعادة نشاطه .

« وفى الساعة الرابعة من صباح يوم السبت الماضى استفاق الفقيد يشكو ضيقاً فى أنفاسه ، فأيقظ قرينته الفاضلة السيدة دوروثى ، واستنجدها لتسعفه بأقراص من المنعشات كان يستعين بها فى مثل هذه الحال ؛ فخفّت إليه وأنجدته بها . ولكنه بعد أن تناولها لم يشعر بتحسّن . فطلب إلى السيدة قرينته أن تستدعى الطبيب ، ففعلت ذلك فى الحال . فلما جاء وجده قد فارق الحياة . . .

« وهكذا كانت وفاته ما بين الساعة الرابعة والخامسة من صباح السبت فى الثالث والعشرين من شهر تشرين الثانى ؛ نوفمبر ، الحالى » .

وها قد احتجب هو عن « السمير » ، وابتعد عن رائحة الحبر والرصاص ، وانقطعت صلته بالصحف والصحافة ، وبالشعر والنثر بعد الكثير ممّا قدّمه للأدب العربى من كنوز لن تصل إليها يد الفناء .

نظرة عامة فى شعر أبى ماضى

يتردد اسم أبى ماضى فى دنيا الضاد مصحوباً بالإعجاب الكبير بما له من قصائد روائع ، تتناقلها الصحف والمذياعات ، ويتسابق إليها الناشرون ، وتتلاقفها الأيدى ، وتتغنى بها الألسنة ، ويستظهرها الطلاب على مقاعد الدراسة لأنها كنوز أدبية غنية بالصدق والجمال ، نابضة بالشعور والحياة ، دافقة بالسمو والغنى الروحى ؛ يجد فيها المحزون سلوى ، والمحروم أملاً ، والمتعب ترويحاً ؛ فهى من الحياة وإلى الحياة ، وهنا سر قوتها .

والذى لا شك فيه أن أبا ماضى قد وصل إلى منتهى نضجه الشعرى فى ديوانه « الجداول » . ومن قبله فى قسم من قصائد الجزء الثانى من ديوانه ، ولا سيما قصيدة « فلسفة الحياة » منه ، فهى من أشهر شعر أبى ماضى وأروعه . أما ديوانه الأول فلا يختلف فى شىء عن الدواوين الشعرية الأخرى التى كانت تظهر فى الشرق آنذاك ، وأما « الجداول » فغنى بالقصائد الجياد التى تعد من عيون الشعر ، والتى تمتاز بغناها الوافر فى الشعور الإنسانى ، وفى الإحساس بالطبيعة والحياة ، وفى لطف أسلوبها ، وبعد خيالها ، وجمال صورها ، مما يندر أن يجتمع كله لشاعر واحد . فهناك على الأخص قصائده التالية : « الفاتحة ، السجينة ، تعالى ، الطين ، فى القفر ، المساء ، الكمنجة المحطمة ، اليتيم ، أنا ، العليقة ، هى ، الطلاسم » ، هذه القصائد خاصة قَلَّ أن اجتمع فى ديوان شعر واحد عدد مثلها ، له مثل خصائصها القوية الغنية ، وروحها الحساسة السامية . ولذلك لا غرابة فى أن يتردد اسم صاحب « الجداول » ، فى الوطن والمهاجر ، بملء الإعجاب ، وفى أن يتبارى الناشرون فى طبع ديوانه وتوزيعه مرات ، دون استئذان المؤلف — وهو ما لا نعرف وقوعه بهذا الشكل عند العرب قبل ديوان الجداول — فتنفد كل نسخة حال ظهورها فى الأسواق .

وكذلك ليس ثمة شىء من الغرابة إذا قلنا إن الذى يطالع ديوان « الخمائل » لن يعثر فيه على شىء جديد من الروح والأسلوب والخصائص الفنية غير الذى

عرفه فى « الجداول » ، فى حين يلاحظ بكل سهولة مقدار الفرق بين كل ديوان والآخر من دواوين أبى ماضى الثلاثة الأولى ؛ فهناك كانت الشاعرية تتدرج فى تطورها حتى وقفت فى النضج عند قمتها فى الديوان الثالث ، فلم تعد بعده خطوة جديدة يخطوها الشاعر إلى الأمام . ولذلك نجد فى « الخمائل » الخصائص عينها التى وجدناها من قبل فى شعر « الجداول » ، إلا شيئاً جديداً واحداً — نعدّه نحن نكسة إلى الوراء — وهو زيادة عـــدد قصائد المناسبات الشخصية فى « الخمائل » ، فقد اجتمع منها نحو اثنتى عشرة قصيدة ، أو تزيد ، ولم يكن فى « الجداول » منها سوى اثنتين . وهذه ظاهرة نستغربها فى ديوان لأكبر شاعر فى « الرابطة القلمية » التى طالما حاربت شعر المناسبات فى إبّان قوتها . أقول هذا وأنا لا أنكر أن فى قصائد المناسبات فى هذا الديوان عدداً من أروع القصائد الإنسانية أو الاجتماعية ، أو الوطنية . وأشير ههنا بنـــوع خاص إلى قصيدتيه : « بين مد وجزر » ، وكن بلسماً » ، فحظ المناسبة الشخصية فيهما من الضآلة بحيث لا يكاد يظهر .

ويلاحظ قراء أبى ماضى دائماً أنه بين سائر إخوانه فى « الرابطة القلمية » أكثرهم نظماً ، وأطولهم فى شعره نفساً ، وأكثرهم استعمالاً للقافية الواحدة ، وأوفرهم نظماً للمطولات الشعرية ؛ فله منها ثلاث مشهورات ، هى الطلاسم (٢٨٤ بيتاً) ، الأسطورة الأزلية (كانت فى الأصل ١٤٢ بيتاً ، ولكنها فى الخمائل ١٣٧ بيتاً فقط) ؛ والشاعر والسلطان الجائر (٧٩ بيتاً) . وهو فى كل هذا موفق ومجيد إلى أبعد الحدود .

ويحتوى ديوان « الخمائل » على سبع وخمسين قصيدة (منها المطولتان المشهورتان : الأسطورة الأزلية ، والشاعر والسلطان الحائر) ومن أجود قصائده التى تجرى مع قصائد « الجداول » — إضافة إلى هاتين المطولتين — نذكر : « الدمعة الخرساء ، الفيلسوف المجنح ، أمنية آلهة ، وقائلة ، الفراشة المحتضرة ، ابتسم ، كتابى ، كن بلسماً ، تأملات ، شاعر الشهور ، الشاعر فى السماء ، كلوا واشربوا ، ابسمى ، بين مد وجزر » .

وهنا فى « الخمائل » ، كما فى « الجداول » ، تتلخص مميزات أبى ماضى

الشعرية فى شعوره الإنسانى ، وعمق إحساسه بالطبيعة ، وتفاؤله ، وحبه للحياة ، وشعره الاجتماعى ، وفى الحيوية الشعرية .

والذى يعرف مدى هذه الخصائص فى شعر أبى ماضى ، وغناه بها ، يعرف أن أبا ماضى هو خير مثال للشاعر الحق بكل معانيه ، فهو شاعر فى روحه : فى أفكاره وعواطفه وخيالاته ؛ وشاعر فى أسلوبه : فى ألفاظه وتعابيره وصوره . أقول هذا وأنا أفهم أن الشاعر الحق هو رسول يعلم الحياة ، وتظهر فى شعره صور الحياة والمجتمع الإنسانى زاخرة بالعواطف ، جياشة بالحيوية ، دافقة بالجمال والرؤى الساحرة ؛ وأن الشاعر الحق هو رسالة الحياة الكبرى ، يقرأه الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم وطبقاتهم ، وعلى تباعد أوطانهم وأقوامهم ، ويشعر كل منهم بأنه يرى فيه صورة نفسه ، وصورة عواطفه ، وتعبيراً عن آماله ونوازعه .

وأول ما تهمّنا الإشارة إليه فى هذه الإلمامة هو أن أبا ماضى يسير فى شعره ضمن حدود وأهداف تنبع من المجتمع ، وتستمد قوتها وعمقها وروعتهـا من إخلاص صاحبها فى خدمته ، ومن حيـاة اجتماعية مثالية يدعو إليها جاهداً ، ثم من اتصال شديد بالطبيعة ، بحيث يتخذ أمثلته وإلهامه من مائها وسمائها ، من حيوانهـا وطيرها ، ومن نباتهـا وجمادها ، أو بكلمة أخرى : من روحها المعـبر .

ويصطبغ شعره بالصبغة الفلسفية ، الاجتماعية والروحية معاً ، فهو إنسانى مثالى ، يحب البشر ، ويحب الحياة ، ويستهدف سعادة المجتمع ، ويريد تحبيب الحياة إلى الأحياء ، ويدعوهم إلى تنقية العمر من الأشواك والأدران .

وأما أسلوبه الشعرى فهو مشرق ومُغرٍ كروحه الشاعرة ، نقرأه فنشعر بأننا فى حاجة إلى أن ننفض عن أنفسنا غبـار الآلام والشقاء والتشاؤم ، لنستقبل الحياة بثغور مشرقة ، نشيطة ، وأرجل متحفزة للانطلاق فى ميدان السعادات مع فراشات الربيع ، وغزلان القفار ، وبحناجر مستعدة للغناء المرح مع ضفادع الغدران ، وطيور السماء ، وجنادب الحقول .

والذى يزود شعر أبى ماضى بعناصر الحيوية والتأثير هـذه ، هو أن شعره

ينبع من قلبه ، وأنه يعبر عن عاطفة أو فكرة يشعر بها كل إنسان ، أو على الأقل القسم الأكبر من بنى الإنسان ، ولأن كل قارئ يجد فى قصائده صدى لما يشعر هو به ، أو يتألم منه ، أو يتمناه .

ولعل أبرز ما يحبب شعر أبى ماضى إلى النفوس ثلاث نواح منه ، الأولى : ناحيته الإنسانية ، والثانية : دعوته إلى محبة الحياة ، والثالثة : استلهامه الطبيعة فى كل شعره ، مما يلون شعره بأجمل الألوان وأصفاها ، ويرسم فيه أبرع الصور وأنقاها . يضاف إلى هذا ما يتمتع به الشاعر من القدرة الفائقة على التلاعب بالعواطف فى سائر شعره الباقى ، كشعر الحنين ، والوطنية ، والشعر التأملى ، وبقية الفنون الشعرية الأخرى .

٤ – ميخائيل نعيمه
من الرابطة القلمية

فى السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٨٩ ، رأى ميخائيل نعيمه نور الحياة فى قرية بسكنتا اللبنانية الصغيرة ، التى يتوّجها صنين بصخوره وثلوجه ، وينساب وادى الجماجم من تحت قدميها هامساً خاشعاً . وكان الابن الثالث لأبويه بين خمسة إخوة وأخت واحدة . وكان والداه أمّيين – كأغلب سكان الشرق العربى فى ذلك الحين – وكان فى القرية مدرسة طائفية ، فأرسلاه إليها وهو بين الخامسة والسادسة من عمره ، إذ كان أبعد ما تطمح إليه والدته – كما يقول هو فى كتابه « صوت العالم » – أن ترى فى بيتها كتباً ودفاتر وأقلاماً ومحابر . وما كاد ينهى دراسته فى المدرسة الطائفية حتى كانت الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية قد أنشأت مدرسة لها فى بسكنتا ، وكانت مدرسة ابتدائية مجانية منظمة أحسن تنظيم – كما يقول – فانتقل ميخائيل إليها ، وكان حينذاك بين السادسة والسابعة من عمره[١].

---

(١) كتب نعيمه سيرة حياته كاملة فى ثلاثة أجزاء بعنوان (سبعون) .

وفى هذه المدرسة يقول نعيمه : « وهذه المدرسة كان لها أبعد الأثر فى توجيه دراستى ، وبالتالى كل حياتى » . وكان أقصى ما يطمح إليه أن يتخرج منها « وله الأهلية لأن يدرّس الصفوف السفلى فى مدرسة مثلها ، وبراتب لا يتجاوز فى تلك الأيام عشرين فرنكاً فرنسيًّا » . ولكنه حين أنهى دراسته فيها بعد خمس سنوات وكان بين المبرزين من طلابها ، انتدب لمتابعة دروسه فى « دار المعلمين الروسية » فى الناصرة ، فلسطين – وكانت هذه أيضاً مجانية حتى فى لباس طلابها ، ومنظمة أفضل تنظيم ، ومدة الدراسة فيها ست سنوات ، وغايتها إعداد مديرين للمدارس الروسية الابتدائية – وكان عـــددها أكثر من خمسين مدرسة فى فلسطين وسوريا ولبنـــان .

إلا أن نعيمه لم يتم السنوات الست فى هذه المدرسة ، فما كاد يتم السنة الرابعة فيها حتى انتدبته رئاسة المدرسة لمتابعة دراسته فى روسيا على نفقة الجمعية الإمبراطورية . وهكذا غادر مدرسة الناصرة عام ١٩٠٦ ، وهو بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمره ، إلى « السمنار اللاهوتى » فى بلتافا – فى أوكرانيا . وكان يحق لمن يتخرج من السمنار أن يختار الالتحاق بإحدى الأكاديميات الدينية ، أو يصبح كاهناً ، أو يسير فى أى سبيل يختاره للعيش .

وحين أكمل السنة الرابعة فى السمنار قرر أن يعود إلى لبنان ، ومنه إلى باريس ، ليلتحق بجامعة السوربون لدراسة المحاماة . وفى لبنان التقى بأخيه الأكبر أديب ، الذى عاد حينذاك من أميركا لزيارة أهله . فأقنعه أخوه بمرافقته إلى أميركا . وفى عام ١٩١١ وصل ميخائيل إلى مدينة « والا والا » من ولاية واشنطن فى الولايات المتحدة وفى عام ١٩١٢ دخل جامعة واشنطن لدراسة الحقوق فيها والآداب وظل فيها أربع سنوات حتى نال شهادة الحقوق وشهادة الآداب عام ١٩١٦ . ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة قـط ، فقد كان الميل الأدبى ينمو معه فى جميع مراحل دراسته منذ مدرسة الناصرة . وما اختار دراسة الحقوق إلا لما بين المحاماة والخطابة والكتابة من صلات قوية .

كان ميخائيل بعد ذلك يرغب فى العودة إلى لبنان لممارسة المحاماة فيه ، ولكن الحرب العالمية التى كان قد مضى على اشتعالها سنتان كانت تسد عليه طريق

العودة ، فلم يجد بدًّا من البقاء فى أميركا . ولم يلبث أن أصبح فى شهر أيار (مايو) من عام ١٩١٨ جنديًّا فى الجيش الأميركى ، مسوقاً بنظام الجندية الإجبارى ، على الرغم من كراهيته للحرب وحمل السلاح . وأرسل بعد ذلك إلى جبهة القتال فى فرنسا ، فقضى هنالك السنة الأخيرة من سنى الحرب ، ومنها تسعة أيام فى خطوط النار .

وفى عام ١٩١٩ عاد من الحرب ، وسُرّح من الجندية ، وراح يعمل مستخدماً فى محل تجارى . وفى هذه الآونة انعقدت الصلة بينه وبين جبران ، ونسيب عريضة ، وأبى ماضى ، ورفاقهم من الأدباء الذين تألفت منهم بعد ذلك « الرابطة القلمية » ، وانتخب ميخائيل نعيمه مستشاراً لها . وعاشت الرابطة بأعضائها العشرة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣١ ؛ وفى ذلك العام توفى عميدها جبران ، وفى العام التالى . – ١٩٣٢ – عاد نعيمه إلى لبنان ، واستقر فى قريته بسكنتا ، ولا يزال هناك إلى اليوم[1] . وأخذت الرابطة القلمية تنفرط شيئاً فشيئاً ، فلم يبق من أعضائها إلى اليوم سوى نعيمه وحده – مدّ الله فى عمره – وقد شارف الثمانين .

* * *

وعلى الرغم من أن نعيمه كان من أبرز أعضاء الرابطة القلمية ، ومن أعظمهم ذكاء ، وأكثرهم نشاطاً ، وأرسخهم أدباً ، إلا أنه خلال السنوات الإحدى والعشرين التى قضاها فى المهجر لم يؤلف من الكتب سوى اثنين هما : « رواية مسرحية بعنوان « الآباء والبنون » ، وكتابه النقدى « الغربال » . والكتاب الأول طبع فى مطبعة « شركة الفنون » فى نيويورك عام ١٩١٧ ، وهو يشتمل على رواية تمثيلية ذات أربعة فصول ، جعل لها مقدمة تشرح رأيه فى المسرحية ، وطريقة حوارها .

أما الكتاب الثانى فقد طبع فى مصر عام ١٩٢٣ ، وكتب مقدمته الأديب المصرى عباس محمود العقاد – وكان من أكبر دعاة التجديد إذ ذاك – وقد قال فى تلك المقدمة : « شعرت وأنا أتابع قراءة هذه الصفحات بما تشعر به القافلة المنبتّة فى المفازة السحيقة ، إذا ارتفعت لها قافلة أخرى تنشد الغاية التى خرجت تنشدها ، وأوشكت أن ترتدّ عنها يائسة . . . وأ كاد أقول إنه لو لم يكتب قلم النعيمى

(١) استقيت هذه الترجمة لحياة نعيمه من كتبه : (النور والديجور) ،و(صوت العالم) و (سبعون)

هذه الآراء التى تتمثل للقارئ فى هذه الصفحات ، لوجب أن أكتبها أنا . فأما وقد كتبها وحمل عبأها ، فقد وجب على الأقل أن أكتب مقدمتها . . . وسيشهد الخالون من الغرض أنه – أى نعيمه – عمل فى تصحيح كثير من مقاييس الأدب ، فأفاد وأفلح ؛ ومن صحح مقياساً للأدب فقد صحح مقياساً للحياة ، وخليق بتصحيح مقاييس الحياة أن يكون أمل أمة لا أمل أديب أو طائفة من الأدباء » .

وبعد أن يتحدث العقاد على الحرية التى يعيشها أدباء المهجر ، والتى « فكّت عن قرائحهم قيود التقليد ، وأخرجتهم من مآزق الأوزان المعهودة والقافية العتيقة ، وأفهمتهم حقيقة الأدب فافتنّوا فى الشعر ، وابتدعوا فى أوزان النظم ، وساروا بالأدب على نهج الحياة والتقدم » يختم مقدمته بقوله : « إن بين أيدينا الآن لهدية من أنفس هدايا تلك الحرية المباركة ، وروحاً من الحياة تهبّ على مقاييسنا الآلية البالية ؛ فلنفهمها مخلصين ، ولنتقبّلها شاكرين معجبين » .

* * *

على أنه إذا لم يؤلف نعيمه فى مهجره من الكتب سوى هذين الكتابين ، فقد كان نشاطه فى كتابة المقالات والأقاصيص ، وفى نظم الشعر ، وافراً غزيراً ؛ وقد تجمع لديه من ذلك ما يكفى لبعض المؤلفات الأخرى ، وقد نُشرت هذه المؤلفات الأخرى بعد عودة نعيمه إلى الشرق ، وهى : « همس الجفون ، شعراً – وكان ما كان ، مجموعة أقاصيص – والمراحل ، مقالات – ومذكرات الأرقش ، قصة » وكلها أو أغلب مواضيعها من إنتاجه إبّان وجوده فى الرابطة القلمية فى أميركا .

أما مؤلفاته الأخرى كلها فهى مما أنتجه فى لبنان ، ولكنها من الرصيد النفسى الضخم الذى تغذّت به روحه وعقله ووجدانه فى المهجر ، ولم تفِض إلا بعد العودة من الهجرة .

ومؤلفاته هذه عديدة ، ونحن نذكر منها ما يلى :

« جبران خليل جبران – زاد المعاد – لقاء – الأوثان – البيادر – صوت العالم –

النور والديجور – كرم على درب – مرداد « بالإنكليزية والعربية » – دروب – فى مهب الريح – سبعون « ثلاثة أجزاء » .

على أنه مهما تعددت مؤلفات النعيمى فليست سوى أجزاء من روحه ووجدانه ؛ فبينهـا جميعاً رابط روحى واحد ، هو رابط الرسالة الروحية الأدبية التى يجتهد نعيمه فى أن يؤديها فى حياته إلى المجتمع الإنسانى ؛ فكأن جميع هذه المؤلفات كتاب واحد لا كتب متعددة .

وليس من شك فى أن نعيمه كان بين أعضاء الرابطة القلمية أصفاهم بياناً ، وأروعهم عبارة ، وأقدرهم على إدراك اللفظة والعبارة المناسبتين للمعنى الذى يريده ؛ وكذلك كان أجودهم ملكة فى النقد الأدبى ، وأقربهم بياناً إلى نفوس القراء ، وإن يكن جبران أستاذهم والمؤثر الأكبر فيهم ، وأبعدهم شهرة فى المجالات الأدبية العالمية . والعقيدة التى تصدر عنها كتابات نعيمه هى عينها العقيدة التى عرفناها فى مؤلفات جبران ، وعلى الأخص فى كتابه « النبى » .

ذلك هو نعيمه كما عرفته ورافقته فى رحلتى الطويلة مع مؤلفاته العديدة فى آفاق الإنسانية ، وأجواء الوجود اللانهائى ، وكما تكونت صورته فى نفسى من تلك الرحلة الجميلة ، والصحبة الطويلة . ولقد رسخت هذه الصورة فى نفسى بعد أن استمعت إلى نعيمه أكثر من مرة يخطب فى الناس بنبراته القوية التى يسكب فيها كل حرارة إيمانه ، وكل قوة روحه ، فرأيت فى عينيه صفاء السماء ، وهدوء النسيم ، وعمق البحر ، وفى جبهته العريضة ميادين فسيحة للتأملات العميقة التى تتولد منها حكمة الأجيال ، وفى وجهه صوفية مؤمنة راضية هادئة .

إن نعيمه إنسان عمقت صلته بالحياة ، وكثر تأمله فى أسرارها وخفاياها ، وفى قوى الطبيعة وعناصرها . والطبيعة هى ملهمته فنه وفلسفته : جمالها وتناسقها ألهماه فنه الجميل المتناسق ، وحكمتها وعمقها ألهماه فلسفته الإنسانية الرحيمة . وفى استلهامها والحديث عنها يشترك خياله وحسه ، بصره وبصيرته ، عقله وقلبه ، وكل جارحة من جوارحه .

وتأملاته الطويلة فى الحياة والطبيعة هدته إلى أن يهتم بالروح قبل الجسد ،

وبالخالد قبل الفانى ؛ فوجّه إلى هذه الناحية كل عنايته ، وركز فيها خلاصة أدبه ، وخلاصة عقيدته وإيمانه المطلق .

والذى يبحث عن خلاصة عقيدة نعيمه يجدها فى كتابه « زاد المعاد » ؛ فهذا الكتاب هو – فى رأيى – دستور الفلسفة النعيمية الإنسانية ، وكل ما عداه من كتبه – عدا «الغربال – وجبران – والآباء والبنون » ليست سوى شروح وهوامش ، ولكنهـا فى الوقت نفسه لوحات روائع من فنه ، وصور بديعة من أدبه وشعره .

تتلخص فلسفة نعيمه فى كلمتين : « وحدة الوجود » ، وهذه تتلخص فى أنها تعنى الفناء المطلق فى الله ، والفناء المطلق فى الإنسان ، والفناء المطلق فى الطبيعة ؛ وبكلمة أخرى فناء كل شىء فى كل شىء ؛ والفنـاء هو أقصى درجات المحبة . وإذا كنا نقول : الله ، والإنسان ، والطبيعة ، فهذه كلها تعنى شيئاً واحداً ، هو الحقيقة الكبرى ، أو الوجود الأعظم . وهى مترادفات لمعنى واحد فقط ، تختلف الألفاظ الدالة عليه ، بينما يبقى المدلول واحداً .

وعن هذه النقطة الرئيسية تتفرع سائر آراء نعيمه وفلسفته التناسخية ، والإنسانية ، والإلهية ، والطبيعية ؛ فما دام الوجود كله واحداً غير منفصل فليس هنـاك إله وإنسان ؛ فالله هو نحن ، ونحن الله ، لأننا منه الجسد ، وهو فينا الروح . فنحن حين نعبده إنما نعبد خير ما فينا وأبقاه . وفى هذا يقول نعيمه :

« كما أن فى بذرة الأرز الصغيرة تنطوى كل أسرار الأرزة الكبيرة التى ولدتها ، هكذا انطوت فيكم كل أمجاد القدرة التى بعثتكم من اللاوجود إلى الوجود . . . فأنتم سرمديون كالقدرة التى من رحمها انبثقتم ، وفيكم كل أسرارها » (زاد المعاد ص ٨) . ويقول أيضاً : « إن الله الذى هو أنت وأنا وكل إنسان سيقيم له من سلالة آدم أنبياء » (ص ١١٢) .

وليس هناك « أنا » و « أنت » و « هو » ؛ فأنا كل إنسان ، وكل إنسان هو أنا . فإذا أحببت إنساناً أحببت نفسى ، وإذا أسأت إلى إنسان أسأت إلى نفسى .

« إن الوهم الذى تتفرع منه كل أوهام الإنسان ، هو اعتقاده أن له ذاتاً

منفصلة عن كل ذات ، وحياة مستقلة عن كل حياة . لو سأل الإنسان نفسه يوماً : من أنا ؟ لما تمكن من إقامة حد بينه وبين شيء . . . فإذا ما أكلتم ثمرة فكأنكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها ، لأن كل ما فى الحياة قد تعاون فى تكوين تلك الثمرة . . . وإذا ما صافحتم إنساناً فكأنكم صافحتم كل إنسان ، من آدم حتى آخر آدمى يمشى على سطح هذه الأرض ، لأن كل إنسان يحمل فى نفسه كل الناس » (ص ٥٣) .

وليس هناك زمان ولا مكان ، ولا قبلُ ولا بعد ، وإنما فى كل لحظة تتجمع كل الآزال والآباد ، وفى كل بقعة من الأرض تتجمع الأرض كلها ، كما تجتمع مياه البحار كلها فى القطرة الواحدة من الماء . يقول نعيمه :

« والخيال الذى يطوى كل الزمان فى « الآن » ويحشر كل المكان فى « هنا » لا يبصر شيئاً من هذا التفاوت » (ص ١٥) ، ويقول أيضاً : « وكل الأغداء إنما هى الآن هاجعة فى حضن هذا اليوم » (ص ١٣) .

وليس هناك حياة أو موت ؛ فالحياة هى بنت الموت ، والموت هو أبو الحياة ، وكلاهما حياة لا فناء لها . ولا بدّ من فناء التراب فينا لولادة حيوات جديدة متعددة ؛ فالذى ندعوه بالموت هو فى الواقع امتداد للحياة ، وانفساح فى أطرافها ، إذ منه تتولد الحيوات الكثيرة ؛ وأما الذى اصطلحنا أن ندعوه بالحياة فهو الموت فى أقرب معانيه ، لأنه ليس فيه خلق وامتداد وتنويع ، بل جمود على حياة واحدة ، كالبزرة تبقى بزرة فقط وهى وحدها فى الحياة ، فإذا ماتت ودفنت فى الأرض وَلَدت للحياة فروعاً وأوراقاً وزهراً وأثماراً . وفى ذلك يقول نعيمه :

« الخيال يعلمكم أن الأموات لم يموتوا ، فها هى أشواقهم وأحلامهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، ولعناتهم وبركاتهم ، لا تزال منبثة فى الهواء الذى تتنفسون ، وفى محيط الرغائب والأفكار الذى منه تستمدون رغائبكم وأفكاركم ؛ والخيال يعلمكم أن الذين لم يولدوا هم الآن معكم وبينكم » (ص ١٣) . ويقول أيضاً :

« عندى أن من ينوح على ميت إنما ينوح على الله . ومتى كان الله فى حاجة إلى نوحى ونوحكم ؟ أوليس الله حيًّا من الأزل وإلى الأبد ؟ إذن كل ما ينبثق منه يحيا بحياته ، مهما تبدلت أحواله ، وكيفما تغيرت أشكاله . والذى يقول

إن الأموات قد بادوا واندثروا ، إنما يقول إن الله الذى كان وما يزال حيًّا فيهم قد باد واندثر . . . والذى يبصر فى الموت نهاية الحياة ، إنما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت » (ص ٧٠) .

وتبعاً لهذا فالذى ندعوه نحن ثواباً وعقاباً إنما هو سريان لأحكام القدرة الأزلية الموضوعة منذ أن تحرك النور فى قلب الوجود بأولى خفقاته . وإليك ما يقوله نعيمه فى هذا :

« لقد نفختُ مع الناس فى البوق الذى يمجدون به ربًّا يحيى ويميت ، ويعاقب ويثيب ؛ واليوم أنفخ فى بوق رب فوق الحياة والموت ، وأرفع من العقاب والثواب ، إذ قد وجدت أن القدرة التى ندعوها « الله » هى الكل فى الكل ، لا حالات فيها ولا صفات لها ، ولا حقيقة إلا ها ، ولا وجود لشىء إلا فيها . فإن هى أماتتنى فكأنها تميت ذاتها ، لأننى منها وفيها ، وهل يمحو الله ذاته بذاته ؟ وإن هى عاقبتنى فكأنها تعاقب ذاتها ، وتقتص من ذاتها لذاتها ؛ وهل يذنب الله إلى الله ؟ ! إن البحر لا يميت قطرة من الماء عندما يستردها من جوف صهريج فى الصحراء إلى جوفه ، إنما تميت القطـرة ذاتها إن هى توهمت أن الحياة كل الحياة فى جوف الصهريج ، ونسيت أنها أبداً فى حوزة البحر حيثما انطلقت ، وأنّى استقرت . والبحر لا يعاقب قطرة من الندى إن هو انتشلها من بين أجفان زهرة على رأس جبل ، وأنزلها على ذؤابة قرطبّة فى قعر واد ، وإنمـا تعاقب قطرة الندى نفسها إن هى توهمت أجفان الزهرة خيراً من ذؤابة القرطبّة » ، (ص ١٨ ، ١٩) .

ثم ليس هناك امتلاك وحرمان ، فالدنيا كلها لنا ببحارها وجبالها ، بنباتها وحيوانها ، بأرضها وسمائها ، بشمسها وقمرها ، وبكل ما فيها من قوى .

يقول نعيمه : « الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحد ، وأنا ما سمعتها يوماً تقول : هذا لى ، وهذا ليس لى ، بل كل ما فيها لها ، وهى لكل ما فيها ، فلا مالك ولا مملوك » (ص ٩٢) . ثم يقول أيضاً : « أوَ لم تعطك الحياة السماء وكل ما فيها ، واليابسة وكل ما عليها ، والبحار وكل ما فى أحشائها ؟ أم أنت لا تحسب شيئاً ملكك إلا إذا استقر فى جيبك ، أو ضمن جدران بيتك . أو خلف أقفال خزانتك

الحديدية ، أو كان فى يدك صك مسجل فى محكمة من محاكم الناس يشهد لك بالملكية ؟ إذن ضع البحر فى جيبك ، والشمس والقمر والنجوم فى بيتك ، واحبس الهواء فى خزانتك الحديدية ، واحصل على صك بشذا الأزهار وأغاريد الأطيار . وأنت قد قصّرت فى ذلك فما اللوم على الحياة التى أعطتك ، بل على يدك التى لا تسع العطيّة ولا تعرف كيف تتناولها . ولو أنك تناولتها بروحك لما كنت فى حاجة إلى صكوك وخزائن من حديد » (ص ٧٢)

وكذلك ليس هناك قوة ولا ضعف ، فليس الإنسان أقوى من الحيوان ، ولا البعوضة أضعف من الأسد ، ولا الباشق أقوى من الحسون ، ولا الزهرة أضعف من الشجرة . فالإنسان القوى الذى يزعم لنفسه التسلّط والتغلّب على سائر المخلوقات ، لا يلبث حتى يصبح طعاماً للدودة والغراب والوحش ، والأسد لا يلبث أن يصبح فريسة للذئب والثعلب والنسر ، وفى قوة القوىّ ضعف ، وفى ضعف الضعيف قوة لا يدرك مداهما إلا من يرى بخياله حقائق الوجود الأصلية الدقيقة . وكلاهما – القوى والضعيف – متساويان قوة وضعفاً أمام مشيئة الحياة الكبرى ، وعناصر الطبيعة العظمى :

« والطبيعة – كما يقول نعيمه – ما جعلت الضعيف طعاماً للقوى إلا جعلت القوى طعاماً للضعيف ؛ فلا ضعف فيها ولا قوة ، ولا محاباة ولا تمييز . وهى تستخدم كل قواها لتخلق البرغشة وتحييها ، ولا تستخدم أكثر من قواها لتخلق العصفور وتحييه » (ص ٩٢ و ٩٣) .

وليس هناك زيادة ولا نقصان ، فكل ما فى الوجود بالغ منتهى الكمال ، لأن الذى أبدعه هو الله الكامل ؛ وهل فى وسع الكامل أن يخلق شيئاً ناقصاً ؟ فالمخلوقات كلها كاملة بكمال مبدعها ، وباقية ببقائه . وفى هذا يقول نعيمة :

« عندما تقيمون من أنفسكم مصلحين لأنفسكم ، تشهدون بذلك أن العالم الذى هو صنع الإله الكامل كامل ، وأنكم إمّا أبصرتموه ناقصاً فى جهة من جهاته ،

---

(١) من المؤسف أن نعيمه قد ناقض نفسه بنفسه أخيراً ، فأقام القيامة فى الصحافة اللبنانية عام ١٩٧٥ لأن الحكومة اللبنانية طالبته بدفع ما عليه من ضريبة متأخرة عن دخله لسنوات متعددة . لقد أثبت أنه يريد أن يأخذ فقط . دون أن يعطى . وأن يكتنز المال دون أن يدفع « مالله لله وما لقيصر لقيصر » . . .

أو معوجًّا فى حالة من حالاته ، فلنقص فى معارفكم ، ولحسور فى أبصاركم . . . لكنكم حالما تقيمون أنفسكم مصلحين للعالم تشهدون بأن العالم ناقص وأنكم كاملون . ومعنى تلك الشهادة أن الله الذى هو مصدر العالم ومصدركم ناقص . . لكننى أحذركم من الانخداع بأنكم تصلحون الكون أو بعض الكون فيما تفعلون ، فالكون كامل للكاملين » (ص ٨٢ و ٨٦) .

وليس هناك سيادة وخضوع ، بل بالعكس ، هناك تمازج وتتميم لمشيئة الطبيعة الكبرى ، التى لكل شىء فيها شركة فى كل شىء ، فلا تميز بين شىء وآخر ، ولا تفضل شيئاً على سواه ، وإنما تسخّر الكل لخدمة الكل ، وتسيّر الجميع لخدمة أهداف الحياة الشاملة ومقاصد الكون عامة .

يقول نعيمه : « لا تركنوا إلى ما ورثتموه واكتسبتموه من أوهام الناس وخرافاتهم ، القائلة بأن الإنسان سيد الطبيعة ، فلو كان الإنسان كذلك لكان كل ما فى الطبيعة رهن إرادته ، وطوع بنانه . وها هو : تدفئه الشمس ، وتحرقه ، ويرويه البحر ، ويغرقه ، ويغذيه التراب ، ويأكله . ها هو : تحاربه البرغشة فى فراشه ، وتسابقه النملة إلى بيدره ، والفأرة إلى معجنه ، والمكروبات التى لا تبصر تفتك فيه ليل نهار . إذن ليس الإنسان بالسيد الذى يتوهم . إن هـو فى الطبيعة إلا شريك مُساو لكل ما فى الطبيعة ، يأخذ على قدر ما يعطى ويعطى على قدر ما يأخذ » (ص ٧٨) .

وليس هناك شرف ولا حقارة ، فالله نفسه موجود فى كل ما خلقه ، وكل ما خلقه موجود فيه ، فهل يمكن لمعدن الشرف أن يكون حقيراً ؟ أو هل يمكن له أن يخلق شيئاً حقيراً ، وهو يخلق ذاته فى كل ما يخلقه ؟

ونعيمه يقول فى هذا الموضوع : « إن أصغر ما فى الحياة يتمم أكبر ما فيها ، وإن أكبر ما فيها يخدم أصغر ما فيها . . . فلا الجبل أثقل من ذرة الرمل ، ولا الثور أعظم من الضفدع ، ولا الثمرة أثمن من الحطبة ، ولا الزهرة أقدس وأجمل من الشوكة » (ص ٢٢) .

* * *

وهكذا نرى أن الوجود – عند نعيمه ، كما هو عند جبران كذلك – كله

وحدة متماسكة ، مترابطة الأطراف ، لا انفصال لها ، ولا تجزئة ، ولا حدود : وحدة تبدأ بالله وتنتهى بالله . فكل جزء فى الوجود إنما هو تتمة وامتداد لكل جزء آخر ، لكى يتألف من مجموعة تلك الأجزاء ، الحقيقة الكبرى التى ندعوها : الوجود ، أو الحياة ، أو الطبيعة ، وبالتالى ندعوها « الله » الأزلى الأبدى الغير المحدود . فالله هو الوجود ، والوجود هو الله ، وأما ما نعرفه من فروق فى حياة الوجود ، فإنما هو من خلق أوهامنا العاجزة عن الوصول إلى الحقيقة .

هذه هى بالاختصار حقائق الحياة التى ترتكز عليها فلسفة نعيمه « وحدة الوجود » أو « وحدة الإنسانية » ، التى يشرك فيها الإنسان بألوهية الخالق ، كما يجعل له شركة فى كل ما فى الوجود ، ويجعل فيه شركة لكل ما فى الوجود ، وهذه الشركة التى يؤمن ميخائيل بوجودها بين كل أجزاء المخلوقات ، هى التى يبشر بإنجيلها ، وينادى بمبادئها فى كل ما يكتب وما يقول . ومن هنا جاء أدبه الإنسانى الصافى ، القريب إلى كل قلب لسموه وجماله . فنحن نشعر بتجاوب عميق بين نفوسنا ونفسه حينما نقرأ قوله :

« إذا ما نسجتم كساء لإنسان ، فحذار من أن تنسجوا فيه خيطاً واحداً من بغضائكم ، لأنه ، وإن تستر به بدن غير أبدانكم ، سيخدش ظهوركم . وإذا ما خبزتم رغيفاً ليباع فى السوق ، فحذار من أن تخبزوا فيه ذرة واحدة من حسدكم ، لأنه ، وإن مضغته أسنان غير أسنانكم ، سيكون غصّة مُرة فى حلاقيمكم ، وإذا ما حملتم الأثير فكراً من أفكاركم ، فحذار من أن تكون فيه لعنة ، لأنها وإن ولجت آذاناً غير آذانكم ، ستكون وباء لأحلامكم » (ص ١٤) .

وكذلك نشعر بخشوع ورهبة عميقين حينما نسمعه يهتف بنا قائلا : « إن شئتم الخلاص من الألم ، فعليكم أن تحبوا ذواتكم . غير أنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة ، فإنكم ما برحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة ، وسيبقى لكم فى كرهكم ينبوع ألم ، ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم » (ص ٥٦) .

أو حينما يقول أيضاً : « ألا وسّعوا أبواب روحكم كيلا يظل أحد خارجاً ؛ فإن رأيتم أعمى وكنتم مبصرين ، فاعلموا أنكم عميان مثله ما لم تعيروه من بصركم بصراً ،

فما زالت طريقه مظلمة ، فطريقكم مظلمة ، لأن طريقه وطريقكم واحدة . . . وإذا مررتم بأبرص وكنتم طاهرين ، فاعلموا أنكم برص مثله إذا أملتم وجهكم عنه ؛ أما إذا نقيتموه بطهركم ، فكأنكم نقيتم أنفسكم من برص خفى . لا تبغضوا الشرير ، وأبغضوا الشر ، لأنكم إن أبغضتم الشرير أصبحتم أشراراً مثله ، أما إذا أبغضتم الشر ، فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير » (ص ٤٨) .

فهذه النفحات الإنسانية – ومثلها كثير جداً عند نعيمه وعند زميله جبران خاصة – تهبّ برداً وسلاماً على النفوس ، فترتفع بها إلى أسمى درجات الصفاء والنبل فى الحياة ؛ وقد استمدها ميخائيل نعيمه – كما استمدها جبران من قبل – من « وحدة الوجود » التى جعلها محور فلسفته ، واتخذها عقيدة له وديناً يبشر بهما ، ويدافع عنهما بكل ما فيه من حرارة وقوة ، وبكل ما وهب من فن وإبداع .

ولكن كيف نستطيع نحن أن ندرك الحقائق الكبيرة العديدة التى تنبنى عليها « وحدة الوجود » هذه ، وما يتفرّع عنها من حقائق ومبادئ ، كالتى رأيناها فيما تقدم ؟ أبالعقل ؟ ونعيمه يحذرنا من أن نلقى عليه كل اتكالنا ، ويقول إنه : « ليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ، ولكن قلما يمشى به بعيداً . . . أوَما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع وبغير جدوى ، فى تفهّم أسرار الكون ، وهو ما يزال فى جهده كالولد الذى أعطيتموه أكداساً من الوريقات الملونة ، وأمرتموه أن يركّب منها صورة حيوان أو إنسان ؟ . . . وحتى اليوم لم تستقم له صورة كاملة ، لا لحيوان ولا لإنسان » (ص ٩ و ١٠) .

أم ترانا ندرك تلك الحقائق بالحواس التى ينبنى عليها التعلم ؟ ونعيمه يحذرنا أيضاً من الاعتماد على العلم وعلى الحواس ، فيقول : « لا تركنوا إلى العلم وحده ، لأنه لا يَعلم ؛ وهو لا يعلم لأنه يركن فى دروسه إلى الحواس التى مهما اتسع نطاقها ، لا يسع الكون » (ص ٧٧) .

كلا فإن العقل والحواس وحدها لا تستطيع أن تهدينا إلى إدراك حقائق الوجود الكبرى ، التى تتشابك جذورها وفروعها ، وإن ظهرت جذوعها متباعدة ؛ « الخيال هو مقدرتكم أن تبصروا وأجفانكم مغمضة ، وتستمعوا وآذانكم مسدودة

وتشموا وفى أنوفكم سطام ، وتذوقوا وألسنتكم فى غلاف ، وتلمسوا وأيديكم مشلولة . هو مقدرتكم أن تدركوا حدود الحواس الخارجية فتجعلوا منها عبّارة تجتازون بواسطتها إلى حيث لا حدود . . . الخيال هو الدليل الأوحد إلى الحقيقة . كل ما تتخيلونه كائن ، وكل ما لا تتخيلونه لا كيان له » (ص ٩) .

هذا جميل ولكن كيف يتسنى للعقليين والذين ضعف فيهم الخيال أن يدركوا كل ذلك ليؤمنوا بهذه الوحدة التى هى الزمان والمكان ، والله والإنسان ، والنور ، والظلام ، وكل ما فى الوجود من مخلوقات ، وهم يرون أن كل ما تقع عليه حواسهم متباعد ، متنافر ، مختلف عن سواه ؟

لهؤلاء يقول نعيمه : « إن الذين خيالهم ما يزال فى اللفائف ، لا بأس عليهم لو هم أرضعوه من ثدى العقل . سيكبر الطفل ويشتد ، وينتهى بأن يحمل أمه يوماً ما على ظهره إلى المقبرة . والذى لا عكاز له يتوكأ عليه غير عقله دعوه يتوكأ على عقله ، فخير له أن يكون أعرج من أن يكون كسيحاً » (ص ١٢) .

فنعيمه لا يرى فى العقل والحواس وحدها إلا شقاء للبشرية إذا هى ظلت ملقية إليها قيادها ، ولذلك نسمعه يقول : « ما دمتم معرضين عن الخيال ، ولا دليل لكم غير حواسكم الخارجية ، بقى العالم الذى تحيون فيه عالماً تتعاقب فيه اللذة والألم من غير أن يكون فى تعاقبهما وتوزيعهما ما يشبه العدل والمساواة » (ص ١٥) .

* * *

هذه هى خلاصة « وحدة الوجود » كما يراها نعيمه . أما عقيدة التقمص أو التناسخ فتبرز بأوضح صورها فى قصة لنعيمه بعنوان « لقاء » . غير أنه لا بد لنا من أن نذكر ههنا أن هاتين العقيدتين – القديمتين – نفسهما كان جبران أول أديب مهجرى اشتهر بإيمانه بهما فى كتاباته ، وقد ظهر أثرهما فى أدبه قبل أن نعرفه فى أدب نعيمه ، وانتقل تأثيره إلى أصدقائه ، فوجد عندهم تربة خصيبة لقبول مبادئه ، ولا سيما أنها مجبولة بمحبة الحياة ومحبة الإنسانية . فكان نعيمه ، بعد أن اتصل بجبران ، أقدر من حمل هذه العقيدة بإيمان يشبه إيمان جبران بها ، وهضمها فى أعماق روحه وضميره ، وخلع عليها من روائع فنه البيانى حتى أصبحت فيه

ميزة أصيلة يُعرَف بها ويتميز كما عُرف بها جبران وتميز .

على أن طريق نعيمه وطريق جبران قد اختلفتا اختلافاً بسيطاً ، فكان الذى يؤمن به نعيمه أنه « الله » يدعوه جبران « بالذات الخفية » أو « الذات الكبرى » أو « غير المحدود » ؛ وبينما صرف نعيمه كل همه إلى الروح وحدها ، وجه جبران عنايته إلى تقويم سنن الحياة الاجتماعية بأمثاله ، وقصائده النثرية ، وحكمه وأقاصيصه ، وإلى معالجتها علاجاً مفصلا بحسب حاجاتها ليبلغ بها إلى السعادة الكبرى . غير أن ما فى أسلوبه من خيال رمزى محلق جعله بعيداً عن مستوى إدراك الجماهير . أما الناحية الإنسانية فواحدة عند جبران ونعيمه ، ولذلك كثيراً ما نجدهما يعالجان الفكرة الواحدة ، والمعنى الواحد ، بتعابير تكاد تكون واحدة .

ونستطيع أن نقول إن كتاب « زاد المعاد » وكتاب (مرداء) لميخائيل نعيمه يقابله « النبى » عند جبران . فقد تعرضا لكثير من شؤون الحياة ، ومسائل الكون الأعظم التى تناولها « النبى » ، بمثل الروح التى تناولها به جبران ، وأحياناً بعبارات متقاربة جدًّا ، ولكن اختلفت الأساليب الفنية بين الاثنين . وفى الأسلوب الفنى تتركز أهم الخصائص الفنية والأدبية لجبران ونعيمه ، وتتميز شخصية كل منهما الأدبية . على أنهما وإن صدرا فى فلسفتهما عن روح واحدة ومبدأ واحد فلا شك أن لكل منهما أصالته وقوة شخصيته فى أدبه وفلسفته ، وأن كلا منهما مفخرة من مفاخر الأدب العربى ، ودعامة من أعظم دعائمه .

٥ — نسيب عريضة
من الرابطة القلمية

تمهيـــد :

فى ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٤٦ ، طارت عن الأرض روح شاعر ، وبعده بأيام فى أوائل نيسان (أبريل) خرج للوجود ديوان شعر . وفى هذا الديوان تجمعت أشواق ومزايا عالية من تلك الروح الطاهرة التى فاضت بعد أن قطعت

من عمر الحياة نحو تسعة وخمسين عاماً ، وهى تبحث جاهدة عن أسرار الحياة ، والوجود ، والنفس البشرية . ولعلها بالموت قد خلعت مع ثوب التراب البالى ، حيرتها الطويلة ، واهتدت إلى الحق الكامل فى دنيا الكمال والحق الخالدين .

تلك الروح هى روح الشاعر المهجرى نسيب عريضة ، وذلك الديوان هو ديوانه « الأرواح الحائرة » ، الذى بقى حيًّا على الأرض بعد موت صاحبه ، وسيبقى حيًّا إلى أمد طويل ، ليحدّث الناس على تلك المزايا العالية التى كان يتّسم بها نسيب ، وذلك السموّ الروحى الذى كان يتحلى به ، وعلى نزوعه المستمر إلى معرفة الحقائق الكبرى المختفية وراء ضباب المجهول ، وخلف حدود الحواس المدركة ؛ لأن هذه المعرفة هى وحدها التى تستطيع أن تصل النفس البشرية بجوهرها الأسمى ومصدرها الأزلىّ ، لكى تشعر بأنها وكلّ ما فى الوجود من كائنات شىء واحد لا ينفصل ولا يتنابذ . وفى يقينى أن الأدب فى أسمى معانيه وأخلدها ليس سوى تعبير عن أشواق الروح للسموّ والكمال ، وعن انفساح القلوب للحب الأكبر الذى يشمل الوجود وكل ما فى الوجود .

فالمزية الكبرى لنسيب عريضة هى « الحيرة الروحية » التى تتجلى فى شعره وتكاد تصبغ كل قصائده بطابعها القوى ، مما جعله شاعر الحيرة الأكبر بين زملائه المهجريين ، وسائر شعراء العرب – وربما شعراء العالم أيضاً – والتى أوحت إليه تسمية ديوانه باسم « الأرواح الحائرة » .

ونسيب واحد من أبرز أعضاء الرابطة القلمية ، ومن أبعدهم شهرة وتأثيراً فى الأدب العربى الحديث ، وبالتالى هو أحد دعائم النهضة الأدبية الحاضرة ، ومن أبرز شعراء العالم العربى ، وأرقهم شعراً .

وإذا أردنا أن نكوّن فى نفوسنا صورة صحيحة لنسيب عريضة فلن نجد ألطف وأصْدق من الصورة التى رسمها هو لنفسه فى إحدى قصائده وهى قوله :

أقيمـوا على قبرى من الصّخـر دميـةً ... بها رمز عَيْشى بعد موتى يُعْرضُ :
يدان بلا جسمٍ تمـدّان فى الفضـــا ... –تُمدّان من صخر على القبر يربضُ–
فيمناهما ممـدودةٌ تشحَـذُ الجـــدا ... لتشبعَ جوعَ النفس ، والجوع يرفض
ويُسْراهمـــا فيهـــا فـــؤادٌ مضـرّج ... تقدّمـه للناس ، والناس تُعرِضُ

فهى صورة ليس أصدق منها دلالة على حقيقة نفس نسيب . وهل كانت حياة نسيب سوى جوع روحى شديد لا يشبع ، ومحبة للبشرية لا تكتفى ولا تنقطع مهما لقيت من نكران وإعراض ؟ !

حياة نسيب (١) :

فى مدينة حمص – جارة العاصى ، وأمّ الحجارة السود ، كما يدعوها نسيب – وفى أحد أيام شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٧ تفتحت على نور الحياة عينا نسيب عريضة ، ابن أسعد عريضة وسليمة حداد . وقد ظل نسيب فى مهجره البعيد ، فيما بعد ، وفيًّا للمدينة التى شهدت أحلام طفولته ، شديد الحنين إليها . وقد عبر فى شعره عن ذلك الحنين العميق ، فقال فى قصيدته « أمّ الحجار السود » :

أعَرفتَها : تلك الرّبوع العاليـــه ما بينَ لبنانٍ وبين الباديَـــه ؟
الذّكرياتُ وقد بـــرزنَ علانيـــه ناديْـــنَ عنكَ بحسرة المطرُودِ :
« يا حمصُ ! يا بلَدى وأرضَ جدودى »
ماذا يُكابد فى النَّـــوى ويقاسى صبٌّ يحنّ إلى حمى المـيماس
وإلى الدّوَيْـــر – إلى ربـــوع الكاس وكناسها ، وغزالهـــا الأملـــودِ
وإلى مغـــانى نعمـــة وسعودِ

ولما نشأ الطفل نسيب أرسلَ إلى المدرسة الروسية المجانية فى مدينته ، فظل يتدرّج فى صفوفها بنجاح وتفوّق ؛ فكوفئ على تفوّقه بأن أرسل عام ١٩٠٠ إلى المدرسة الروسية فى الناصرة لمتابعة تحصيله العلمى . وبعد أربع سنوات قضاها نسيب فى تفوق مستمر ، انتدب لمتابعة التحصيل العالى فى روسيا ؛ ولكن الظروف شاءت أن لا تتم الرحلة ، بسبب الحرب الناشبة إذ ذاك بين

---

(١) أود أن أذكر شاكراً أننى اعتمدت فى المعلومات الخاصة بسيرة نسيب عريضة ، على رسالة خاصة أرسلها إلى الأستاذ ميخائيل نعيمه ، تاريخها : ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .
وهذه الرسالة محفوظة مع رسائل نعيمه الأخرى ، ورسائل زملائه المهجريين التى بلغت ٣٠٦ رسائل ، فى مكتبة الجامعة الأردنية .

روسيا واليابان ، فاضطر نسيب أن يقضى فى مدرسة الناصرة سنة أخرى . وفى نهاية السنة لم يسافر إلى روسيا ، وإنما حوّل وجهه نحو بلاد الدولار ، حيث كان قد سبقه بعض أبناء عمه .

وفى مدرسة الناصرة تعرّف ابن حمص – نسيب – على ابن بسكنتا – نعيمه – الذى جاء إلى المدرسة عينها بعده بعامين – عام ١٩٠٢ – وتوطّدت بينهما أواصر الصداقة المتينة التى تجددت وقويت بعد سفر نعيمه إلى أميركا عام ١٩١١ ، وظلت متينة إلى النهاية .

وفى ديار الغربة تعرّف نسيب إلى الريحانى وجبران ، وكان فى نفسه نزوع إلى خلق أدب جديد يكون زاداً صالحاً للأجيال العربية الناهضة . وهذه الفكرة الطموح بدأت تراوده منذ أن كان على مقاعد مدرسة الناصرة ، حيث بدأ ينظم الشعر ، واستمرّ ينظمه فى ديار هجرته فيما بعد . هناك بدأ نسيب يشعر بما يعانيه الأدب العربى من جمود ، وما فيه من تقليد وابتذال ، فلم يرضَ عن ذلك كله ، وبدأت تنشأ فى نفسه نزعة التجديد . وقد كان لهذه النزعة التجديدية فى الأدب أن عزم على إنشاء مجلة تنشر فكرته وتطلع العالم العربى على أقباس من هذا النور الجديد . فأنشاء مجلة « الفنون » فى سنة ١٩١٣ ، وتطوع جبران والريحانى ونعيمه لتقديم المساعدة الأدبية الممكنة له ، فكان لا يصدر عدد من « الفنون » إلا وفيه مقالات لهؤلاء الثلاثة ، ولعدد آخر من المؤمنين بمذهبهم الأدبى الجديد والمتحمسين له ، وإلى جانبها فصول مترجمة عن الآداب الغربية ، ورسوم فنية منقولة عن لوحات لبعض مشاهير الرسامين الغربيين .

ولكن « الفنون » لم تستطع الصمود طويلا أمام الظروف القاسية التى أحاطت بها ؛ فقد أنفق عليها نسيب الكثير حتى لم يعد فى قوس احتماله منزع ، ولكنه لم يجد من التقدير والتشجيع المادىّ ما يسمح له بالاستمرار فى إصدارها ؛ فتوقفت بعد أن صدر منها عشرة أعداد فقط . وإذا بنسيب عريضة ، بعد أن كان قد كتب إلى صديقه نعيمه مستبشراً متفائلا حين كان يعتزم إصدارها ، ويقول له : « عندى من الآمال ما يجعلنى أثق من أنها ستبقى ثابتة ، بعد أن تناضل

وتفتح لها طريقاً جديداً بين خرابات العالم الأدبى العربى » ، يصبح الآن مضطرًّا إلى تغيير لهجته الأولى ، فإذا هو يتناول القلم ليكتب إلى نعيمه نفسه بلهجة فيها مرارة الخيبة ، فيقول : « لقد خسرت معركتى وسقطت آمالى حولى . والآن وقد فرغ مالى وبخل علىّ المشتركون بما عليهم فليس لى إلا أن أقف . وقد وقفت . . ولا أدرى أتتحرك رجلاى فيما بعد ، أم تيبسان إلى الأبد ؟ ! »

غير أن رجليه لم يُقدَّر لهما أن تيبسا بعد إلى الأبد ، فقد عادت « الفنون » إلى الحياة بعد أن توقفت عامين – أى عام ١٩١٦ – وسارت فى طريقها بنشاط . فعادت سهام المصاعب تتوارد على صدرها من جديد ، حتى خرّت فى النهاية صريعة على أقدام جهادها الشريف ، ومبدئها الأدبى الصادق ؛ وكان توقفها عام ١٩١٨ . وعبثاً حاول نسيب وجبران ونعيمه أن يعيدوها إلى الحياة للمرة الثالثة فى العام التالى ، ويرسموا لعودتها الخطط ، ويقدروا لها الفروض والتضحيات . وفى ذلك يقول نعيمه فى حياة جبران : « عدت إلى نيويورك ، ولكن « الفنون » لم تعد إلى الحياة ، إذ وجدت أن الخطة التى كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق ويكاد يستحيل تطبيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم فى « الفنون » كانت جيوبهم فى عالم الشكوك والظنون ، والذين كانت جيوبهم تعجّ بالذهب ، كانت قلوبهم بعيدة عن الأدب » .

ماتت « الفنون » فخلا مكانها ، وأحسّ بخلوّه صاحبها نسيب وزملاؤه الذين كانوا يتعهدونها بكل غيرة وإخلاص ، وظل يحز فى نفوسهم أن يصمت بوقهم الجميل ، ويخرس لسانهم الحر . ولم يلبثوا أن التفوا حول جريدة « السائح » ، ولا سيما بعد أن تألفت منهم « الرابطة القلمية » ، لمواصلة النضال فى سبيل نشر مذهبهم الأدبى الجديد . وسار معهم نسيب فى هذا المضمار يشق طريقه إلى المجد بروح متدفقة بالحيوية والصدق والحرارة تملى عليه أدبه الذى يمتاز بالحيوية والصدق والحرارة .

وعاد نسيب يشتغل فى التجارة مع أبناء عمه . وفى سنة ١٩٢٢ اقترن بنجيبة حداد ، أخت عبد المسيح وندرة حداد ، ولم يرزقا أولاداً .

وتقلّب نسيب فى أعمال مختلفة ، فترك التجارة ، وتسلم رئاسة تحرير

جريدة « مرآة الغرب » – وصاحبها نجيب دياب – ثم انتقل إلى جريدة « الهدى » – وصاحبها نعوم مكرزل – وفى أثناء الحرب العالمية الثانية عين موظفاً فى مكتب الأخبار للولايات المتحدة ؛ فعمل فيه نحو سنتين ، ثم اعتزل العمل بعد الحرب لضعف فى كبده وقلبه ، وعكف على جمع ديوانه وطبعه . غير أن المنية لم تمهله ريثما يصل الديوان إلى أيدى القرّاء ، بل اخترمت حبل أيامه والديوان ما يزال بين يدى المجلّد . وهكذا انطفأت شمعة عمره فى مدينة بروكلين فى ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٩٤٦ ، كما قدّمنا .

أما أخلاق نسيب فقد وصفها ميخائيل نعيمه فقال : « كان ممتازاً بأخلاقه ، فهو وديع ، لطيف ، خجول ، دافئ اللسان ، لا يغتاب ولا ينمّ . وهذه الصفات رافقته حتى آخر حياته » . . والذى يطالع شعر نسيب يجد فيه كثيراً من المزايا الإنسانية ، والأخلاق النبيلة .

أدب نسيب :

ظهر ميل نسيب إلى الأدب منذ أن كان طالباً فى مدرسة الناصرة ، فقد كان كثير المطالعة لآثار الأقدمين ، شديد الشغف بشعرهم ونثرهم ، وقد بدأ يعالج النظم منذ ذلك الحين وهو ما يزال يحوم حول السابعة عشرة من عمره . فلما هاجر إلى أميركا لم يكفّ عن المطالعة والاشتغال بالأدب ، وكان كثير التردد على مكتبة نيويورك العمومية يقلب ما تحويه رفوف القسم العربى فيها من كتب ؛ وإلى جانب الكتب العربية كان يطالع ما يقع تحت يده من كتب الأدب الروسى ، فيتزوّد لنفسه ذخيرة يبنى عليها أدبه الغنى العتيد .

وكان – كما قدمنا – يشعر بما يعانيه الأدب العربى من جمود مُزرٍ ، فكان ينزع إلى تحريره من جموده ، ورفع عار التقليد والرجعية عنه . ثم زاده شغفًا بهذه الفكرة الجرئية الطموح أنْ وَجد فى المهجر أنصاراً أقوياء يرون رأيه ، وقد شرعوا يحققون مذهبهم هذا بالفعل ، بما تنتجه أقلامهم ؛ وأولئك الأنصار هم الريحانى وجبران ونعيمه ، فمضى نسيب فى مضمارهم ، يخلق فيبدع ؛ لا يقلّد ، ولا تضيع شخصيته فى شخصيات سواه ، ولا يقف فى أدبه عند القشور والتفاهات ،

بل يصبو إلى خلق المعانى الكبيرة ، بأسلوب جميل منسجم ، وعبارة بسيطة سهلة .

ولم يترك لنا نسيب من الآثار المطبوعة فى كتب مستقلة سوى ديوانه « الأرواح الحائرة » ، ورواية مترجمة عنوانها : « أسرار البلاط الروسى » ؛ وله أيضاً قصتان تاريخيتان منشورتان فى « مجموعة الرابطة القلمية » هما : ديك الجن الحمصى » ، وقصة الصمصامة » ؛ وفى هاتين القصتين تتجلى موهبة نسيب الفنية فى القصة بنوع عام ، والتاريخية منها بنوع خاص ، فقد اجتمعت له أسبابها ، من حبكة قوية ، ووحدة فنية متماسكة ، وديباجة مشرقة ، وخيال جميل ، مع المحافظة على حصة التاريخ من القصة الفنية . ولسنا ندرى إذا كان لنسيب غير هاتين الأقصوصتين ، غير أننا نعلم أنّ القلم الذى استطاع أن يخلق مثلهما لا يقنع بالوقوف عندهما ، فى مدى حياته الأدبية والصحفية الطويلة .

فإذا نحن أضفنا إلى هذه الآثار المطبوعة كلّ الفصول الأخرى التى كان نسيب ينشرها فى « الفنون » و « السائح » و « مرآة الغرب » و « الهدى » وغيرها من صحف المهجر ، عرفنا أن نسيباً كان من أغزر أدباء الرابطة القلمية إنتاجاً ، ومن أجودهم أدباً .

أما ديوانه فنحن نعتقد أنه لا يحتوى على كل شعره ، فقد كتب عنه ميخائيل نعيمه فصلا فى « غربال » – قبل صدور الديوان نفسه بنحو ربع قرن – فأورد له قصائد لم تظهر فيه بعد نشره . من ذلك قصيدته « لو كنت رباً » التى يقول فيها :

لو كنتُ رباً فى السماء عظيماً ... بجميع أمر الكائناتِ عليماَ
لهبطتُ من عرشى إلى أرض الشَّقا ... نحو ابن آدمَ ، مَن خَلقتُ قديمَا
ولبثتُ أغسلُ بالدموع كلومَه ... وأزيده بتذلّلى تعظيمَا
مستغفراً عن عيشة قُسمت له ... منذ الخليقة لا تزال جحيما

وكذلك أذكر قصيدته الأخرى « أرزة لبنان » . فعدم ظهور هاتين القصيدتين – ولا شك فى أن هناك غيرهما أيضاً – يدلنا على أن نسيباً قد اكتفى من مجموعة قصائده بما كان لا يزال راضياً عنه ، وأهمل الباقى .

يقع ديوان « الأرواح الحائرة » فى نحو ٢٨٥ صفحة من القطع الكبير ،

ويحتوى على خمس وتسعين قصيدة ، منها مطوّلتان ، إحداهما بعنوان « على طريق إرم » ، والأخرى مسرحية بعنوان « احتضار أبى فراس » .

وموهبة نسيب الأدبية الكبرى تتجلى لنا فى شعره بنوع خاص . فأوّل ما نلمسه فيه حرارة العاطفة أو الفكرة التى تملى عليه القصيدة ، والتى لا ينظم إلا تحت تأثيرها الملّح واستفزازها المغرى . والحرارة هى عامل القوة والتأثير الأهم فى الأدب الروحى والوجدانى خاصة ، وبغيرها يفقد الأدب حيويته وجماله وقوته .

ثم نلمس فيه الاسترسال المخلص إلى البحث عن المعرفة الحقيقية ، والحيرة المتشككة التى لا تستقر ؛ ولكنه مع حيرته غير يائس لأنه مؤمن إيماناً مبصراً ، وإيمانه هذا هو الذى يدفعه إلى نشدان الحقيقة بكل ما فيه من حيوية الروح ونشاط الخيال .

وقصيدته المطوّلة « على طريق إرم » خريطة كاملة للمراحل التى اجتازها الشاعر فى حيرته ، وهى تدلّنا على الجهاد النفسى العنيف الذى جاهده مع المجهول لأجل البلوغ إلى الكمال والمعرفة والسعادة الروحية ، إلى أن تبدّى له بصيص من نور الحقيقة يلمع من بعيد ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه بل اكتفى بأن يناجيه فى نهاية المطوّلة ، كما رأينا ذلك قبلاً .

وحقًّا لقد سمع نسيب النداء ، نداء روحه الصاعد من الأعماق ، وسار نحو الضوء البعيد ، وقد ظلّ طرفه عالقاً به حتى عاد إلى تراب ودود . وهذا الضوء البعيد الذى اهتدت إليه بصيرة الشاعر بعد جهاد نفسى طويل هو الوحدانية المطلقة فى جوهر الحياة ؛ تلك الوحدانية التى اطمأنت إليها نفسه ، كما اطمأنت إليها أيضاً نفوس بعض زملائه الرابطيين ولاسيا : جبران ، ونعيمه .

ولقد كان نسيب من أصحاب الرسالات الروحية الذين يجعلون هدف رسالتهم أن تقود البشرية إلى جوهرها الأسمى ، ومصدرها الأعظم ، الذى هو مصدر السعادة فى الحياة ، وفى ذلك يقول نسيب فى مطولته السابقة :

فلْنَرْق طَـوْدَ التَّجـلّى ... فـفى الـذّرَى نستنيرُ
إذا ارتَقَيْنـا الثنايـا ... قـربَ الإلـه نصيرُ
فنحتظى باليقـينِ ... من نور حـقٍّ مبـينِ

ونَسْتقى مـــن مَعِينٍ يَفيضُ أنهـــار حبِّ

وما دمنا فى ذكر هذه المطوّلة ، فلابد لنا من كلمة فى التعليق عليها . فهى تقع فى ٢٣٦ بيتاً ، ومجموع أناشيدها ستة ؛ غير أن الذى يظهر لنا أن الوحدة الفنية بين هذه الأناشيد الستة غير موجودة ، مما يدل على أنها لم تنظم فى الأصل لتتألف منها مطوّلة واحدة ، ذات غرض واحد ، ووحدة متماسكة ، وإنما نظمت قصائد متفرّقة ، ثم رأى الشاعر أنها جميعاً تصور بعض مراحل حيرته ، وتعبّر عن نزعة السموّ فى نفسه ، فجمعها فى مطوّلة واحدة .

ولعلّ من المفيد أن نشير إلى أشياء من قصائد الحيرة فى ديوان نسيب ، فهذه الناحية هى التى اشتهر وتميز بها بين سائر الشعراء . فمن هذه القصائد تشتهر قصيدته « على الطريق » التى يستحث بها نفسه لتمضى فى بحثها عن الكمال ، وأما قصيدته « مركب الفؤاد » فهى صورة صادقة لحيرة روحه الهائمة المتخبطة فى ضباب الشكوك ، يقدمها نسيب فى إطار موسيقى مشرق ، فيقول :

قلبى بـــلا شِراعٍ يطـوفُ فى البحـارْ
قد قارَب التَّـــداعى من كثرة الأسفـــارْ
سفينـــة حقـــيره ليس لهـــا ربَّـــانْ
فى ظلمـــات الحـــيره منـــارُهـــا الإيمـــانُ
طاف البحـــارَ يرجو جزائـــــر الخـــلودْ
لعلَّـــه أن ينجـــو من لجّـــــة الوجودْ

والقصائد التى تصور هذه الناحية من جوانب نفس الشاعر كثيرة ، فقد ضم الديوان منها أكثر من عشرين قصيدة ، وفى كل منها تصوير بارع للحيرة البالغة .

ومثل هذه الحيرة الشديدة التى طبعت حياة الشاعر وأدبه بطابعها لابدّ من أن ترافقها كآبة كثيرة أيضاً . وهل الحياة سوى علامة استفهام كبرى ، طرفها الأعلى غائب فى الألم ، وطرفها الأسفل مغموس فى الألم كذلك ؟ ! وقد ظهرت هذه الكآبة فى عدد غير قليل من قصائد نسيب ، وأحياناً فى صور

بالغة التأثير لمرارتها ، كقوله :

باطلا ترجون لحنــاً مفرحا حطّمتْ أوتــارَ قيثارى الغِيَرْ

وقصيدته « قلمى » خير ما يصوّر لنا مدى الألم النفسى الذى كان يعانيه الشاعر ، فيقول :

أوهٍ ! ألم يُكْتَب لهــذا القــلمْ إلاّ بأن يشكو الأسى والألمْ !
يا قلمى الشاربَ خمــر الشّجا والمُسْمِعَ الطرسَ صريرَ النقمْ
أفى حمى الغربان ثُقِّفتَ ، أم بين خوافيها أَلِفتَ الألمْ ؟
أم كنت عــوداً عنــد مستنقعٍ فى نبتة تمتصّ مــاء الرممْ ؟
أم عشت فى ظلٍّ من الغاب لم تشرق عليه الشمس منذ القدمْ ؟
فاسكب على الأبيض من أسود يَلْذَع فى الأوراق لَذْعَ الحممْ
ما الحبر ما تنفثــه ناقمــاً ذاك سويداءُ الحَشَا يا قلمْ

وتلمع جراح قلب الشاعر فى عدد غير قليل من قصائد الديوان ، وكلها نازف بالدماء والألم .

* * *

غير أن الكآبة والحيرة ليستا كل مزايا نسيب عريضة ، وإن تكونا من أهمها ؛ فنسيب يتميز أيضاً عن زملائه الرابطيين بكثرة تلاعبه بالأوزان الشعرية ليجعل الشعر مزيجاً لطيفاً من الرقة ، والغناء ، والرشاقة ، وكثيراً ما كان يوفّق فى ذلك إلى الجمال والرقة العذبة ، كما فى قصائده التالية : « أنا فى الحضيض » و« النعامى » و« النهاية » و« الملك الأسير » ، وغيرها ، فيقول فى قصيدته « أنا فى الحضيض » :

أنا فى الحضيض
وأنا مريض
أفلا يدٌ تمتد نحوى بالدّوا
وتبثّ فى جسمى ملامسها القُوى
وتقلّنى من هوّى نحو الذرى
فأسير مستنداً عليها فى الورى ؟

وأكثر من ذلك تلاعبه بالأوزان فى قصيدته (النهاية) التى جعل اعتماده فيها على التفعيلة الواحدة ، فسبق بذلك دعاة (الشعر الحرّ) الحديث ، ولكنه لم يخرج فيها على الحسّ الموسيقى العربى الأصيل .

ثم لقد ذكرنا فيما سبق شيئاً عن شغف نسيب بمطالعة آثار القدماء . وهذا الشغف قد جعله يغترف أحياناً من الأدب القديم مادة لشعره ونثره ، كما أن مطالعته للأدب الروسى قد جعلته يعنى بترجمة أشياء منه إلى لغة الضاد . ومن مطالعته للأدب العربى القديم ، صاغ مسرحيته الشعرية « احتضار أبى فراس » . وهى ليست مسرحية فى الواقع ولكنها صورة ، فى شكل شبه مسرحى ، لاحتضار هذا الشاعر الفارس القديم كما يتخيله الشاعر العصرى نسيب عريضة . وهى تقع فى ٧٢ بيتاً . وأما من الأدب الروسى فقد ترجم عدداً من القصائد نجد بعضها مثبتاً فى الديوان . منها قصيدة « الصمت » ، وقصيدة « النوم والمنية » ، الأولى لتيوتشف والثانية لسولوكوب .

وهناك ناحية أخرى لا يمكن لمن يدرس أدب الرابطة القلمية على العموم أن يمر دون أن يقف عندها . تلك هى الناحية الإنسانية فيه ، وهى من أبرز مزاياه . وهذه الناحية بارزة فى عدد غير قليل من قصائد نسيب ، وله فيها صور ومواقف لطيفة مؤثرة .

٦ — رشيد أيوب
من الرابطة القلمية

خمسة من أعضاء الرابطة القلمية وصلت أسماؤهم إلى الشرق العربى أكثر من أسماء زملائهم الآخرين ، ونالت حظوظها من التقدير والإعجاب بمقاييس متفاوتة ، تبعاً لتأثير إنتاجهم الأدبى فى نفوس القراء الشرقيين . ومن هؤلاء الخمسة شاعرنا الكئيب المتألم رشيد أيوب .

ولد رشيد فى بسكنتا — لبنان — سنة ١٨٧١ ، وهاجر إلى الولايات المتحدة

سنة ١٨٩٣ ، وهناك توفى سنة ١٩٤١ – وفى مهجره اتصل بإخوان له لا معين توحدت منازعهم ونوع إدراكهم لرسالة الأدب ، وصدقت رغبتهم فى العمل المجدى لإنعاش الأدب العربى ، أو على الأقل لإقالته من كبوته ، فتألفت منهم الرابطة القلمية لهذا الغرض النبيل ، الذى كان من نتائجه أن قفز بالأدب العربى إلى الأمام قفزة واسعة جداً .

كان رشيد أيوب من أكثر الرابطيين إنتاجاً للشعر . وقد جمع قصائده فى ثلاثة دواوين هى – « الأيوبيات » ، و« أغانى الدرويش » ، و« هى الدنيا » . وقد طُبع الأخير منها فى سنة ١٩٣٩ مصدراً بمقدمة للأديب المهجرى شكر الله الجر– البرازيل – وأما (أغانى الدرويش) فقد ظهر فى عهد الرابطة القلمية سنة ١٩٢٨ وكتب مقدمته ميخائيل نعيمه ، مستشار الرابطة ومشرعها الأدبى – إن جاز هذا التعبير – أما عصارة شعره فتتلخص فى ثلاث كلمات : حب ، وألم ، وخمر . فهو كثير التشبيب والشكوى والنواح – على تعبير جبران – كثير الحنين إلى عهد الشباب والحب . ويكثر عنده الألم النفسى ، والحيرة ، والانطواء على نفسه يغترف منها آهات ودموعاً ، ويتخذ من الشعر آنية صافية يسكب فيها تلك الآهات والدموع التى يعتصرها من أعماق نفسه ومن قرارة قلبه . ولكن شعره فى حالتى الحب والألم قَلّ أن يمتدّ كثيراً إلى أبعد من مدى نفسه كما امتد أدب زملائه الآخرين : جبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة . والسبب فى شكوى رشيد وآلامه – كما يظهر فى ديوانيه الأخيرين – هو إحساسه العميق وهو فى سن الكهولة باستمرار الفقر ، وبأن أيام الحب قد تفلتت من يديه ، ولم يعد له مطمع فى هوًى جديد يبرّد حرارة قلبه الظمآن . فهو كثير الحنين إلى عهد الشباب ؛ والحنين لا يرافقه غالباً إلا الألم الكبير . وأما قبل الكهولة فلابد أنه كان فى قرارة نفس الشاعر رصيد مخزون من الألم العميق الذى لعله رافقه منذ الصغر ، وظل يلعج فى صدره ويتلون بألوان وصور مختلفة ، كان الشاعر عميق الإحساس بها صادق التعبير عنها . ولعلّ الفقر كان بعض أسباب هذا الألم .

أما الخمر فقد قال فيها شعراً كثيراً . وذكر مرات كثيرة فى قصائده أنه

إنما يشربها ليدفن فى أقداحها همومه ، ويتخلص بها من حبه وآلامه . ولعله الوحيد بين زملائه الرابطيين الذى أكثر من الغزل وذكر الخمرة فى شعره . وما يدرينا نحن الذين لم نعرف الرشيد معرفة شخصية أنه لا يعنى بالخمرة معناها المادى – بنت العنب – وإنما يقصد بها خمرة الألم ، فليس هناك ما يمنع من هذا التفسير ، كما ليس ثمة ما يمنع من أن تكون خمرة حقيقية .

وهكذا اتخذ رشيد من الشعر قيثارة يوقع على أوتارها أحاسيسه ولواعجه الخاصة . ولذلك لم يتّسم شعره بالشمول والامتداد ، لأن عمق شعوره الذاتى بدفائن آلامه ، ثم ببعده عن زمان الهوى والشباب ، قد صبغ شعره بصبغته المتألمة المنطوية . وهذا المعنى عبّر عنه فى قصائد كثيرة ، مثل « فراشتى » و « غروب شمس الحياة » وفقرات من قصائد أخرى مختلفة . فلنستمع إليه فى « فراشتى » يقول :

ماذا تقولُ فراشتى ... إن رفرفت عند الصباحْ
ورأت محاسنَ روْضتى ... أوْدت بها هُوج الرياحْ
فتناثرت أزهارها ... منها وفرّ هزارها ؟
يا ليت شعرى ما تقولُ ... إذا أتت ذاتُ الوشاحْ
ودرت بأن روايتى ... فى مسرح الغِيد الملاحْ
قد أُسبِلَت أستارُها ... وقد انتهت أدوارُها ؟

وفى « غروب شمس الحياة » :

دنت المنية وانقضى عُمرى ... ونسيتُ ما قد كان من أمرى
غابت رسومٌ فى مخيلتى ... كانت تضىء كأنجمٍ زُهر
وخبا فؤادٌ كان مشتعلا ... بالحبّ مثل النار فى صدرى
ماذا إذا رُفع الحجاب غداً ... ألقى وقد أصبحت فى القبرِ ؟

وفى قصيدة الربيع :

عَطِّرى يا زهرُ أذيالَ الرّياحْ ... إن سَرَت فوق الرياض القُشُبِ
أو دعيها كلّما لاح الصباحْ ... أرَجاً يُغنَى به عن كتبى

غربةً أمست حياتى وانـــتزاحْ ومناجاةً ورَعْـــىَ الشهبِ
فإذا ما لاح للصبح عمـــودْ بعد ليلٍ كغـــراب أبقَـــعِ
قلت فى نفسى وللنوم صـــدودْ : أوَ حَتَّى غربةٌ فى مضجعى ؟

على أننا إذا جردنا شعر رشيد من الشمول والامتداد ، فنحن لم نجرّده من الرقة والعمق والجمال فى قصائده المختلفة : فى الحب والألم والحنين والوصف . فقصيدته « روضة الحب » مثلا فيها موسيقى وتعابير لطاف :

الحب فى عينيـــك آثـــارهُ باديـــةٌ كالأنجم الزاهـــره
إذ ليس غير الحب من زارع بنفسجاً فى أعينٍ فاتـــره
وزارع الخـــدين من نرجسٍ يسقيهما من كفِّـــه الساحره
صيَّرك الحب لـــه روضـــةً أزهارهـــا فواحـــةٌ عاطـره
لا تعذلى النحلـــة إن دندنت حائمـــةً مشغوفـــةً حائره

وقصيدته « وولىّ ما عرفناه » فيها تصوير جميل للدرويش المشرد ، أو للمهاجر الغريب الذى يعتز بإبائه وكرامته فلا يبوح لإنسان بشجوه وهمومه ، ويعانى لواعج الحنين التى ترهف إحساسه ، وتوحى إليه بالشجن لكل صوت جميل :

وقفنـــا عنـــد مـــرْآه حيـــارَى مـــا عرفنـــاهُ
عجيبٌ فى معانيـــه غريبٌ فى مزايـــاهُ
لـــه سربـــالُ جـــوّابٍ غبـــار الدهـــر غشَّاهُ
ووجـــه لوّحتـــه الشمس غارت فيـــه عنـــاهُ
تـــراه إن سَرَى بـــرقٌ تمنّـــاه مطايـــاهُ
وإن أصغَى لصوت النـــاى أشجـــاه وأبـــكاهُ
إذا أعطيتَـــه شيئـــاً أبَتْ جـــدواك كفَّـــاهُ

على أن أجمل قصائد أيوب فى رأينا هى التى صور فيها حنينه إلى الوطن ؛ فهو فيها ذائب العاطفة ، صادق التعبير عن لوعته

وقد رأينا شيئاً من شعره فى الحنين فى فصل (الحنين إلى الوطن) .

وبعد فلعلنا لا نعدو الصواب إذا ما قلنا إن رشيد أيوب قد جمع شعار حياته فى فقرة نثرية فى الصفحة ١٠٧ من ديوان « هى الدنيا » فقال :

« إن الحياة تارة فرح ، وتارة حزن ، وطوراً يأس ، وآونة رجاء . ولكن الآلام وحدها تحتفظ بها النفس ، والسرور يضمحل ويتلاشى ، لأن النفس التى لا تتألم لا جمال فيها ولا تقترب من الله » . ولعل فى معنى هذه الفقرة سر انصراف رشيد إلى الشعر الباكى الكئيب .

٧ — ندرة حداد

من الرابطة القلمية

حب كبير ، وألم كبير ، ينبعان من قلب كبير ؛ تلك هى خلاصة شعر ندرة حداد المجموع بين دفّتى ديوانه « أوراق الخريف » . أما الحب عنده فيتفرّع إلى روافد صافية ، أعظمها الحب الإنسانى الذى يشدّ قلب الشاعر إلى كل ما فى الوجود برباط من المودة الصادقة التى تحب الخير لكل ما فى الوجود ؛ وتسعى إليه . وأقلها حب المرأة الذى يوحى إلى الشاعر بالغزل الرقيق يفيض عاطفة حارّة . فالحب ، كما يقول الشاعر ، هو فى الكون القوة الدافعة :

والحب هذا كهرباء الوجود ... بل هو فيه القوة الدافعه

أو كما يعرّفه فى قصيدة أخرى :

ما الحب يا صاح سوى نفحةٍ ... قدسيَّة بين الورى تسطعُ
يرفعه الكاهن فى كأسه ... والقوم فى معبدهم خشَّعُ
يحصده الزارع إن أخصبت ... فى الموسم الأرض التى يزرعُ
تحمله الأمّ على زندها ... كذلك الحامل والمرضعُ

وهو الذى يعلّم كل عاطفة نبيلة صادقة :

من علَّم الطَّيرَ ، على ضعفها ... أن تبتنى الأعشاش فوق الغصونْ

تحرسها الأمّـــات من عطفها　　كأنها الأجفان حـــول العيونْ
من أسْهَرَ الأمّ على طفلهـــا　　صـــابرةً تشقى ولا تضجـــرُ
حاملة ما ليس من حملهـــا　　وأتعبُ الأحمـــال ما يُسْهِرُ
أخَيّ ، ما حرّك هـــذى النفوس　　فى الخلق من ناس ومن طـــير
إلاّ الذى يجرى كخمر الكؤوس　　فى كل نفس دون أن تدرى
دعوه بالحب ، وكم عـــاشقٍ　　أوصله الحب إلى مـــا أرادْ
ذا نعمـــةٌ من نِعَم الخـــالقِ　　لولاه كان الخلقُ بعضَ الجمادْ

فمن قصائد الحب الكبير عند الشاعر قصيدته « سر معى » التى جعلها فاتحة الديوان ، وهى قطعة إنسانية مؤثرة ، يقول فيها :

يا أخى الســـاعى لنيـــل الـ　　مجد خفّف عنك جَمْحَـكْ
سرْ معـــى فى الأرض تنس الـ　　مال والجـــاه وطمْحَـــكْ
أنـــا راضٍ بالعصـــا يـــا　　أيهـــا الحـــاملُ رمْحَـكْ
وسأرضى خبـــزك الأســـود　　فى الحـــب وملحـــكْ
وسأنسى جـــرح قلـــبى　　كلمـــا شاهـــدتُ جرحكْ

ألا نشعر بخشوع عميق أمام هذا البيت الأخير خاصّة ، وأمام هذه الروح الإنسانية الكبيرة المحبَة ؟ قد لا نجد فى هذا الشعر بهرجة فى اللفظ ، ورنيناً فى العبارة – وهما بعض ما تعتمد عليه المدرسة الشعرية الحديثة فى أسلوب الشعر – ولكننا حتماً واجدون شيئاً أسمى بكثير من بهرجة اللفظ ورنين العبارة ، وهو حرارة العاطفة ، وعمق الفكرة ، ورحابة الروح . وقد نجد هذه الثلاثة مجتمعة فى قصيدة واحدة ، أو قد نلمسها متفرّقة فى قصائد مختلفة ، ولكنها هى روح قصائد ندرة حداد . أما عبارته التى يكسو بها روحه الشاعرة فهى على غاية من البساطة الجميلة .

ونصغى إلى الشاعر فنسمعه يخاطب نفسه فيقول :

لا تفـــرح النفس الكـــريمةُ　　إن رأت أختـــاً حزينـــه
فابكـــى مع الباكـــى ومـــدّى　　للضعيف يـــد المعونـــه

فنحسّ بحرارة الحب الذى تتفتح به النفوس الكبيرة لاحتضان الإنسانية

كلها : تفرح مع الفرحين ، وتبكى مع الباكين ، ولا تجد سعادتها فى غير سعادة الإنسانية كلها . أو ليس ذلك ما يعنيه الشاعر فى نجواه « للورقة الأخيرة » التى رآها وحيدة على الشجرة بعد أن تناثرت من حولها سائر رفيقاتها ، فجعل يسألها متعجباً من انفرادها ووحدتها :

بنتَ الغصـــون ، أراك وحـــ ـدك لا رفيـــق ولا خـــدينْ
أكـــذا اشتهيتِ فنلتِ أم قـــد نلت مالا تشتهـــينْ ؟
هـل تنعمـــين وحيـــدة ؟ لا ، لا إخالك تنعمـينْ !

وأما الألم الكبير فهو أيضاً يتفرّع إلى عدة روافد ، وهو رفيق الحب فى مسراه . فالقلب الذى لا يعرف الألم لا يعرف الحب ، وبالعكس . فالشاعر الذى يحب كل إخوانه فى الإنسانية ويريد لهم الخير والسعادة لا بد أن تتفتت نفسه ألماً لمصائبهم وأحزانهم . وهذا الألم قد يعبّر عنه بطرق كثيرة : فيتألم للعش الذى تملأه الوحشة بعد أن كان دافقاً بالحياة ، وللغدير وقد نضبت فيه المياه وصمت الخرير ، وللغصون إذ يجفّ فيها ماء الحياة فتتعرّى من أورقها الخضراء .

إنه يتألم إذ يرى البشر يقادون إلى حيث لا يعلمون وهم فى غفلة من عقولهم ، وفى جهل لمصائرهم ؛ ويتألم إذ يرى فى الناس مظلوماً يئن ، وجائعاً يشكو ، وعبداً يهان ؛ ويتألم إذ يرى البشرية تتنابذ باسم الدين ، أو باسم الوطن ، أو باسم الجنس .

ثم ماذا ؟ . . أفلا يتألم الإنسان لنفسه أيضاً ؟ إذا عَدتْ به جيادُ العمر بعيداً فى مراحل الأيام ، وإذا نأى عن أهله وديرته ، ألا يحقّ له أن يضّم جناحى قلبه الكبير لينطوى على نفسه لحظات يذرف فيها دمعة صامتة ، ويرجّع شكوى صابرة ؟ إن الحنين إلى الماضى وإلى الأهل والوطن لهوجدول شديد الصفاء وشديد الحرارة ، يتفجر من الينبوع عينه الذى يتدفّق منه الحب والألم ؛ فهو وليدهما معاً ، وفيه من حرارتهما معاً . ولقد اغترب شاعرنا عن أهله ووطنه — وهو كنسيب عريضه ، حمصىِ الموطن — فظلّ خيالهما يراود أحلامه ويفتّح فى نفسه الجراح ، فإذا به ينثر علينا من خطرات حنينه نفحات حراراً . فنسمعه يهتف بلهفة :

ما قيل لى مرحباً في كلّ أسفاري
إلا وقلبي صبا للأهل والدارِ

فكل ما يراه فى غربته يذكّره بالبلد الذى درج على أرضه طفلا ، وبكل ما فيه من ذكرياتٍ عِذاب :

يا حبّذا ذاك النسيم العليلْ إن هبّ عندالصبح أو فى الأصيلْ
مقبّلا ثغر الورود الجميلْ مفتّحاً أعينها الساهيه
من سكتة الليل وحرّ النهارْ

ويتصل بحديث الألم ويتفرّع من نبعه جدول آخر ، فيه حيرة ، وفيه لهفة . ذلك هو التأمل ، وحبّ البحث عن الحقائق فى الحياة نفسها ؛ وفى ما وراء الحياة . وفى القصائد التأملية يحاول الشاعر أن يعزّى نفسه بمحاولة تعليل الأشياء ، وإبداء الرأى فى كنهها .

من الشعر التأملى عند ندرة حداد قصيدتان بعنوان « يا نفس » ، ثم « ضريح الشاعر » ، و« الرواية » و« أمام الجبل » وغيرها . فهو يستهل قصيدة « ضريح الشاعر » بقوله :

ألا ، ما لهذى القبابْ تلوح لنا كالقصورْ
أليست تخاف الذهابْ كما خاف من فى القبورْ
أتُربٌ يوارى الترابْ وفانٍ على مائتِ ؟
أنجهل أنّا خرابْ ولا حصن بالثابتِ ؟

ثم يمضى فيسرد ما يوحى به القبر إليه من عظات وحكم حتى يصل إلى النهاية ، فيقول :

وما شاقنى فى الحياه سوى منظر الجدولِ
يعيش بقلب الفلاه سعيداً بلا منزلِ
جرى بين شَدوٍ وندبِ إلى حيث لا يفهمُ
كذا نحن نمضى كركبِ إلى أين ؟ لا أعلمُ !

ولم ننته بعد ، فما زال فى الديوان أشياء : فيه شعر الطبيعة ، وفيه الغزل ،

وفيه مراث تفيض باللوعة . وفيه عدا كل أولئك قصيدة طويلة هى « الراهبة » ذات مائة وعشرة أبيات . وقد تحدثنا عليها فى فصل سابق .

وبعد فقد كان ندرة حداد إنساناً شديد الشعور بإنسانيته ، تتجلى فى نفسه نوازع الخير والخلق النبيل . كذلك تقول قصائد ديوانه « أوراق الخريف » ؛ التى تدل على « حب كبير ، وألم كبير ، ينبعان من قلب كبير » .

ولقد توفى ندرة حداد عام ١٩٥١ بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، وكان قبل ذلك يساعد أخاه عبد المسيح فى جريدة « السائح » . وهو من أبناء حمص ، وقد نزح عنها إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٧ ؛ فهو من أقدم الأدباء العرب الذين وطئوا أرض كولومبوس ، ومن أعرقهم فى مهجريته .

٨ – عبد المسيح حداد
من الرابطة القلمية

عبد المسيح حداد هو أخو الشاعر ندرة حداد ، صاحب ديوان « أوراق الخريف » ، وأخو زوجة الشاعر نسيب عريضة ، وصاحب جريدة « السائح » التى رافقت جهاد الرابطة القلمية كله ، ونشرت رسالتها الأدبية فى العالم العربى وبين الناطقين بالضاد فى المهاجر الأميركية . وكفاه ذلك شهرة وجهاداً فى عالم الأدب الرفيع .

ولد عبد المسيح فى مدينة حمص عام ١٨٩٠ ، وتعلم فى مدارسها الابتدائية ، ثم فى مدرسة الناصرة للروس . والتحق بعد ذلك بأخيه ندرة حداد فى أميركا منذ عام ١٩٠٧ . وفى عام ١٩١٢ – أو نحو ذلك التاريخ – أنشأ جريدة « السائح » ، وظل يجاهد فى سبيل نشرها بين أبناء قومه المهاجرين حتى قامت « الرابطة القلمية » ، وكان هو من أوائل المتحمسين لفكرتها والقائمين بالدعوة إليها ، وفى بيته كان الاجتماع الأول لتحقيقها .

فلما أنشئت الرابطة التف جميع أعضائها حول مجلة « الفنون » التى كان

يصدرها نسيب عريضة ؛ ولكن عمر « الفنون » كان قصيراً جداً ، فالتفّت الرابطة كلها حول جريدة « السائح » ، فكانت هى الحديقة التى يغرس فيها أعضاء الرابطة غراسهم الحية ، والتربة التى يبذرون فيها ذخائر أدبهم القوى . ومنها جعلت تهب على الأدب العربى نفحات من الرسالة الروحية والاجتماعية السامية ، وهينمات من الأدب الإنسانى الجميل تندى بها الأرواح والقلوب مغتبطة لهذا الجديد الحى .

وهذا ما جعل أحمد زكى أبو شادى يقول فى عبد المسيح : إنه « روح الرابطة القلمية » فى مقال له أذاعه من محطة صوت أميركا ، ثم نشره فى مجلة « القلم الجديد »[1] الأردنية عام ١٩٥٣ . وقد قال أيضاً فى ذلك المقال : « كان عبد المسيح – مؤسس تلك الرابطة الفذة – أصغر أعضائها سنّاً ، ولكنه كان أنشطهم ، ومن ألمعهم تفكيراً ، وأقواهم أصالة . وكان وما يزال يدعى « مارك توين العرب » فى أميركا ، لذكائه الخارق ، وروحه الفكهة الحلوة النيرة التى يتذوقها الكثيرون فى باب « ألحان وأشجان » بجريدته « السائح » . ولا تزال مجموعة الرابطة القلمية التى صدرت فى سنة ١٩٢١ ، و« السائح الممتاز » الذى صدر فى سنة ١٩٢٧ ، من المراجع الهامة عن روح الرابطة القلمية ؛ وهى الروح التى تقمصتها شخصية عبد المسيح حداد »[2] .

والحقيقة أن عبد المسيح لم يكن بين البارزين من أعضاء الرابطة من حيث الروح الأدبية ، والأسلوب البيانى ، والتآليف الأدبية ؛ فهو لم يؤلف حتى عام ١٩٦٢ سوى كتاب واحد جمع فيه عدداً من أقاصيصه وجعل عنوانه « حكايات المهجر » ؛ وقد أراد بتلك الحكايات أن يصوّر أشياء من حياة العرب فى هجرتهم . ولم تكن تلك الأقاصيص على شىء من الفن القصصى ، بل كانت كما دعاها هو نفسه « حكايات » فقط . وهى ذات حظ غير قليل من خفة الروح ، وقوة

---

(١) مجلة « القلم الجديد » أنشأها مؤلف هذا الكتاب فعاشت عاماً واحد فقط ، من شهر أيلول ١٩٥٢ إلى شهر آب ١٩٥٣ ، وصدر منها اثنا عشر عدداً فقط ، كان آخرها عدداً ممتازاً خاصاً بالأدب المهجرى .

(٢) الواقع أن فى هذا مبالغة ، ومجاملة ؛ فلم يكن عيد المسيح قط على هذا المستوى الذى يضعه فيه أبو شادى ؛ ولكنها عين الرضى والصداقة .

الملاحظة . وفى عام ١٩٦٢ نشرت له وزارة الثقافة فى دمشق كتاباً آخر بعنوان « انطباعات مغترب » وذلك على إثر زيارته لسوريا فى ذلك الحين .

غير أن هذا لا يعنى أن عبد المسيح لم يكتب شيئاً غير هذه الحكايات فى المهجر ، فقد ظل يحرر جريدة « السائح » نحواً من خمسة وأربعين عاماً ، ويكتب الكثير من افتتاحياتها ، ويحرر قسماً كبيراً من كل عدد من أعدادها . وهو لو شاء أن يجمع ما كتبه فيها من الافتتاحيات والتعليقات السياسية والاجتماعية والأدبية لكان له من ذلك عدد من المؤلفات . وكذلك لو شاء أن يجمع ما كان ينشره فى باب « ألحان وأشجان » من أعداد الجريدة ، لاجتمع له كتاب ضخم ، فيه الكثير جداً من الطرائف والنوادر الحلوة البارعة ، والنخزات السريعة اللاذعة . أما فى مجموعة الرابطة القلمية التى نشرت عام ١٩٢١ ، فلم يكن لعبد المسيح سوى قطعتين نثريتين من حكاياته المهجرية ، هما : « الله يسعده ويبعده — وفى بيت الميت » استغرقتا عشر صفحات من المجموعة ؛ فى حين كان للآخرين موضوعات متعددة (١)

أما كتابه « حكايات المهجر » فقد طبع هو أيضاً عام ١٩٢١ ، ويقع فى نحو ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط ، وهو يشتمل على إحدى وثلاثين حكاية ، من بينها الحكايتان المنشورتان فى مجموعة الرابطة . وللكتاب مقدمة يقول فيها المؤلف تعريفاً بحكاياته :

« منذ دخلت أميركا منخرطاً بين عالمها السورى ، ونفسى ترى أشكالا وأوضاعاً فى حالتنا الاجتماعية ، وصوراً شتى لحياتنا السورية الأميركية . وكنت كثيراً ما أسائل نفسى : متى يا ترى يتحرك قلم أحد كتابنا فيدون هذه المشاهد لحمل الناس على درس أسرارها ؟

« أما المشاهد التى أعنيها فهى مرئيات لأسرار ، ومظاهر لما خفى فى النفوس . وقد كنت أراها وأقرأها وأسمعها وأحس بها ، فأجد سعة ميدان لمن شاء من الكتّاب تصوير الحياة السورية بأسلوب القصص الصغيرة . ولقد ظلّ هذا الفكر يراودنى حتى كتبت أول قصة « عبد الفطرة » لخاطرة خطرت ببالى

(١) انظر ص ٢٣ من هذا الكتاب ، فى المقال الخاص (بالرابطة القلمية) .

أملأ بها بعض فسحة من صفحات « السائح » ، ولم أدر إلا وأنا مدفوع من نفسى فى ذلك الميدان الذى رغبتُ لغيرى من الكتاب فى ولوجه . فما ظهرت تلك القصة حتى رأيتنى محاطاً بأصدقاء يسائلوننى : كيف خطر ببالى تصنيف قصة هى صورة طبق الأصل لمشهد من مشاهد حياتنا فى ديار المهجر ؟ ثم شعرت بيد لطيفة ممسكة بيدى ، تلك كانت يد عميد الرابطة القلمية جبران خليل جبران . وسمعته يقول لى :

« أريد أن أقرأ لك قصة من هذا النوع فى كل عدد من أعداد جريدتك ، ولا عذر لك عن عدم القيام بذلك العمل ، فأمامك ميدان واسع ولجتَه ، فتعمق فى حناياه وغص إلى قاعة ، وجئنا بما تغوص عليه » .

ولئن كان عبد المسيح قد وعد فى المقدمة بأن تكون هذه المجموعة مقدمة لغيرها ، فإنه لم يعد إلى نشر أية مجموعة أخرى من نوعها بعد ذلك . ولذلك كان كتابه هذا أول مؤلفاته المطبوعة وكتابه « انطباعات مغترب » آخرها . على أن السبب فى ذلك قد يكون لأن عبد المسيح كان يحمل من أعباء العمل الصحفى والطباعى ما لا يترك له مجالا للتأليف ، ولا يسمح له بالكفاية من الوقت للراحة وصفاء الذهن .

ولقد ظلت جريدة « السائح » تصدر عن نيويورك إلى أواخر عام ١٩٥٧ ، وظل عبد المسيح يغذيها بنفثات قلمه مخلصاً لذكرى رابطته المباركة ، ومستمراً فى تأدية رسالتها الأدبية ، على الرغم من أنها فقدت الأقلام الممتازة التى كانت تغذيها فى عهد الرابطة ، وهى أقلام جبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وأمين الريحانى ، وغيرهم . وكان أخوه ندرة يعاونه فى تحريرها حتى توفى عام ١٩٥١ ؛ وعاونه كذلك فى تحريرها فترة من الزمن الصحفى المهجرى راجى الظاهر الذى ابتاع بعد ذلك جريدة « البيان » ، وما يزال يصدرها إلى اليوم فى نيويورك . وكذلك عاونه الشاعر أحمد زكى أبو شادى فترة من الزمن ، منذ هجرته من مصر عام ١٩٤٦ حتى وفاته عام ١٩٥٤ ، فقد كان ينشر فيها الكثير من قصائده ومقالاته .

إلا أن المصائب المتوالية لم تُبق لعبد المسيح قدرة على الاستمرار فى تحرير

« السائح » ؛ فقد تساقط إخوانه وأحباؤه من حوله واحداً إثر واحد : فغاب عنه أغلب زملائه فى الرابطة ، ثم أخوه ، ثم زوجته ، وبقى وحيداً فى الميدان إلى أواخر عام ١٩٥٧ ؛ ثم باع حقوق جريدته إلى زميله السابق راجى الظاهر ، صاحب جريدة « البيان » ، لأنه لم يعد فى وسع شيخوخته المتعبة أن تنهض بأعبائها . فاندمجت « السائح » فى « البيان » . وكان من شروط البيع والدمج أن يكتب عبد المسيح فى كل عدد من أعداد البيان مقالا أو أكثر . وهكذا كان برغم شيخوخته يكتب مقالاته فى البيان ، مخلداً بها اسم « السائح » حديقة الرابطة القلمية ، إلى أن وافته المنية عام ١٩٦٣ .

ولئن كانت (السائح) قد زالت بعد جهاد طويل استمر من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٥٧ ، فإنها ستظل تُذكَر بإعجاب وإكبار كلما ذكرت الرابطة القلمية ، وتحتل معها مكاناً مرموقاً من تاريخ النهضة الأدبية الحديثة .

٩ – جنود مجهولون فى الرابطة القلمية

إلياس عطا الله

وديع باحوط

وليم كاتسفليس

الناس يعرفون الكثير عن الرابطة القلمية التى أنشئت فى مدينة نيويورك وعاشت فيها فترة من الزمان ، وستعيش فى تاريخ الأدب العربى إلى أجيال وأجيال ، لأنها أول رابطة مدّت إلى الأدب العربى الحديث يداً كلها خير وبركة ، فبثّت فيه الحياة ، ورفعت عن عيونه غشاوة العدم ، ومسحت ساقيه بزيت الخلاص ، فركض فى ميدان الحياة طليقاً نشيطاً يواكب آداب الأمم الناهضة وعيونه أبداً إلى الأمام ، حيث النور والغنى والحياة التى لا تموت .

والناس يعرفون من أعضاء هذه الرابطة المباركة أفراداً ملأوا الدنيا وشغلوا

الناس بما أبدعوه فى آداب الضاد – وبعضهم فى الآداب العالمية – من روائع الآثار الأدبية ، شعراً ونثراً : فهم يعرفون عن جبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى ، ونسيب عريضة ، الشىء الكثير ، ويحفظون من شعرهم ونثرهم ، وكثيرون منهم تأثروا بأساليبهم وبمبادئهم الأدبية ؛ ولكنّ القليلين فى الشرق يعرفون إخواناً لهؤلاء العباقرة آخرين فى الرابطة هم جنود مجهولون سعوا مع الساعين إلى فك أغلال الجمود عن الأدب العربى ، وأسهموا فى تحريره بجهود موفقة ، وإن لم يظهر أثر جهودهم واضحاً كما ظهرت آثار زملائهم الآخرين .

حقًّا إن أعضاء الرابطة العشرة لم يكونوا جميعاً على مقياس واحد من الكفاية الأدبية ، ولكنهم كانوا جميعاً متفقين من ناحية الذوق الفنى والفهم الأدبى ، وعلى عقيدة واحدة فى سعيهم للنهوض بالأدب العربى . وقد تكاتفوا للقيام بهذا العبء جميعاً فكان لهم فضل الساعين المخلصين . فإذا كانت الرابطة قد توصلت إلى أن تعمل شيئاً كثيراً للأدب العربى ، وتفتح أعين الناس على مقاييس جديدة للأدب ، واعتبارات جديدة لمعناه وقيمته ، وأن تثير فى نفوسهم الطموح إلى التجديد ومحاولة خلق أدب حرّ قوىّ ، فما استطاعت ذلك إلا بفضل تكاتف سائر الأعضاء وسعيهم معاً . ولذا حق لنا أن نذكر هؤلاء الجنود المجهولين بالخير ، لأنه لو لم يكن لهم سوى فضل الإسهام فى إنشاء الرابطة فى الوقت الذى أنشئت فيه ، وخلال الفوضى الأدبية التى كانت منتشرة فى الشرق ، لكفاهم ذلك تأدية لرسالتهم الأدبية إلى أمتهم وإلى الحياة .

أما هؤلاء الجنود المجهولون الذين أعنيهم فهم : وليم كاتسفليس ، ووديع باحوط ، وإلياس عطا الله ؛ فهؤلاء الثلاثة هم أقل أعضاء الرابطة شهرة فى ربوع الشرق لأنهم أقلهم إنتاجاً ، وأقلهم بروزاً : فإلياس عطا الله ، مثلا ، لا نعرف أنه كتب شيئاً طيلة مدة انتسابه إلى الرابطة ، مع أنه كان قبل هجرته يعالج الكتابة أحياناً ، وقد أخبرنى الأستاذ ميخائيل نعيمه فى إحدى رسائله بأن إلياس عطا الله لم يكتب شيئاً منذ تأسيس الرابطة ، ولكن كان له بضع مقالات قبل انخراطه فى الرابطة . وقد توفى إلياس فى أميركا .

أما وديع باحوط فقد كان مثله انعزالا عن حقل الإنتاج الأدبى ، فلا نعرف

له أكثر من مقال واحد بعنوان « البرغشة » منشور فى « مجموعة الرابطة القلمية » . وقد أكد لى الأستاذ نعيمه أنه ليس له من الإنتاج الأدبى سواه . وقد لحق وديع بمن قضوا من إخوانه الرابطيين نحو عام ١٩٥٢ .

ومقال « البرغشة » الذى ذكرته فى ما تقدم هو مقال حوارىّ ، فيه فلسفة اجتماعية وتأمل إنسانى . والحوار يدور فيه بين الكاتب والبرغشة ، ولكنه يتوصل منه إلى أن البرغشة – على أذاها – ليست أكثر ضرراً وأذى من الإنسان ، فهى تمتص قطرات من دمه لتعيش ، أما هو فيقتل ويسرق ويهدم ويدمر ، وغالباً ما يفعل ذلك إرضاء لشهوته ، لا سدًّا لحاجته وطعامه .

وإليك بعض ما تقوله البرغشة فى هذا المقال : « إن فى البرغشة صفات تفوق الإنسان بها ، فإنها تفهم جيداً أن الاتكال على الغير ضعف وصغارة ، وأن العمل وحده يعينها على الفوز بالغاية التى تسعى لها ، فلا تفتر عن السعى . . وهى لا تعرف الخمول والكسل . . . وتظل تعمل حتى تفوز بمرادها أو تموت شهيدة العمل . .

« أعرف أناساً كثيرين يؤثرون البطالة على الشغل . . . .

« وأرى بعضهم يسرقون ويحتالون ويباغتون المارة فى الطرق ، فيسلبونهم أشياءهم وأموالهم ، بينما البرغشة تأنف من استخدام هذه الوسائط الدنيئة ، فتسير فى طلب حاجتها مهاجمة أيًّا كان بطنينها المسموع ، مفسحة له مجال الدفاع عن نفسه وأشيائه ، حتى إذا فازت أو سقطت فى المعركة تفوز شريفة أو تسقط شريفة . . . والإنسان يجهل فلسفة حياتها كأنه لا يدرى أنها تسعى فى طلب رزقها مثلما هو يسعى فى طلب رزقه . . . فهى تمتص قليلا من دمه دون أن تؤذيه ؛ أو أنها تؤذيه أحياناً ، أما هو فيلوّع ويذبح ويقتل ويفنى أمماً للغاية نفسها . . . »

هذا نموذج من كتابة وديع باحوط فى مقاله اليتيم المنشور فى مجموعة الرابطة القلمية .

بقى وليم كاتسفليس ، وهذا له مشاركة غير قليلة فى الإنتاج الأدبى ، وقد كان خطيباً بارعاً ، وكاتب مقالات مجيداً ، ولكنه لم يجمع شيئاً من خطبه

ومقالاته فى كتاب . والكتاب الوحيد الذى ذُكر له هو بعنوان « حضارة العرب » وقد وضعه بالإنكليزية .

وله فى « مجموعة الرابطة القلمية » ثلاثة فصول ، هى : « البترون عام ١٩٢٠ » و« اجعلوا الحلم جميلا » و« القلوب الجائعة » . وقد اشتهرت هذه الفصول ، ونقلتها بعض كتب المختارات الأدبية التى اهتمت بنشر أشياء من أدب المهجر إبّان قوته ومجده .

والذى يطالع ديوان « أوراق الخريف » لندرة حداد ، يجد له مقدمة طويلة رائعة كتبها وليم كاتسفليس تعريفاً بالشعر الصحيح والشاعر الحق ؛ وهى فصل « رابطى » حقًّا بروحها العالية ، وأسلوبها الجميل المشرق .

ومن حين إلى آخر كان وليم يطلع على القراء بمقالات أدبية أو اجتماعية ينشرها فى بعض صحف المهجر ، تحمل طابع الرابطة الإنسانى الجميل ، وروحها القويّة الصافية .

ولد وليم فى طرابلس الشام سنة ١٨٧٩ ، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٢ . وكان يتقن العربية والفرنسية والإنجليزية . وقد انضم إلى الرابطة القلمية منذ تأسيسها ، وانتخب خازناً لها ، وجاهد مع زملائه الآخرين فيها لرفع اسمها ونشر رسالتها الأدبية ، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٥١ ، فلحق بمن سبقوه إلى الأبدية من إخوانه وزملائه الرابطيين الخالدين .

وفى ما يلى نموذج من أسلوبه الأدبى ، من مقال له بعنوان « القلوب الجائعة » نشر فى مجموعة الرابطة القلمية :

« عند اشتداد الأزمات البشرية ، وحلول النكبات ، وحدوث المجاعات ، يشفق الإنسان على أخيه الإنسان ، فيبادر إلى مساعدته بقدر الاستطاعة والإمكان . وتكثر الأحاديث والكتابات عن المجاعة وهولها وعدد ضحاياها .

« جميلة هذه العواطف الدالة على تقدمنا فى المدنية ، وعلى اقترابنا رويداً رويداً من الغاية الكبرى التى هى الإخاء العمومى . وأجمل منها المساعدة الفعلية التى ليس من ورائها غاية أو مصلحة ، فإن قلب الله يهتز طرباً كلما هزت قلب الإنسان عاطفة الرفق والإحسان .

« هذا فيما يتعلق بمجاعة الأجسام ، ولكن كم هو عدد الذين يشفقون على جائعى القلوب إشفاقهم على جائعى البطون ؟ وكم هو عدد الذين يدركون أن آلام الروح ، وإن تكن أبعد عن الحس من آلام الجسد ، لهى مؤلمة مثلها ومنغصة للعيش ؟

« ليست هذه من الآلام ذات المظاهر الخارجية ، بل كثيراً ما يكذب الوجه مخفياً ما فى النفس ، وقد تكون الابتسامة غلافاً ظاهراً لليأس والسآمة . وليس ما يؤلم مثل اليأس الخفى والحزن المكتوم .

« هاكم مواكب جائعى القلوب يمرون فى فضاء الحياة ، تحيط بهم أشباح أحزان خفية وأسرار مطوية ؛ وهم : أنت وأنا وهو وهى ؛ هم جماهير الوضعاء والكبراء ، والفقراء والأغنياء ، المجهولون والمشهورون ، البسطاء والعلماء . كلهم فى الشعور سواء حيث ينبض قلب لا نهاية لأمانيه ، فى هيكل محدود بما فيه » .

وهذا نموذج آخر من أدبه ، فى تعريف الأدب وحقيقته ، من مقدمته لديوان زميله الشاعر ندرة حداد :

« الأدب ، فى عرفى ، هو خدمة الحياة ، بتعريفها إلى نفسها ، أو ترجمة الحياة لأبناء الحياة ؛ فالرسام والنحات والموسيقى والخطيب والكاتب والشاعر جميعهم يصورون الحياة كما يرونها ، أو كما هى ، أو كما يريدونها أن تكون . هم الأصوات المتصاعدة من أعماق الإنسانية ، ومن هذه الأصوات الجميل والوسط والقبيح .

« يتألف الأدب من جزأين : صنعة وبداهة . واقتران الاثنين يؤلف الفن الذى لا يكون كاملا إلا بالبداهة أو السليقة التى تصقلها الصنعة . أما أى الجزأين أفضل وأهم فى نظر الفن ، فهذا أمر لا يحتمل اختلافاً بالنظريات . . . فللبداهة جمالها المستقل وإن زادتها الصنعة رونقاً . مثال ذلك أنك ربما أصغيت إلى مغنّ يتقن الغناء ، ولكنه ذو صوت غير حسن ، فأنت تعترف له بالحذق ، ولكنك لا تطرب لغنائه . أما إذا سمعت راعياً فى البرية ذا صوت جميل يترنم وهو لا يعرف شيئاً من أصول الموسيقى ، فإنه يطربك ويدخل غناؤه إلى أعماق نفسك » .

* * *

هذا وقد انتقل وليم كاتسفليس إلى الرفيق الأعلى فى الولايات المتحدة عام ١٩٥١ بعد أن تجاوز الثانية والسبعين من عمره ، فلحق برفاقه وزملائه الخالدين من أعضاء الرابطة الذين سبقوه إلى الأبدية . وكان قد مرّ على هجرته إلى أميركا أكثر من تسعة وأربعين عاماً .

١٠ – نعمة الحاج

بدأت صلتى بنعمة الحاج عام ١٩٤٩ ، وكانت أول رسالة تلقيتها منه تحمل تاريخ ٢٢ تموز (يونية) من تلك السنة . ومن تلك الرسالة عرفت أن نعمة الحاج قد ولد فى غرزوز بلبنان فى شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٩ ، وهاجر إلى أميركا عام ١٩٠٤ ، وهو بعد فى الخامسة عشرة من عمره ، فلم يتح له أن يتلقى من العلم أكثر مما تلقاه فى مدرسة القرية التى لم يلبث أن غادرها وهو ابن أربعة عشر عاماً .

وفى أميركا استطاع نعمة أن يتصل بحلقات الأدباء المهاجرين ، فكانت اجتماعاته بهم مدرسة له ، وقد تأثر بهم واستفاد منهم كثيراً . وكان قوىّ الصلة بأدباء الرابطة القلمية جميعهم .

وحينما وصل الأديب الفلسطينى الكبير خليل السكاكينى إلى أميركا فى أواخر عام ١٩٠٧ ، وبقى فيها نحو ثمانية أشهر ، اغتنم نعمة الحاج فرصة وجوده هناك فكان يتلقى على يده دروساً بالعربية ، يقول نعمة إنها أفادته كثيراً .

والذى يطالع مذكرات السكاكينى فى كتابه « كذا أنا يا دنيا » يجد لنعمة الحاج ذكراً فى مواضع منه ، ولا سيما فى الصفحات ٢٠ إلى ٣٤ التى يروى فيها حياته فى أميركا . فمرة تجده يقول : « الخميس فى ١٩٠٨/٣/١٢ – جاء السيد نعمة الحاج فأعطيته درساً ، ثم جلسنا نتحدث فى مواضيع مختلفة . . . » ومرة يقول : « الخميس فى ١٩٠٨/٣/٢٦ – بعد الظهر جاء السيد نعمة الحاج فأعطيته درساً ، وبعد الدرس خرجنا فمشينا قليلا فى الهواء النقى . . . »

ومرة ثالثة : « الاثنين فى ٢٠ / ٧ / ١٩٠٨ – وردتنى رسالة من السيد نعمة الحاج يدعونى معلمه ، ويدعو نفسه تلميذى . قال : « استفدت منك أكثر من كل المعلمين الذين علمونى ، وأرى أن لك فضلا على تهذيبى مثلهم إن لم يكن أكثر . وإذا كنتَ قد أسفتَ لمجيئك إلى هذه البلاد وضياع أتعابك فيها ، فأرجو أن تتعزى بأنى أقدر فضلك قدره » . فسررت واغتبطت . . . » .

وكان من نتيجة درَوس السكاكينى ، وحلقات أدباء المهجر ، والمطالعة الشخصية المستمرة ، أن تفتحت الموهبة فى نفس نعمة الحاج ، فأخذ ينظم الشعر ؛ وكان يعرضه فى البداية على من حوله من الأدباء والشعراء لتنبيهه إلى مواطن الخطأ فى شعره ولغته .

وفى عام ١٩٢١ طبع ديوانه الأول فى مطبعة جريدة « الهدى » ، لصاحبها سلوم مكرزل ، فى نيويورك ، ودعاه « ديوان نعمة الحاج – الجزء الأول » ، وكتب إيليا أبو ماضى مقدمة الديوان ، فتحدث فيها على الأدوار التى يمر بها الشاعر ؛ ثم ختمها بقوله : « أكتب هذه الكلمة تمهيداً لهذا الديوان الذى تسرح النفس فيه بين معان كالكواكب المشرقة ، وألفاظ كدموع الفجر المترقرقة ، فقد صاغه صديقى نعمة الحاج فأحسن الصياغة ، ووفق وهو فى محيط غريب إلى الجمع بين ضروب المعانى البديعة ، والأوزان الموسيقية المرقصة ، فكان فى تقليده مبتكراً ، وفى ابتكاره مبدعاً .

« لقد سمع الناس من قبل الشاعر المتفنن نعمة الحاج ، اما اليوم ، وديوانه يوشك أن تتداوله الأيدى ، فإنهم سيشهدون آيته ، وإنها كما يرون من الآيات الخالدة » .

ومنذ ذلك العام إلى عام ١٩٥٩ لم يطبع نعمة الحاج شيئاً آخر من شعره فى كتاب ، بل كان يبعث بالجديد من قصائده إلى الصحف . وقد ذكر لى فى رسالته الأولى أنه كان يفكر فى زيارة الوطن ، وقد يتمكن فيه من طبع شىء من شعره الجديد فى ديوان آخر . وقد تكررت لديه هذه النية عام ١٩٥٦ ، وكتب إلىّ بذلك ، غير أن أمنيته هذه لم تتحقق إلا فى عام ١٩٦٠ ، حين أصدر فى بيروت ديوانه الثانى بعنوان « من نافذة الخيال » .

عمل نعمة الحاج فى التجارة متجولا مدة طويلة ما بين نيويورك وتكساس فى جنوب الولايات المتحدة . ولكنه فى عام ١٩٥٣ آثر الاستقرار ، فأنشأ حانوتاً للسمانة فى كارولينا الجنوبية . وفى هذا يقول فى رسالة بعث بها إلىّ فى ٢٠ فبراير عام ١٩٥٣ : « أنا لا أكاد أجد وقتاً حتى للأكل فى هذا الشغل ، فقد عدت إلى تجارة السمانة لا طمعاً بالربح المادى ، بل رغبة فى الاستقرار فى مكان ما بعد أن تعبت من التجول والركض على الطريق ، من نيويورك لحد تكساس فى الجنوب ، وكدت أنفق كل ما معى » .

وبعد أن غادر المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى مصر إلى نيويورك ، تأسست هناك رابطة أدبية دعيت « رابطة مينرفا » وانتخب نعمة الحاج رئيساً لها ، والدكتور أبو شادى أمين سرّها . وقد زالت هذه الرابطة من الوجود بعد وفاة أبى شادى ، الذى كان لولب الحركة فيها . وكانت هذه الرابطة تضم عدداً من رجال الفكر هناك ، من العرب والأميركيين .

* * *

بعد هذا التعريف بالشاعر نعمة الحاج وحياته ، ننتقل إلى النظر فى شعره ، ولا سيما المطبوع منه فى ديوانيه . ولدينا عدا ذلك قصائد متفرقة ، كان ينشرها الشاعر فى « السائح » و« السمير » و« البيان » من صحف المهجر .

وليس من شك فى أن هناك فرقاً فى المستوى الشعرى والفكرى بين شعر الديوان الأول وما جاء بعده . ففى الديوان قصائد عديدة من شعر الشباب الأول حين لم تكن قد اكتملت لدى الشاعر موهبته ، ولا بلغ من الاختبار والنضج الفكرى مداه .

يقول الدكتور أبو شادى فى مقال له حول نعمة الحاج أذاعه من صوت أميركا :

« إن نعمة الحاج من أولئك الشعراء القلائل الذين يجتمع فنهم وشخصيتهم فى شعرهم ؛ وأصالةُ شخصية ناصعةٌ فى تعابيره ، لأن شعره ترجمة حياته بالأسلوب الفنى الذى يتذوقه ؛ وهو أسلوب رومانسى حيناً ، واتباعى حيناً آخر ، ولكنه ليس محاكاة متعمدة لأحد » .

ويقول فى مكان آخر من ذلك المقال : « لا ريب أن الجزء الأول من هذا

الديوان القيم هو نعمة الحاج فى شبابه ، مصوراً أفراحه وأتراحه وكفاحه ، ولو أن هذا الكفاح ما يزال متواصلا ؛ فليس فيه ذرّة من التصنع ، ولا من ملامح الشخصية المزدوجة . وفى ميزان الانتقاد يمثل هذا الديوان أيضاً عصر الشاعر وبيئته الأولى . . . ويمثل تفاعله معها ومع الوسط الأميركى الحر » .

والحقيقة أن الذى يقرأ شعر نعمة الحاج يجد صفة « الهدوء » هى الصبغة التى يصطبغ بها ، سواء منه ما نشر فى الديوان الأول ، وما نشر فى الصحف بعده . ثم فى الديوان الثانى ؛ فليس هناك افتعال ، ولا جعجعة ، ولا فوران ، ولا اهتمام بالأصباغ والألوان والتزاويق الفنية . فالصياغة هادئة سهلة ، والأفكار والصور تتوالى بهدوء ناعم ؛ وقليلة جداًّ هى القصائد التى تنوّعت فيها الأوزان والقوافى لدى الشاعر ؛ وما كان منها منوّع القوافى والأوزان فإنما يجرى مجرى الموشحات الأندلسية : فهو أوصاف للطبيعة ، ولتساقى كؤوس الشراب ، والحنين ، والحب ؛ والقليل منه للتأمل الروحى فى الحياة والكون .

أما أغلب شعر الحاج فهو من الطراز التقليدى ، وزناً وقافية وعبارة . والتقليدية ليست عيباً فى الأدب والشعر ما دام الشاعر والكاتب يستطيعان التعبير بها عما يحسّانه ويتأثران به من مشاعر ومشاهد ؛ والعيب هو أن يقع الكاتب والشاعر على المعانى التافهة ، والتعابير المبتذلة .

وإليك أبياتاً من قصيدة له بعنوان « شطح الزمان » ، وهى من الشعر الوصفى والتأملى ، أوحى بها إلى الشاعر المشيبُ والحياةُ التى لا تقف عن الدوران ، منذرة بقرب النهاية :

أين الربيع من الخريفِ ؟ ... ذهب التليد مع الطريفِ
شطح الزمان فلا رجا ... ءَ بالرجوع أو الوقوفِ
سارت ركائبه بنا ... والسير ينذر بالحتوفِ
تطوى الخصيب إلى الجديـ ... ـب على حداء كالعزيفِ
بلغت إلى حيث العيو ... ن ترى ذرى الطود المنيفِ
متعمماً بضبابه ... يغشاه كاللبد الكثيفِ
يا للمشيب وقد سطا ... سطو القوىّ على الضعيفِ

عَلَمُ الشتاء تلـــوح فيـــ ه طلائع الحدث المخيـفِ
أين الشباب ، وأيـــن ذا ك العـزم كالحـدّ الرهيـفِ
حالت إلى اللين الصـــلا بـة والغضـــارة للنشوفِ
والقلب زايلـــه الخفـــو ق إلى رعاش كالوجيـــفِ
كنت العـزيز من الرفـــا ق فصرت منهم فى الطيـوفِ
سبقوا صفوفـــاً بالرحيـ ل وسوف نلحـــق بالصفوفِ
والغانيـــات إذا نظـــر ن فنظـرة الطـرف العـزوفِ
ذكـرى اللهيف على الشبا ب أشد من وقـــع السيوفِ
دنيـــا ترحّب بالضيـو ف لكى تروغ من الضيـوفِ

وإذ يجيل الشاعر طرفه فى الحياة يجد فيها الشر متغلباً على الخير ، ويجد المطامع هى التى تتحكم بالبشرية ، فيرسل لذلك زفرة أليمة من ظلم الناس ولؤمهم وغلبة الشر فيهم :

لماذا ينـال الأثيم الهنـاء ويشقى البرىء ولم يأثـمِ ؟
ويحظى الجهول بشهد الحياة وذو العقل والفضل بالعلقمِ ؟
وكم جاهِـدٍ خاب فى سعيه وكم قاعـد فاز بالمغـنمِ
أيأكل ذو خدعـــة حصرماً ويضبرس ذوالصدق بالحصرم؟
وأين العـدالة فى عـالم سوى الشر فى جوّه الأقتم ؟

ثم يتطرق إلى التمثيل بقضية فلسطين ، التى نأى فيها الأقوياء المتحكمون عن كل معنى من معانى العدالة ، فيقول :

أنانيـــة تلك لا غـــــيرة بهـا كل مغتصب يحتمى
فلسطين شاهدُنـا ، إنهـا فريسة ذى نهـم مجـرمِ
علانيـةً صُلِبت كالمسيح وبيعت كيوسف بالـدرهمِ
فيـا عجباً كيف دار الزمـان وصال البغاث على القشعم !

وقد تمرّ بالشاعر لحظات من التشاؤم المرّ يبلغ فيها من دنياه حد اليأس ، فنسمعه يهتف :

لو كان أمـرى فى يـدى لوددت أن لم أولـدِ

لم ألـــق غـــير النحس فى أمسى ، فماذا فى غـــدى ؟
لم يبـــق غـــير ثمالـــــة فى الكأس للقلب الصـــدى
فـــولادتى بـــدء الممـــات ويـــوم مـــوتى مولـــدى

ولكنه فى لحظات الإشراق النفسى يهتف مناجياً أمه بملء الحنان والحب والأمل ، فيقول فى قصيدته « ذكرى الأم » :

ذكرتُك إذ جـاء الشتاء ، وقـــرُّه سهامٌ إلى الأكباد يشققن أضلعَا
فحنَّتْ إلى الدفء القلوبُ ، وشاقَها تذكّر حضن الأم إذ طاب مضطجعا
فيا أمّ ، يانبعَ الحيـــاة ، فؤادُهـــا إذا جفّ نبعٌ كان للحب منبعا
ويا أمّ ، يا ملجأ الأمـــان ، ولاؤها يَرى القلبُ فيه فى الملمات مفزعا
تُزَعزَع أركانٌ ، وتهـوى شوامـــخ ولكنـــه فى القلب لن يتزعزعا

أو يناجى « أوراق الخريف المتناثرة » متفائلاً آملا ، فيقول :

وقولى لمـــن دأبـــهُ أن يـــرى من العيش جانبَـــه الأسودا :
إذا نعب البـــومُ فى روضـــة فـــكم بلبلٍ فوقهـــا غـــرّدا
وما العمـــر إلا بما فيـــه من مفيدٍ ، وليس بطـــول المـــدى

وفى بعض الأحيان تكاد تسمع صوت المتنبى فى شعر نعمة الحاج ، من حيث فخامة العبارة ، وقوة الجرس ، وعلوّ الهمة ، وبعد المراد . وإليك من ذلك قصيدته « لعينيك » التى يقول فيها :

إلامَ تعانى الهمّ والطرفُ ساهـدُ وتنشد معواناً وليتك واجـدُ !
وتضرب فى طول البـــلاد وعرضها كأنَّك قد سُدَّت عليك المـواردُ
لعمـــرك كم هبَّت عليك زعـازعٌ تهدّ ، وكم شدّت عليك شدائدُ
فكانت كأمواج تهاجم جلمـــداً تشظَّت عليه وانثنت وهو صامـدُ
إذا لم يكن لى من يمينى مساعد فلا كان فى جسمى يمين وساعدُ
وما المال همِّى فى الحيـــاة وإنما أطارد خيل المجد فى ما أطـاردُ
فحسبى من العيش الكفاف ، وإن يزد فللغـــير منه حصّـــة وفوائـدُ

* * *

وما أحسب بعدُ أننا فى حاجة إلى أكثر من هذه الشواهد على شاعرية الحاج وإنسانيته ، وما يفيضه فى شعره من صور نفسه النبيلة ، المحبة للخير والجمال والعدالة والحق . وعسى أن نرى ديوانه الثالث فى وقت غير بعيد ، وأن نرى أمنية الشاعر تتحقق ، فيعـود إلى الوطن الذى فارقه فتًى غـــريراً ، وعاش بعيداً عنه بجسمه أكثر من سبعين عاماً ، ولكن روحه لم تفارقه ، بل ظلّت ترفرف إلى اليوم فوق ربوعه بالحنين الحارّ اللهيف فى قصائد عديدة .

١١ – مسعود سماحة

فى أوائل عام ١٩٤٦ قضى فى الولايات المتحدة الأميركية الشاعر اللبنانى مسعود سماحة ، ابن دير القمر ؛ وكان يحرّر مجلة « البيان » التى كان يصدرها سليمان بدور فى نيويورك ثم آلت إلى راجى الظاهر . ومسعود سماحة شاعر معروف له ديوان ضخم يقع فى ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير ، مطبوع فى مطبعة جريدة « السمير » فى بروكلين سنة ١٩٣٨ . وقد قسم الديوان إلى أربعة أقسام ، فحشد فى القسم الأول منها مجموعة كبيرة من القصائد الاجتماعية والوطنية ، وفى القسم الثانى مجموعة أخرى من المدائح والتهانئ والوطنيات أيضاً ، وفى القسم الثالث طائفة من شعر الغزل والإخوانيات – وأغلب قصائد هذا القسم مقطعات قصار تتألف من بيتين أو أكثر – وخصّص القسم الرابع لِقصائد الرثاء .

وأما الصفة الغالبة على شعره فهى صفة التقليد ، أو الجرى على سنن القدماء . فيظهر أن سنّة التطور والتجدّد التى سمت بالرابطة القلمية فى نيويورك عن المدح والرثاء والتهانئ ، وعن عبودية القديم ، لم تجر عليه ولا كان له منها نصيب ؛ فليس فى شعره شىء من عناصر التجديد ، لا فى الأفكار ولا فى الأسلوب ؛ فغزله مثلا أقرب فى روحه وأسلوبه إلى روح عصر الانحطاط ، وفيه أحياناً شىء من أثر ابن الفارض . وهو يتعمّد النكتة البيانية قبل أن يحاول التعبير عن عاطفة حب صحيح . فإذا قرأت قوله :

قد راقنى منـــه رشيقُ قَوامـــه وبهـاء طلعته ورقّـــة خصرهِ
وبياض طرّته وحمـــرة خـــدّه وذبول عينيه وروعـــة شعـــرهِ
الورد حطّ رحالـــه فى وجهه والفلّ مدّ رواقه فى نَحْـــرهِ
لابِـــدْع إن مَلَك القلوب بأسرها فجماله مَلَكَ الجمال بأسرهِ

فلابدّ لك من أن تذكر إلى جانبه روح الشاعر القائل :

ما كنت فى عشقى لذاك القوامْ أوّل من حبّ مليحاً فهـامْ
فى غنج عينيـــه وفى ناظـــرى سحر حلال ورقـــاد حرامْ
أسقمنى والبرء فى ريقـــه ويا ضلالى وهـو بدر التمامْ

وأن يتداعى إلى خاطرك أيضاً شعر البهلول ، والشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وابن نباتة ، وحسام الحاجرى ، وغيرهم . فالروح الشعرية واحدة فى شعره وأشعارهم ، وهى تعتمد على اللغة وقواعد البديع قبل العاطفة والفكرة والفن . وليس من السهل مثلا أن تجد فى سائر المقطوعات الغزلية شيئاً من العاطفة الصحيحة ، أو التعبير الصادق عنها . كما أنه ليس هناك طابع خاص يتميز به شعر مسعود عن سواه ، كما يتميز شعر أبى ماضى ، مثلا ، أو نسيب عريضة ، أو نعيمه ، أو فوزى المعلوف ، أو حتى أسعد رستم .

أما المدائح والتهانئ والمراثى فنحن لا نعدّها من الشعر فى شىء ، وحيثما وجدناها فإننا نتخذها دليلا على عدم فهم صاحبها لرسالة الشعر التى هى أسمى من الشخصيات والأغراض ، كما نتخذها دليلا على براعة صاحبها فى النظم وحده ، لا على أصالته فى الشاعرية الحقة .

ومن أبرز الأدلّة على إفراط مسعود فى تقليد القديم أنه كثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل – وهو غير مقصود – ثم يتطرّق إلى موضوعه الأصيل . مثال ذلك قصيدته « قلبى استعار . . . » فهى قصيدة وطنية ، ولكنه قدّم لها بخمسة عشر بيتاً من الغزل الثقيل المصطنع ، ثم تخلّص إلى موضوعه الوطنى ، وكذلك قصيدته : « أوجهك أم بَها البدر » ص ٩٣ ، والأخرى التى بعنوان « قددرّ غيمك » ص ١٥٨ ، وغيرها كثير .

والذى يتتبع قصائد الديوان باهتمام يجد فيها آثاراً كثيرة لشعراء مختلفين ؛

فنجواه لّليل فى مطلع قصيدته « الفقير » فيه أثر جبران فى نجواه لليل أيضاً ، وقصيدته التى بعنوان « الشام دارك . . .» ص ١٣١ مطلعها مأخوذ من مطلع قصيدة لحافظ إبراهيم ، فمسعود يقول :

الشام دارك أم ربى لبنـــانِ فكلاهما فى الكون خير مكـانِ

وحافظ يقول :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ؟ هنا العلا وهناك المجـد والحسبُ

وقصيدته « إذا » هى ترجمة لقصيدة رديارد كبلنج المشهورة بعنوان « if » ولكن مسعوداً لم يشر إلى ذلك .

وإذا كان فى الديوان شىء يستحق أن نقف عنده طويلا للإشادة به فهو قصائد الحنين والوطنية ، وهى أكثر قصائده وأجملها . فمسعود كثير الحنين إلى لبنان ، وقصائد حنينه فيها كثير من العاطفة ، وإن كانت تجىء غالباً فى ملابس صحراوية قديمة مهلهلة ؛ وهو فى وطنياته يتحرّق ألماً – شأنه فى هذا شأن زملائه الآخرين – لخضوع أبناء وطنه للغرباء ، وللتفرقة التى تنخر فى جسم الوطن ، وهى من أكبر الأسباب لإذلاله واستمرار تحكم الأجنبي فيه . وهو يهيب كثيراً بمواطنيه إلى خلع نير الهوان ، والنهوض لنيل الحرية . ومن حنينه قوله :

تلك الربوع تركناها وما تركت قلوبنا حبَّها أو حبّ أهليهـا
إذا دعتنا وإن شطّ المـزار بنـا فـكل جارحة منَّا نلبِّيهـا

وأيضاً :

أقمت فى الغرب مضطرًّا وفى كبدى نارٌ ، وفى مفرق والقلب نـاران
أحـنّ للوطن الغالى وأرْبُعِـه حنينَ إلفٍ للقيا إلفـه عـانِ
نزحتُ عنه وأدنانى الهيـام لـه فاعجب لمن بات عنه نازحاً دانى

ومن حنينه وغضباته الوطنية قوله :

يا غريبـاً فؤاده بين جنبيـــ ـه عليلٌ والروح فى لبنـانِ
أطلق الفكر رائداً فى هضـابٍ ورياضٍ مخضلَّـة وجنـانِ
جبل خصّـه الإلـه بمـاء كوثـرىّ ورونق فتَّـانِ
نقشت كلمة الجـلال على أط واده الشمّ كلمـة الرحمانِ

شاءه الله جنَّة فى بـــلاد اللـ ه بل شامة بخــد الزمـــانِ
وبنــوه ، ولا تسل عن بنيـــه بين خمر اللَّمى وخمر الدنـانِ
يحسبون القيـود تكتنف الأجيـ ـاد فيهم ، قلائـــد العقيـانِ
يقظةً ! فالممـــات أعذب ورداً من ورود الشقا وعيش الهـوانِ
لا تنــوا ، فالسماء تحتقـــر الوا نى وربُّ السما عـدوّ الوانى

ومن وطنياته أيضاً قوله :

ماذا جنى الشرق حتى كبَّلـــوه كما يكبِّل القيد كفّ المجـرم الجانى
يسومه الغرب ذلاً وهـــو محتضرٌ يلقّـــه كَفَنَا ذلٍّ وإذعـــانِ
ما ثـــار يوماً بحــد السيف ثائـــره ولا تعــدّى لعــــدوان بعدوانِ
أمسى التعصب فى أنحائـــــه ملكاً والجهل أصبح فيه ربَّـــه الثانى
تبًّا لقـــوم أساءوا فهم ربّهـــم فحاولـــوا دكّ أديـــان بأديانِ

وهكذا نرى مسعوداً فى حنينه يناجي وطنه نجوى العاشق المعمود ، ويبثُّه وجد الغربة وألم الروح ؛ وفى وطنياته ، يتحسّر على ذله ، ويستنهض همم أبنائه . وقصائد الحنين والوطنية عنده – كما هى عند غيره – تترك فى نفس القارئ أثراً عميقاً ، لأنها تعبّر عن ألم عميق وشعور صحيح ، ولهذا كانت شاعريته فيها أصدق وأبرع وأكثر انسجاماً وبساطة منها فى بقية قصائد الديوان .

١٢ – أسعد رستم

هذا لون مرح من ألوان الأدب المهجرى ، وصاحبه هو أسعد رستم (١) ، الذى اشتهر بمداعباته وفكاهاته المنظومة ، وقد جمع كثيراً منها فى ديوانه الضخم ذى الصفحات الثلثمائة والتسعين الذى دعاه « ديوان رستم » .

ونحن إنما ندعو هذا النوع من الكلام المنظوم شعراً تجوّزاً فقط ، لأن

(١) اعتمدنا فى هذا المقال على الجزء الأول من ديوان رستم ، وعلى قصائد متفرقة فى (أعداد مجلة سركيس) عام ١٩٠٨ فقط .

هذا اصطلاح درجت عليه الأقلام التى تدعو كل قول منظوم شعراً . والأمانة الأدبية تقتضينا – ما دمنا قد أشرعنا القلم لدراسة الأدب المهجرى بتوسع كثير – أن نتعرض لكل لون من ألوان هذا الأدب المهجرى . وصاحب هذا الشعر كان يعيش فى المهجر الأميركى الشمالى الذى هاجر إليه عام ١٨٩٢ ، وظل زمناً طويلاً ينظم هذا النوع من الشعر ، وينشره فى صحف المهجر ، وفى صحف الوطن فى بعض الأحيان .

والشعر الجيّد لابدّ له – فى رأينا – من أن تتوافر فيه أربع صفات : الأولى أن يوحيه طبع موهوب ، والثانية أن يعبر عن حاجات النفس والحياة بصدق ، والثالثة أن يكون صالحاً لتغذية العقل والقلب والروح ، والرابعة أن يتميز بالجمال والموسيقى والبساطة والانسجام .

وهذه الصفات لا أثر لها فى شعر أسعد رستم ؛ فالذى يطالعه يرى أن الرجل لم يكن يهمّه قطّ أن ينظم شعراً فنيًّا خالصاً للأدب والفن ، وإنما كان يهمه قبل كل شىء « النكتة » . ونكتته دائماً من طراز « النكتة السافرة » ، أو النكتة البلدية . ولأجل هذه النكتة لا يبالى أسعد رستم بتضحية النغم الشعرى ، وجمال الأسلوب واللغة . ونستطيع أن نقول إن تعابيره المنظومة إنما هى تعابير نثرية ، غالباً ما تكون سقيمة حتى فى نثرها ؛ فهو كثير اللجوء إلى الجوازات الشعرية التى لا يتعكز عليها سوى النظّامين .

والذى يطالع شعره يستغرب إذ يرى أن سنة التطور والتحرر التى درجت على إخوانه المهاجرين لم تطرأ عليه ، بل جعلته يعيش فى الدنيا الجديدة بمثل العقلية المقلدة التى كانت تعيش فى الدنيا القديمة ؛ فقد كثر فى شعره المدح والرثاء والهجاء والتواريخ الشعرية ، وهذا كله من أنواع الشعر « السفلى » – إن جاز هذا التعبير – لأنه إنما ينظم لمناسبات معينة ، ويكثر فيه التملق والمبالغة والبهلوانية ، وأيضاً بيع الضمير والكرامة . وقد كان رستم ينظم أكثر شعره بحسب طلبات الزبائن لا بحسب حاجات النفس والحياة ؛ والدليل على ذلك أنه يكثر فى قصائده من شعر الدعاية والإعلانات عن بعض الصحف أو الكتب أو السجائر أو غيرها ؛

حتى الكلاب لم يتورع عن أن ينظم فيها تقريظاً ؛ فقد قال فى كلبة لرجل أرمنى اسمه بدران :

عند الصديق رأيت يوماً كلبــــة   حسناء فى أحضانهــــا جَــروانِ
قل الصديق : إذا قدرت فصفهما   شعراً ، فقلت له : هما « بدران » !

والمفظة الأخيرة « بدران » المقصود بها التورية ، لأن اسم صاحب الكلبة هو « بدران » !

غير أنّ الظرف والدعابة هما عماد شعر رستم ؛ وهو لذلك خفيف الظلّ ، مُسَلٍّ بدعاباته وقفشاته . ومن ذلك مداعبته لشكرى الخورى صاحب جريدة « أبو الهول » التى كانت تصدر فى البرازيل ، فقد جمع فيها بين رثاء الشيخ إبراهيم اليازجى ، ومداعبة شكرى الخورى ، وقد أوردنا أبياتها فى فصل سابق .

ومن مداعباته الهجائية قوله فى ثقيل :

سألت الإلـــــه تعالى : أربّــــى   أراك حزين الفــؤاد ، لمــــاذا ؟
أجاب مشيراً إلى ابن فــــلان :   « لأنى خلقت على الأرض هذا » !

وقوله أيضاً فى دنىء :

أرانى بالتقمّص ذا اعتقـــــاد   أصدّق ما به من كل قلــبى
وأعلم عـــــن يقين أن هـــــذا   قد انتقلت إليــه روح كلبٍ !

وقد بلغ من براعة رستم فى هذه الصناعة المرحة أن كان يتلاعب بالنظم كما يشاء ؛ وطبعاً لا تهمه ركاكة العبارة ، فهو – كما أسلفنا – لا يقول شعراً ، وإنما يلقى مداعبات ونوادر تزخر بالمرح والفكاهة مهما يكن نوعها . ومن ذلك استعماله القوافى الإنكليزية فى شعره ؛ كما رأينا فى فصل « طرائف ومطارحات » من هذا الكتاب .

إن أغلب قصائد ديوان رستم هى من الطراز الفكه ؛ حتى إهداء الديوان كان نكتة ، فقد جعله كما يلى : « فكرت فى الرجل الجدير بأن أهدى إليه ثمرة اجتهادى ، وبالجيد الخليق بهذا العقد الثمين لدىّ ، فلم أرَ أحقّ به من رجل الفضل ، من الشاعر المجيد ، من صاحب الأيادى البيضاء ، الذى تفضل ، حفظه الله ، بطبع « ديوان رستم » على نفقته ، ألا وهو صاحب الرسم الكريم الذى تراه على الصفحة التالية » .

ويقلب القارئ الصفحة ليرى الرسم الذى يشير إليه ، فإذا هو رسم أسعد رستم نفسه !

ولابد لنا من أن نذكر أن أسعد رستم هو طراز وحده فى هذه الناحية المرحة التى وقف عليها خياله وبراعته وصناعته وقد كان لشعره شهرة واسعة ، فكانت الصحف تتناقله وتعلق عليه ، والقراء يتلقفونه ويتندرون به . وقد تجد له فى العدد الواحد من المجلة بضع قصائد معاً .

غير أن هذا النوع من القريض ، وإن كان فيه تسلية وتفكهة للمجالس ، لا يدخل فى عداد الأدب الخالد الذى يغذى العقول والقلوب والأرواح ، والذى تبقى له كل خصائصه الفنية والإنسانية العالية التى تعبر عن حاجات النفوس ، وحاجات الحياة ، فى كل زمان ومكان ، وفى كل لسان .

١٣ – جورج صيدح

(من الرابطة الأدبية فى الأرجنتين)

« وليد دمشق عام ١٨٩٣ – خريج كلية عينطورا عام ١٩١١ – نزيل مصر إلى عام ١٩٢٥ ، وأسير الفنزويلا منذ عام ١٩٢٧ » .

كذلك يؤرخ الشاعر الدمشقى المهجرى جورج صيدح حياته فى سطرين جعلهما تحت رسمه فى آخر ديوانه « النوافل » الذى صدر سنة ١٩٤٧ ، وَوُضع تحت تصرف لجان الدفاع عن فلسطين .

ونحن نزيد هذا التاريخ المختصر شرحاً ، ليقف القارئ العربى فى الشرق على حياة هذا الأديب اللامع .

فى عاصمة بنى أمية ، وعلى ضفاف بردى ، رأى جورج صيدح النور ؛ فشب وفى قلبه حب عميق للنهر الذى تترنم دمشق بموسيقاه ، وللبلد الذى شهد عهد بنى أمية وأمجاد العروبة الخالدة فيه . ثم انتقل إلى عينطورا فى لبنان ليتلقى دروسه فى كلية الآباء اللعازريين فيها ، وقد تخرج منها عام ١٩١١ . ومن

المدرسة انصرف رأسا إلى التجارة ، فالتحق لذلك ببعض أقاربه فى القاهرة عام ١٩١٢ ، وظل هناك حتى عام ١٩٢٥ . وفى هذه الفترة كان ينظم الشعر فى الحنين إلى دمشق وبردى ، فيعبر عن حب صادق عميق لهما .

ثم غادر القاهرة إلى أوربا ، حيث اقترن عام ١٩٢٧ بفتاة فرنسية فى باريس . ومارس الأدب بالفرنسية التى كان قد تلقاها على مقاعد المدرسة فى عينطورا ، ثم مضى قاصداً إلى أميركا فى العام نفسه ، واتخذ من جمهورية فنزويلا مقرًّا لنشاطه العملى فى حقل التجارة . وإلى جانب ذلك لم ينس أن يستجيب إلى نزعته العربية والأدبية معاً ، فأنشأ مجلة « الأرزة » لخدمة الجالية العربية هناك ، ولم تكن الجالية تتجاوز الألف من الناس ، وقلّ أن كانت تصل إليهم جريدة أو شىء مطبوع بالعربية . وكان يوزع مجلته هذه مجاناً .

وفى عام ١٩٤٧ انتقل إلى الأرجنتين حيث أنشأ « الرابطة الأدبية » ومضى يوالى نشاطه التجارى والأدبى معاً . وقد برز اسمه منذ ذلك الحين بروزاً كبيراً ، فأخذت صحف الوطن والمهجر تتناقل قصائده الدالة على براعة شعرية كثيرة ، وروح قومية وإنسانية عالية . ثم عاد إلى الوطن ، وأقام فى بيروت منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٩ ، ثم عاد فنزح إلى باريس ، وما يزال هناك إلى اليوم .

إن الجو العائلى ، والبيئة الغربية التى كان يعيش فيها الشاعر فى المهجر كانا كافيين وحدهما لإبعاده عن لغة قومه ، فقد كانت لغة التخاطب فى بيته هى الفرنسية وفى الخارج الإسبانية ؛ وهو ينظم الشعر فى كلتيهما فيوفق فيه ، ويجد القراء المعجبين به . ولكنه برغم ذلك كله ظلّ متعلقاً بوطنيته ، مخلصاً لعروبته ، محبًّا للغته ، وقد مضت عليه مدة طويلة فى فنزويلا وهو لا يكاد ينظم الشعر العربى إلا سرًّا ، فلما انتقل إلى الأرجنتين شرع يعنى بالنظم والنثر ، فأنتج هناك ما يؤلف ديواناً ضخماً ، ولكنه لم يتسن له طبعه لعدم وجود منضدين عرب هناك – كما ذكر لى فى رسالة تاريخها ٢١ / ٧ / ١٩٤٩ – إلى أن طبع ديوانه الثانى – فى باريس – بعد عودته من المهجر ، عام ١٩٥٣ ، ودعاه « نبضات » .

هذا شىء عن جورج صيدح الرجل فى حياته الخاصة . أما صيدح الشاعر

والأديب الكبير فإننا نجده فى ديوانه « النوافل » الذى أصدره للناس عام ١٩٤٧ ، وديوانه « نبضات » الذى طبعه فى باريس عام ١٩٥٣ – وكتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » الذى أعيد طبعه ثلاث مرات خلال الأعوام ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٦٥. وسننظر فى ما يلى فى كل من هذه الكتب على حدة .

(ا) ديوان « النوافل »

إن الذى يقرأ ديوان « النوافل » لابد له من الوقوف فى أول مرحلة من الطريق عند ثلاثة أمور : الأول الرسم الرمزى الذى يتربع على الغلاف الخارجى للكتاب ، وهو رسم يد فوق كتاب مفتوح تحمل قلباً آدمياً . وهذا القلب الآدمى هو قلب الشاعر يحمله على راحته ليقدمه إلى قراء شعره بأجلى بيان وأروع صورة فى أبيات قصائده .

والأمر الثانى هو الغاية التى طبع لأجلها الديوان ، وهى ليست تجارية ، ولا هى مجرد الرغبة فى أن يرى الشاعر لنفسه ديواناً مطبوعاً ، وإنما هى غاية إنسانية نبيلة : أُمها عمل الخير ، وأبوها بذل المعونة للمحتاجين ؛ فقد جعل الشاعر ديوانه تحت تصرف لجان الدفاع عن فلسطين .

وأما الأمر الثالث الذى يقف عنده القارئ فهو القصيدة الأولى من الديوان ، وهى بعنوان « السهل والجبل » فهى تعكس علينا من روح الشاعر الجميلة ألطف الشمائل وأجملها ، ملخصة فى قوله :

دونكم منجمى المبـــاح لمن يُعـ ــنى بتبر ولا يهـــين الرمـــادا
سِفْرُ عمرى – ولا أزيد بيانــاً – ليس غيًّا محضاً وليس رشادا

* * *

عندما بدأت صلتى بالشاعر عام ١٩٤٩ ، تلقيت منه الرسالة الأولى ، وفيها كثير من التواضع وكثير من الاعتذار عن أشياء وهمية ؛ فقد كان يحسب أن فى لغته ضعفاً يدفعه إلى الخجل ، وأنه فى حاجة إلى نقاد يرحمون هذا الضعف

ولا يقسون فى التشهير . ولست أدرى ما الذى أوحى إلى الشاعر بهذا الوهم ، إذ الواقع أن لغته وشاعريته تستحقان التقدير والإعجاب .

قد تنحرف فى شعره لفظة عن قواعد سيبويه وضوابط المعجم ، ولكن يشفع لها جمال الانسجام والموسيقى فى مكانها ، كما يشفع لها أنها لا تحتاج إلى ترجمان يفسرها .

والشعر – عدا كونه رسالة إنسانية سامية – هو إحساس وموسيقى وخيال جميل ، فلا يحتمل التنطع ولا القيود .

غير أن هناك ملاحظة لا بدّ منها ، وهى أن شاعرية جورج صيدح لا تتجلى على حقيقتها فى هذا الديوان وحده ، لأن له قصائد كثيرة لم تجمع فيه ، وقد تناقلت صحف المهجر والشرق العربى كثيراً منها ، وهى من الشعر المحلق ونجد بعضها فى ديوانه اللاحق « النبضات » ، ثم فى ديوانه الثالث « حكاية مغترب » المطبوع فى بيروت عام ١٩٦٠ ، والذى يحتوى على قصائد مما فى الديوانين السابقين ، وعدد من القصائد الأخرى . وكذلك فى (ديوان صيدح) بجزأيه المطبوعين أخيراً فى بيروت ، ويتضمنان شعره السابق وشيئاً مما بعده .

ينقسم ديوان « النوافل » من حيث عدد الفصول إلى أربعة فصول ، يحتوى كل منها على مجموعة من القصائد التى نظمها الشاعر فى فترة معينة : فالفصل الأول يشمل قصائد الباكورة الأولى فى الوطن ، والثانى يشمل أشياء من قصائد الهجرة الأولى إلى مصر ، والثالث بعض القصائد التى قالها الشاعر فى أسفاره فى أوربا وغيرها ، والرابع بعض قصائد المهجر الأميركى .

غير أن هذه القصائد إذا أردنا تقسيمها من حيث المواضيع ، ينحصر أهمها فى الوطنية والحنين ، والوصف ، وشعر المناسبات . والذى يهمنا منها على الأكثر هو الشعر الذى يمس أشياء من نفوسنا وحياتنا . ولذلك ننظر من شعر ديوان « النوافل » فى نوعين من الشعر هما : ١ – الحنين والوطنية ، ٢ – الوصف وشعر النفس .

والحنين والوطنية فى ديوان « النوافل » قد فازا بأكبر حصة وأروعها ، وقصائدهما تدل على عاطفة أصيلة صادقة ، وعلى روح مخلصة فى الحب والوفاء .

وهو يعاودهما كثيراً ، وتتجلى فى معاودتهما اللهفة الحارة والحب الأكيد .فها هو ذا الشاعر فى مصر ، ولا يزال عهده بالشام قريباً جدًّا ، ولكنه يتذكر عاصمة بنى أمية بشوق لهيف حار ، فيقول :

إذا البلبلُ الغرّيد فارَقَ رَوْضــه فكلّ رياض الكون فى عينه قفرُ
وداعاً دمشق الشام لم ترحم النَّوى دموعى ، ولم يشفع بى السُّهدوالزَّفْرُ
وإنى لطير من طيورك لم تــزل تجاذبنى تلك الحدائق والنهرُ

وفى الباخرة التى كانت تمخر عباب البحار فى طريقه إلى أميركا عام ١٩٢٧ يتذكر الشام ، فيعاوده الحنين اللهيف ، فتجود قريحته بقصيدة نونية رائعة يقول فيها مخاطباً البحر الهائج :

للشام أرواحنا يا بحر ، ما طمعت أمواجك الهوج إلا فى بواقينا
ها نحن فالتقف الأجسام هامدة وانثر عليها نديف الموج نسرينا
وخلّ أرواحنا تطفو مولية شطر الديار ، تحيِّى من يحيينا

وأى حنين ووطنية أرق وأعمق من قوله :

عهد الشباب وعهد الشام إن مضيا فكل ما أعطت الأيام حرمانُ

ومن قوله أيضاً فى لقصيدة نفسها – وعنوانها « دمشق الشام » :

لم أجفُ قومى ولا استنقصت قدرهمو إنى فخور بقومى كيفما كانوا
ولى وديعــة حبّ عنــد ذمتهم وذكريات وأفــراح وأحــزانُ
بنو الخؤولة والأعمام ، ذنبهمــو إن صح ، صح له فى القلب غفرانُ
أهوى هواهم وأغضى عن مساوئهم والناظرون بعين الحب عميــانُ
دمشق ، إن أشجت الأوطان مغترباً إنى لأوجع مَن أشجته أوطانُ
والله لولا فروض العيش ما بقيت بينى وبينك أبحــار وبلدانُ

أما قصيدته التى بعنوان « بردى » والتى يقول فيها مخاطباً نهر « بردى » :

ملأت منك يدى بعد امتلاء فمى ولو قدرت ملأت الصدر والكبدا
حتى أقول لدهر سامنى ظمــأ فى غربتى ، «لن ترانى ظامئاً أبدا»

فإنها قطعة من أجمل شعر الحنين والوطنية ، ومن أرقه وأعمقه عاطفة . وفيها يذكر الشاعر أنه حلم ذات مرة أنه قريب من نهر بردى « يبلّ به قلبه كما يبل الندى

الهشيم » وأمامه تنبسط دمشق الجميلة التى يعرفها بقبابها المرتفعة ، وشاطئ برداها الجميلين ، وبالطيب المنبعث من واديها الذى تغذى من دماء شهداء الوطنية . ورأى نفسه على الضفاف الخضر مؤتنساً بأشجار الحور والصفصاف ، يهبط المنحنى ، ويستمع إلى خرير مياه النهر ، فيناجيه نجوى العاشق الملتاع ، ويتحدث إليه أحاديث الأيام والليالى الغابرة وما تركت فى التاريخ من ذكرى مرنة . . .

حلم جميل رائع ، تمر صوره وذكرياته أمام مخيلة شاعر مغترب يتغذى خياله على ذكريات الوطن التى تعيش فى قلبه وفى ذاكرته . ولكن ما يكاد النهار ينبلج حتى تتلاشى دمشق ونهرها الجميل من أمام الشاعر ، وتتلاشى الأطياف والرؤى ، والأشجار والضفاف الخضر ، والقباب والمرجة ، فإذا الشاعر غريب بين آدميين غرباء ، وإذا كل ما حوله جفاف وهمّ ، فيهتف قائلاً :

ما لى احتملت سنين البين مصطبراً ... واليوم لا صبر لى فيها ولا جلدا
ضممت طيف الأمانى حين زار فلم ... يترك على الصدر إلا الهم والكمدا
إن أفلت الطير من أسر فعودته ... أقسى عليه من الأسر الذى عهدا
بئس الحياة حياة لا نعيم بها ... إلا لمستَرِقٍ من نومه الرغدا

* * *

هذه نتف من شعر الحنين والوطنية فى ديوان « النوافل » ننتقل منها إلى الناحية الثانية من شعره ، وهى الوصف وشعر النفس . وقد جمعنا بينهما لأننا نجد بينهما رابطة قوية ، فوصف الشاعر لأحاسيسه وعواطفه وأخلاقه كثير فى قصائد هذا الديوان . فى قصيدته « المسيح قام » نراه يصف نفسه وما لقيه فى غربته الأولى فى مصر . وفى هذا الوصف يعبر عن عزة نفسه ، وسمو أخلاقه ، فيقول :

ثارت رياح القدر الجائره ... تفتك فى أوراقه الناضره
من هو ؟ نبت من نبات العلا ... تُسلِمُه الفيحاء للقاهره
جفّ وفيضُ النيل من حوله ... والجوّ زاهٍ والربى زاهره
حاشاه يستندى أكف الورى ... إن قاطعته السحب الماطره
نما صليبَ العود لا ينحنى ... للريح ، فالريح له كاسره

وعزة النفس هذه يصفها الشاعر فى قصائد أخرى كثيرة ، فيقول فى قصيدة « وطنى » :

شاعر يرجَى ولا يرجو ، وفى مسجد الأصنام يوماً ما سجدْ
تتحداه البغاث استنسرت كلما زاد أناة وجلدْ
عاف وِردَ الماء فيه ولغت حشرات القوم فاستسقى البردْ
وتمنى الموت حتى لا يرى غارة الهر على ذيل الأسدْ

أما أوصافه الشعرية الأخرى فلعل من أروعها قوله فى وصف ناطحات السحاب فى نيويورك ؛ وهو وصف لا نعرف أحداً سبقه إليه أو أجاد فيه مثل إجادته :

كُوًى تُطِلّ على الأفلاك أعيُنُها وأذنها تستقى أخبار باريها
أنوارها تكشف الآفاق معلنة عن سلعة ربما الأفلاك تشريها

أما قصائد الشاعر فى وصف مجالس الشراب والحب ففيها كثير من السحر والرقة . ومن ذلك قصيدته « الكوكتيل على الشاطئ » التى يقول فيها :

خطر الساقى فقلنا هاتها نحن نرضاها على علاّتها
ربّ كأس زاد فى لذّاتها أثر الأفواه فى حافاتها – هاتها
طف ولا تمسح عن الكأس الخضاب طبعته شفة الخود الكعاب
إن مزززناه سكرنا بالرضاب قبل أن نسكر من مزّاتها–هاتها

هذه نماذج قليلة جداً من شعر جورج صيدح فى « النوافل » أوردناها لنؤكد للشاعر أن لشعره رنيناً عذباً فى النفس ، وصدًى حبيباً فى القلب ، لأنه شعر صادق غير متكلف .

(ب) نبضات

هذا الديوان الثانى الذى يقدمه جورج صيدح – وقد قام بنشره الفنان العراقى جميل حمودى ، صاحب دار « الفكر الحديث » فى بغداد ، ليس ديواناً شعرياً فحسب ، ولكنه مجموعة من زفرات الألم القومى ، والإيمان العربى ، ومن خطرات الروح الصافية الجميلة التى تعيش فى جسم الشاعر المهجرى ، الذى عاد مدّة إلى

الوطن العربى ثم عاوده شوق الغربة فاغترب من جديد ، وعلى حب أهله ، والحنين إليه وإليهم ، والتأسى لآلامه وآلامهم .

كيف يرتاح وتذكار الحِمَى ... كلما أقعده الجهد أقامَه
كم هَذَى مستصرخاً لبنانه ... وكم استعدى على البيْن شآمه
وتأسى بالليالى سترت ... دمعه الجارى على خدّ الكرامه
ويزيح المجد عن ناظره ... ليرى أشباح نجد وتهامه
كل نصر حازه دبّجه ... بسمات عربيات الوسامه
لو تسلى بالدنى عن قومه ... لم تعكّر جوّ دنياه غمامه

لقد صوّر صيدح حنينه وشعوره الوطنى فى هذه الأبيات التى نظمها لتصوير مشاعر « المهاجر » فى استهلال ديوانه الجديد . والأدب أصدق ما يكون إذا جاء تعبيراً عن تجربة ذاتية وإحساس واقعى . وقارئ هذا الديوان يلمس بوضوح أنه مجموعة من الأحاسيس والاختبارات الواقعية ، ولهذا جاءت قصائده عميقة شديدة الحرارة ؛ كقصيدته فى ابنته ، مصباح حياته ، ساعة إجراء عملية جراحية لها ؛ وهى من أروع الشعر العاطفى وأصفاه وأرقه ومطلعها :

رفقاً بها يا مبضع الجَرّاح ... شرّحتَ قلب الوالد الملتاح

وقد رأينا أبياتاً منها فى بعض الفصول السابقة .

هذه فى المشاعر الذاتية غير الوطنية ، وهى تحفة رائعة ، لا تفقد شيئاً من جمالها وروعتها لو ترجمت إلى أية لغة أخرى . أما فى المشاعر الوطنية فالقسم الأكبر من قصائد الديوان الباقية ، وهى كثيرة العدد . كما أن إهداء الديوان نفسه كان عاطفة قومية جميلة :

« إلى كل عربىّ اللسان والوجدان » وهو إهداء يدل على روح الديوان العامة ، بل على روح الشاعر إجمالا ؛ وهو القائل مخاطباً عاصمة الأرجنتين :

لا تسألى : من أين جاء ؟ فحسبه ... نسب العروبة أشرف الأنساب

وأيضاً :

لكننى راض لنفسى بالظما ... وإذا ارتوى قومى فلست الظامى

وكذلك :

كفرت بربى لوَ انى شككت بنهضة قومى من العــثرةِ

أو :

ما كنت أدرى أنّ قلبى عندكم فى صدرا كل موحَّد بالضادِ

وصيدح عربى حر : كل قطر عربى وطنه ؛ فهو من مهجره البعيد يحن إلى مصر ، ولبنان ، وفلسطين ، والحجاز ، كما يحن إلى مسقط رأسه دمشق ، ويتألم لمصائب جميع أقطار العروبة على السواء . ولقد جعل نحواً من نصف قصائد الديوان على فلسطين ومأساتها الكبرى ، فسالت لذلك قصائده فيها دماً حارًّا فائراً . ومن ذلك قوله :

ربّ ذكرى تطلّ من كأس خمر كعيون العفاة ، شَكْرَى نديَّه
مــا عرفنا فيها فلسطين لو لم يشهد الطعم أنهــا دمــويَّه

على أن مما يؤسف له أن صيدح – مثل القروى وفرحات ومن بقى من شيوخ المهجر – لم يعد يستطيع أن يقدم معنى جديداً ، ولا شعراً نابضاً بمثل الحيوية القديمة ، ولا سيما فى وطنياته التى أصبحت تغلب عليها الخطابية والعنترية ، وكذلك النثرية والركاكة ؛ كما نرى فى مجموعته (شظايا حزيران) التى ظهرت عام ١٩٦٩ ، وفى قصائده من النثر الركيك ، ومن العنتريات الخطابية شىء كثير . مما يدلّ على أن عهد الشعر الجيّد عند صيدح قد ذبل وانتهى أمره .

(ح) أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية

هذا الكتاب وضعه صيدح بعد عودته إلى الوطن ، وإقامته فى لبنان إلى جانب ابنته التى اقترنت بالصحفى اللبنانى حنا غصن ، صاحب جريدة « الديار » . ولقد طبع كتاب صيدح هذا أول مرة عام ١٩٥٦ على نفقة معهد الدراسات العربية العالية ، فى مصر ؛ وأعيد طبعه للمرة الثانية فى بيروت عام ١٩٥٧ على نفقة صاحبه طباعة أنيقة فخمة ، وأعيد طبعه للمرة الثالثة عام ١٩٦٥ ، وقد جاء من أوفى المراجع عن الأدب المهجرى فى الأميركتين .

كان هذا الكتاب فى الأصل محاضرات ألقاها صيدح فى معهد الدراسات العربية العالية بدعوة من عميد المعهد ، حينذاك ، الأستاذ ساطع الحصرى ، ثم أضاف إليها أشياء تفيد فى استيفاء البحث فى أدب المهجر .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة لأن مؤلفه أديب مهجرى عاش حياة المهجريين ، وناضل فيها بعصامية مدهشة ينطبق عليها قوله فى قصيدة له بعنوان « المهاجر » من ديوانه « نبضات » :

ركب الأخطـارَ فاستسهَلها مركباً ، واجترف الموتَ أمامَهْ
من جَهام السَّحب يستسقى الحيا عاصراً بالكف أثداء الجهامـة
مـن رآه فى المفـازات رأى أسداً يستنْجز الغابَ طعامه
ولـه أجنحـة النَّسر إذا نفَر الرزق ، وأطراف النعامه

وعدا ذلك كانت له صلات من الودّ والألفة مع الكثيرين من أدباء المهاجر الشمالية والجنوبية ، فهو يعرفهم معرفة زمالة ورفقة ، ويعرف حياتهم وبواعث شعرهم وأدبهم ، وهو لذلك خير من يقول فيهم كلمة الإنصاف المجردة ، وخير من يقدم فيهم الدراسات الوافية الشاملة . ولذلك كانت لكتابه هذا قيمته الكبيرة وأهميته المرجعيّة .

وأدب المهجر هو أدب فترة من أنصع ما مرّ من عصور الأدب العربى وأزهاها ، وأدب فئة من المجاهدين الأوفياء الذين نذروا أقلامهم ومواهبهم لخدمة الأدب العربى وتجديده والسمو به إلى أرقى ما يمكن الوصول إليه ، ولخدمة أمتهم العربية وبلادهم بكل ما يستطيعون من وسائل الجهاد بالأقلام والصحف والمال . وهو لذلك أدب جدير بالدراسة المستفيضة لجوانبه المتعددة ومزاياه الأدبية الجديدة المبدعة . وليس كثيراً عليه ما صدر فيه من الكتب حتى اليوم ، قبل أن يندثر ويصبح شيئاً للتاريخ وحده ، لأن فترته قصيرة ، وإن تكن غنية بالحصاد الدسم والجنى الوفير .

ولقد جمع كتاب صيدح بين الأدب والتاريخ والنقد والتحليل معاً ، كما جمع « قصة الهجرة بما فيها من عناصر المأساة والبطولة والصراع الإنسانى والإثارات الوجدانية » كما قال فيه حسين مروه . وإذا كانت الكتب الأخرى التى وضعت

لدراسة الأدب المهجرى قد درس فيها أصحابها عدداً من مشاهير الأدباء المهجريين وحدهم ، كجبران ونعيمه ، وأبى ماضى ، والقروى ، والريحانى ، وفوزى وشفيق المعلوف وقليلين آخرين ، فقد جمع صيدح فى كتابه هذا أكبر عدد من الشعراء وحملة الأقلام فى المهاجر الأميركية ، وقدّمهم إلى القراء ، معرفاً بهم وبشعرهم على تفاوت فى التعريف والتمثيل ، بمقدار ما وصل إلى علمه ومعرفته بهم وبأدبهم . وهذه ميزة كبيرة يتميز بها هذا الكتاب على جميع الكتب الأخرى ، لأنه جاء جامعاً شاملا .

فى هذا الكتاب تسعة عشر فصلا ، وتقع طبعته الثانية فى ستمائة وست عشرة صفحة من القطع الكبير . وقد خصص منه المؤلف أحد عشر فصلا للدراسات العامة تناول فيها : هجرة الأدباء ومراحلها وبواعثها – وأدب المهاجرين – وخصائص الأدب المهجرى – ورسالته الإنسانية والقومية والاجتماعية واللغوية والعربية المحلية – وتأثر المهجريين وتأثيرهم – وسرّ التفوق فى أدب المهاجرين – ومناحى الأدب المهجرى – وأدب المناسبات – وأدب الحفلات – وأدب المباسطات – ومآخذ النقاد على الأدب المهجرى .

أما الفصول الباقية فقد خصص كلاً منها لأدباء بلد من بلدان الأميركتين : فواحد لأدباء الولايات المتحدة – وقد تحدث فيه على ثلاثة وعشرين أديباً وشاعراً ؛ وواحد عن أدباء البرازيل – وتحدث فيه على خمسة وسبعين أديباً ؛ وواحد على أدباء المكسيك ، لم يذكر فيه سوى أديب واحد ، وفصل على أدباء الأرجنتين – وقد عدّد منهم أربعة عشر أديباً ؛ وفصل على أدباء فنزويلا ؛ وآخر لأدباء الإكوادور ؛ وفصل لأدباء الشيلى ؛ والفصل الأخير لأدباء متفرقين فى بقية جمهوريات أميركا الجنوبية وأميركا الوسطى .إلا أن الحديث على الجمهوريات الأميركية الجنوبية عدا البرازيل والأرجنتين – جاء مقتضباً جدًّا وخاطفاً لأن مادة الحديث فيه قليلة ، فلم ينل أدباء هذه الجمهوريات العرب حظًّا كبيراً من الشهرة ، ولم يجدوا مجالا كافياً لإبراز مواهبهم وثمرات أقلامهم ، ولذلك لم يستطع المؤلف أكثر من الإشارة إلى من عرفه منهم سماعاً أو عن طريق بعض الصحف ؛ وهى إشارات لا تكفى للتعريف وكان من الخير عدم إيرادها لولا أن المؤلف أراد أن يفتح

الباب أمام الآخرين للبحث ، وأن يكون أميناً للتاريخ بقدر ما يصل إليه جهده .

وفى الدراسات المطولة التى كتبها صيدح على الأدباء والشعراء البارزين لم يكتف بالرواية وسرد الأعمال الأدبية والوقائع التاريخية ، وإنما كان يدرسهم ناقداً محللا ، متجرداً للأدب والحقيقة . ولذلك كان كتابه دليلا على رحابة الفكر ، ونضجه وعمقه ، كما أدى إلى الأدب المهجرى أعظم خدمة وأجلها ، إذ قدمه على حقيقته إلى القراء الذين لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشىء القليل ، أو لا يعرفون من أصحابه سوى نفر قليل .

١٤ – فوزى المعلوف

« فى وسط ما يصم الآذان من جعجعة هذا الهذيان الأدبى الجديد ، وما حوى من مساخر كمساخر المرافع ، وتوافه كتوافه الصور المشبحة ، يتصاعد من الشرق صوت رخيم هادئ يُسكت إلى لحظة تلك الحناجر الثرثارة المعربدة ، حاملا إلينا بألحانه الشعرية بلاغاً من عالم الشمس ، نفضت عليه الشمس شعاعاً هو صوت يتراءى لنا جديداً لفرط إغراقه فى القدم ؛ صوت متوحد متعدد ، متصاب روحانى مشع منعكس ، تتلاءم فيه المتناقضات بأعجوبة خارقة ، ورشاقة شعرية رائعة ، وتلاحم إلهى بليغ » .

بهذه النبذة اللطيفة يستهل شاعر الإسبان « فرنسيسكوفيلاسباسا » مقدمته الطويلة المبدعة لمطولة شاعرنا الخالد فوزى المعلوف : « على بساط الريح » .

وفيلاسباسا هذا أراد أن يقدم إلى قومه تحفة أدبية غالية ، فلم يجد خيراً من مطولة فوزى هذه يترجمها إلى لغتهم ، ويزفها إليهم فى حلة قشيبة ممتازة ، مباهيًا معتزًّا بهذه الهدية النفيسة :

فمن هو فوزى المعلوف هذا ؟ وما هى مطولته ؟

« فوق حضن الربيع فى مثل هذا الـ يوم ، بعد العشرين من أيَّـارِهْ
نفضت وردة على الأرض عنهـــا كمَّها ، والدّجى صريع احتضارِهْ »

هكذا يؤرخ لنا فوزى نفسه مولده فى مطولته الثانية « شعلة العذاب » التى عاجله الموت قبل أن يتمها . فقد ولد هذا الشاعر الخالد فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أيار عام ١٨٩٩ فى زحلة . وأبوه هو العلامة الغربى المرحوم الشيخ عيسى إسكندر المعلوف ، الذى قدم للغة الضاد وآدابها فى نفسه وفى أبنائه الشعراء اللامعين نخبة من أثمن الدرر التى يشرق بها تاجها الوضاء ؛ فلقد رفعوا لواء العروبة والأدب العربى خفاقاً فى الوطن وفى المهاجر الأميركية .

ولد شاعرنا فوزى فى ميعة الربيع من فصول السنة ، ومات فى ميعة الربيع من عمره وهو ما يزال يتنسم عبير الثلاثين من حياته الغنية بالأدب والشعر ، الحافلة بالنبل والجاه ، المملوءة بجلائل الأعمال فى سبيل إعلاء شأن الأدب العربى والأمة العربية . وقد تلقى فوزى دروسه الأولى فى المدرسة الشرقية فى زحلة ثم فى مدرسة الفرير الكبرى فى بيروت . وفى أثناء ذلك أتقن العربية والفرنسية – وقد أضاف إليهما البرتغالية والإسبانية بعد هجرته إلى البرازيل .

بدأ فوزى يعالج نظم الشعر العربى وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فيوفق فى بعضه ويخفق فى البعض الآخر . ولكن ذلك كان على كل حال يبشر بشاعرية خلاقة مبدعة كانت ستتمخض عنها الأيام . وكذلك كان يعالج النثر تأليفا وترجمة ، ولكن لم يطبع شيء من نثره فى حياته ، كما أن أكثره لم تكمل مادته . وكان له من أبيه العلامة خير مرشد ومعين ؛ فلا غرو أن رأينا نبوغه يتفتح باكراً ويعطى جناه قبل الأوان .

وفى أيلول عام ١٩٢١ هاجر فوزى إلى سان باولو فى البرازيل ، حيث انصرف إلى الصناعة والتجارة ، مما در عليه الغنى العاجل ؛ ولكن ذلك لم يصرفه عن الشعر والأدب . فظل يشبع ميله إليهما بنظم القصائد الرائعة التى نالت أوسع شهرة بين العرب والإفرنج . ثم أنشأ المنتدى الزحلى فى سان باولو عام ١٩٢٢ ، ومضى يغذيه بنتاجه الأدبى الرائع خطابة وتمثيلا . ومن رواياته التى مثلت هناك : « ابن حامد ، أو سقوط غرناطة » ، وقد نشرت بعد ذلك فى منشورات مجلة « العصبة » ، ثم أعيد طبعها فى لبنان أكثر من مرّة .

ولا بدلنا من الإشارة إلى عناوين بعض كتبه النثرية ، فقد ألف رواية

« ابن حامد » المتقدم ذكرها ، و « الحمامة فى القفص » التى بدأها وهو فى سن السادسة عشرة ، و « صفحات غرام » و « على ضفاف الكوثر » . ولكن لم يتم من هذه المؤلفات كلها سوى رواية « ابن حامد » .

وأخيراً فوجئ فوزى بمرض اضطره إلى دخول المستشفى حيث أجريت له عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية ؛ وتلا ذلك قرحة فى المعى الاثنى عشرى مثقوبة على مقربة من فم المعدة . وقد سبّبت القرحة تكوّن كمية كبيرة من الصديد أدّت إلى التهاب خطير فى « البريتون » (كما جاء فى رسالة من شقيقه شفيق معلوف إلى صاحب هذا الكتاب تاريخها ١٤ / ١ / ١٩٧٣). ولبث فى المستشفى ثمانية وأربعين يوماً ، ثم شاءت الأقدار القاسية أن ينشب الموت أظافره الشرسة فى ذلك الجسم النديان ، وينتزع منه جوهرة حياته الغالية فى يوم الثلاثاء السابع من شهر كانون الثانى (يناير) عام ١٩٣٠ ، برغم كلّ جهود الأطباء وعلاجاتهم .

أما أخلاقه فى معاملاته للناس فكانت دائماً مثالا للنبل ، فقد كان حب الخير رائده ، والابتسامة الرضية المشرقة لم تكن تفارق ثغره ، فكان محبوباً مكرماً حيثما وجد . ولا أدل على ذلك من قول الدكتور فيليب حتى عنه :

« قلّ من الشبان الذين تعرفت بهم فى السنين الأخيرة فى القارات الخمس من أثر فى نفسى أثراً مستحبًّا ، أشد من الأثر الذى تركه فىّ فوزى المعلوف . . فهو فى كل الحالات هو هو : رضى الأخلاق ، لطيف المعشر ، كبير النفس ، بعيد النظر ، على استعداد دائم للعطف على كل مشروع فيه خير للبلاد السورية التى أحبّها وأنشأته ؛ عطف عملى لا شفهى فقط . الفتوة العربية فى أحسن مظاهرها ، كان يمثلها فوزى المعلوف »[1] .

هذه الأخلاق السامية التى استحقت إعجاب الناس من عرب وفرنجة تجعل من فوزى مثالا للشاب العربى الذى يستطيع أن يرفع رأس العروبة عالياً ، وتفاخر به أمته وأوطانه ، إذا ما فاخر الناس بشبانهم . ولكن هذا الشاب الذى امتلك المال ، والجمال ، والشباب ، والجاه ، والعافية ، والشاعرية المبدعة ، واستحق الإجلال والإكرام فى كل مكان وطئته قدماه ، كان أبداً منطوياً على نفسه

---

(١) ذكرى فوزى المعلوف – ص ٥٩ و ٦٠ .

ينتزع من بين حناياها تأملات نقطر بالألم ، وتنضح بالتشاؤم . لقد كان متشائماً إلى أقصى حد مما طبع أكثر شعره بهذه الصبغة السوداء ؛ فهو ناقم على الحياة ، ناقم على المجتمع ، لا يرى فيهما بذرة من خير ، ولا مكاناً للسعادة . وهذا التشاؤم رافق حياة الشاعر كلها منذ الصبا ، ووسمها بميسمه . فقد ذكر شقيقه شفيق فى كتاب « الذكرى » أن فوزى قد كتب قبل هجرته إلى البرازيل على إحدى المفكرات ما يلى : « خلقت فى أيار فى حضن الربيع ، والأرض بما فيها زاهية باسمة ، وأنا فوقها منقبض النفس ، مقطب الجبين . وما أمر العبوسة فى محيط الابتسامات ! لذلك أتمنى أن يطرحنى الدهر عند موتى فى حضن الخريف ، بين اصفرار الأوراق ، وذبول الزهور ، وبكاء السماء . حينذاك قد أبسم عند عتبة الموت غير آسف لفراق حياة قطعتها فى خريف صامت ذاو ، وتركتها فى خريف صامت ذاو » .

وفى عام ١٩٢١ كتب تحت أحد رسومه :

« كلّ هذى الحياة وهمٌ ، وهذا الـ رسم وهمٌ ، وما أنا غـير وهم

« غير أن الرسوم تبقى طـويلا وأنا أمّحى بـروحى وجسمى[١]

وكتب تحت رسم آخر كان يبدو فيه عابساً :

« وقفت أجيل الطرف فيما يحيط بى فلم أر حـولى ما يبش له ثغرى

« فلا تعجبوا إن كنت فى الرسم عابساً فما الذنب ذنبى ، إنما الذنب للدهر[٢] »

وترافقه هذه النغمات السود إلى أن يطفح مرجله ، فينظم عصارة آلامه ، وخلاصة تشاؤمه فى مطولة تبدأ بالدمع وتنتهى بالدمع . تلك هى « شعلة العذاب » التى كانت آخر ما درج به قلمه ، و لم يمهله الموت حتى يمسح القلم منها ؛ فقد قضى وخلّف النشيد السابع منها مشنوق النغم على حنجرة الأبدية الخرساء بعد أن خط منه بيتين فقط ، ويبدأ فوزى هذه المطولة فى النشيد الأول بقوله تحت عنوان : « لغز الوجود » :

برعمَ الزّهر ! ما وُجدت لتبقَى بل ليمضى – بك الخريفْ

هذه حالنا : خُلقنـا لنشقَى ولتقضى – بنـا الحتـوفْ

---

(١) الذكرى – ص ٥١ .

(٢) الذكرى – ص ١١ .

وفى النشيد الثالث منها يقول تحت عنوان : « بين المهد واللحد » :

بسمةَ الأهل ! يوم نولد حُولى عـبراتٍ – على المهـودْ
دمعةَ الأهل ! يوم نُلحد سيلى بسماتٍ – عـلى اللحـودْ
ليت شعرى لمن بسمتم ؟ أللآ تى لى الكون مستهلا بعـبرَهْ ؟
وعلى من بكيتُم ؟ أعـلى الرا حل عنه ، وزاده منه حسرَهْ ؟
يولد الطفل للعذاب ، وهـذى سنَّة الدهر ، وُقِى ماالطفل شرّه
بين أوجاع أمـه دخـل المه د وبين الأوجـاع يدخل قبره
إن من جاء مهده مكرهاً ، يمضى إلى لحـده غـداً وهو مكره
وهو إن مات ليس يخسر إلا عيش بؤس ، فكيف يرهب خُسْرَه

وهكذا يمضى فوزى فى هذه المطولة حتى يختمها الموت على البيتين التاليين من النشيد السابع :

مـرحباً بالعـذاب يلتهم العيـ ن التهاماً ، وينهش القلب نهشا
مشبعاً نهمـة إلى الـدم حرّى ناقعاً غلَّةً إلى الدمع عطْشَى

وفى قصيدة أخرى من قصائده نسمعه يستعجل الموت ويتشوق إلى لقائه قائلا :

والآن يا مـوت إلىّ اقـترب يا حبـذا بالموثق المعتـقِ
معتق نفسى من قيـود الأسى مـوثق جسمى فى المدى الضيقِ
لم يبق لى فى الأرض من بغية ما الأرض إلا جنةُ الأحمق

فهو فى هذا التشاؤم الذى يبلغ نهاية مداه ، على نقيض تام من شاعر البهجة والحياة : إيليا أبى ماضى ، الذى يدعو دائماً فى شعره إلى التمتع بالحياة ، ويريد منا أن نبتسم حتى فى أحرج الأوقات ، وأن تكون حياتنا كلها أملا مشرقاً ، وينقم على من لا يرون فى الحياة إلا السواد . غير أن الحياة التى يلتقى فيها الحسن والقبح ، والشقاء والسعادة ، تلتقى فيها كذلك نفوس لا ترى إلا الحسن والسعادة ، ونفوس أخرى لا تستطيع أن ترى إلا القبح والشقاء ، سواء أشاءت أم أبت ، فليس لها فى ذلك خيار . وعبثاً تطلب إلى البلابل أن تسجع لنا بغير ألحانها التى وهبها إياها خالق الطبيعة والحياة لتعبّر عن إحساسها بالطبيعة والحياة .

ونحن نرى أن هذا التشاؤم المر العنيف عند فوزى المعلوف ، وهو فى ميعة العمر وفى عنفوان العافية والجمال والغنى ، إنما مصدره التأمل الطويل ، الذى لا إرادة للشاعر فيه ولا اختيار ، فى الموت ، وفى آلام الحياة . وكل منا لا بد أن تكون قد مرت به فترات مثل هذا التأمل القسرى ، ولكنه فى حياة فوزى كان متواصلا مستمراً ، مما أدى إلى صبغ شعره بهذه الصورة التى نراها .

أما الحب فإننا نرى فى شعر فوزى نفسه كثيراً من الأدلة الساطعة على أن هذا الشاب المرهف الشعور قد أصيب بصدمة عاطفية عنيفة نغّصت عليه صفو الحياة ، وحولت فكره إلى التشاؤم المر ، والنظرة السوداء إلى الحياة . ثم تمادت معه الغصة من أثر هذه الصدمة ، فصار يرى الحياة وكل ما فيها أشباحاً مجرمة مرعبة ، وصار يشتاق إلى الموت ليريحه من حياة الدموع والألم . فالنشيد الثامن من مطولته « على بساط الريح » كله شاهد على إخفاق مُرّ فى الحب . يقول الشاعر :

عشت بين المنى ، يراود نفسى خُلَّب من طيوفها وعقامُ
أقتفيها وفى يدىّ فؤادى ثم ألوى وفى يدى حطامُ

أليس فى البيت الأخير قلب تحطم ، وحب أخفق ؟ ! ثم يتابع الشاعر قائلا :

أىّ حلم سبكته ذهبيا لم تذبه بنارها الأيامُ ؟
ورجاء حبكته من خيوط الـ نور لم ينسدل عليه ظلامُ ؟
أىّ كأس قربته من شفاهى لم تحل حنظلا عليه المدامُ
وفؤاد ذوّبتُ فيه فؤادى لم يَضِع عنده لعهدى ذمامُ ؟

فهذه الأبيات كلها – وعلى الأخص الأخير منها – تنبض باتهام خطير – كما يقول محمود أبو الوفا – ، والحروف فيها تلمع لمعات الدماء فى الجراح المنكوءة .

وفى النشيد السابع يعاتب الشاعر النجوم فيقول :

سامح الله فيك قلباً نسيًّا هو فى الكون مثل قلب ملاحِه

وعلى الرغم من أن المعنى فى الشطر الأخير من البيت مطروق كثيراً لأننا تعودنا أن ننسب الخيانة والتقلب إلى قلب المرأة ، فإن العبارة فى مكانها هذا تعنى لنا شيئاً

كثيراً ، لأننا نعلم أن فوزى يلفظ أحاسيسه العميقة فى ألفاظه ولا يقول فى شعره إلا الصدق ؛ وذلك كل ما طلبه من قلمه :

يـا يـراعى رافقتَ كل حيـاتى فارْوِ عَنِّى ما كان حقًّا وصدقَا

ثم إننا حين نأخذ قصيدة فوزى التى يخاطب فيها الموت طالباً إليه أن يسرع بأخذ شبابه وقلبه النابض ، نقف عند بيت يعنى لنا كل شىء فى قصة تشاؤم فوزى . فهو بعد أن يقول :

لم يبق لى فى الأرض من بغية ما الأرض إلا جنَّة الأحمقِ

نـراه يبدى اشمئزازه من كل ما يحبه الناس ! من الناس ، والمال ، والشعر ، والصّيت ، والعلم . ولكنه حينما يصل إلى « الحب » يتوقف ملهوفاً ليلتقط أنفاسه المتسارعة ، ويهدئ من ضربات صدره العنيفه الثائرة ، فيهتف :

الحب ؟ قف يا موت واشفق على قلبى ودعه لحظـة يَخفـقِ
لى بغية قبل الـردى ، ليتهـا تمَّت فلم آسف ولم أفرقِ
وتلك : أن ألمـح محبـوبتى فنحن بعد اليوم لن نلتقى !

ألا تعنى هذه اللهفة – ولا سيما فى قوله : « قف يا موت ! » – كل شىء ؟ ألا تهتف لنا الألفاظ بما وراءها من معنى القلب المحطم ، الذى أذلّه الحب ؟

وقد علمت من إحدى قريبات فوزى أنه قد أحب فى زحلة فتاة جميلة ، ولكنه لم يتمكن من الاقتران بها ، فاضطرته خيبته إلى الهجرة إلى البرازيل حيث ظن أنه يستطيع أن يدفن آلامه ، ولكنه أخفق حتى فى هذا . فهل نستغرب بعد هذه الصدمة العاطفية يتحطم بها قلب شاب فى نحو العشرين من عمره أن لا تنضح نفسه بغير الدمع السخين ؟ !

هذا هو شاعرنا الملهم الخالد فوزى المعلوف ، صاحب على بساط الريح ، الذى غنّى على الأرض لحن السماء ، ثم طار عن وكره ولما يتم نموه إلى حيث يلتقى بروحه التى ركب – فى مطولته هذه – بساط الريح ، وهزئ بالأنواء والعواصف ، والنسور والنجوم ، فى سبيل البحث عنها ومعانقتها ؛ إلى حيث الحرية الخالدة التى أجهد فكره وخياله فى البحث عنها فى عالم الجسد الفانى ، فلم يجدها ، فراح ينشدها فى عالم الروح ، وهو ما يزال فى الثلاثين من عمره .

١٥ – إلياس طعمه (أبو الفضل الوليد)

فى عام ١٩٣٨ وقعت فى يدى قصيدة مخمسة لشاعر مهجرى اسمه إلياس طعمه ، وعنوانها « الفلاح » أذكر منها ما يلى :

يا حاصد الزرع ، ألقِ الحبل والمنجلْ الشمس غابت وأستار الدجى تُسدلْ
والربّ بارك يا فلاح ما تعمـــلْ فقل إذا أطربتنا رنةُ الجرسِ :
ما أبدع الكون يا ربى وما أجملْ !

وكانت بالنسبة إلىّ قصيدة يتيمة لا أعرف شيئاً عن صاحبها ، ولا أعرف له قصيدة سواها . وقد أعجبت بها وحفظتها حينذاك ، وجعلتها بعدئذ من محفوظات طلابى فى بعض المدارس التى عملت معلماً فيها .

ومضت الأيام ووقعت على عدد من القصائد لشاعر اسمه « أبو الفضل الوليد » لم أكن أعرف إذ ذاك أنه مهجرى ، ولا كنت أعرف الصلة بينه وبين إلياس طعمه .

وولعت بعد ذلك – منذ عام ١٩٤٦ – بالأدب المهجرى ، واتصلتُ بالكثيرين من أدباء المهجر ؛ وعرفت فى هذه الفترة أن أبا الفضل الوليد كان هو إلياس طعمه نفسه . وكان أول من عرفت هذا عن طريقه هو الأديب المهجرى توفيق ضعون من كتابه « ذكرى الهجرة » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٤٧ . غير أننى لم أعرف عنه ما فيه الكفاية ، ولا استطعت أن أقع على شىء من مؤلفاته أو دواوينه الشعرية .

ومنذ ذلك الحين كتبت الكثير جداً ، وأذعت الكثير جداً عن أدب المهجر وأدبائه ، ولكننى لم أكتب فصلا واحداً عن أبى الفضل . حتى حمل إلىّ البريد فى شهر شباط « فبراير » عام ١٩٥٢ رسالة من أخ عربى درزى ، كان يقيم فى نيجيريا – اسمه فايز محمود مكارم – تفيض بالعتاب لإهمالى الكتابة عن « الشيخ أبى الفضل الوليد – أشعر من شعر وأكتب من كتب » – كما يقول – وقد ضمن كتابه ذاك نتفاً من بعض قصائد الشاعر ، وعاد فأردف كتابه بثان ، ملأه بمختارات من نثر أبى الفضل الوليد الذى كان ينشره فى السنوات الأخيرة من عمره فى جريدة « الحديث » اللبنانية – لصاحبها إلياس حرفوش – وتلطف فأهدى إلى مع

كتابه الثانى نسخة قديمة ممزقة الغلاف من ديوان « الأنفاس الملتهبة » للشاعر ، كانت هى كل ما لديه من دواوين الشاعر ومؤلفاته .

وكان أكثر ما يتألم له الأخ فايز مكارم شيئين : الأول أن العرب لم يعرفوا قدر هذا الشاعر الفذ فأهملوه وتجاهلوه حتى وفاته – التى كانت بسبب سقوطه عن سطح عال ، كما يقول – والثانى أنه لم يقم أحد بتنفيذ وصية الشاعر التى طلب فيها أن يدفن على ضفة نهر بردى فى دمشق ، لأنه كان أحب الأنهر إليه وأقدسها .

وعدا الأخ فايز مكارم عاتبنى أكثر من واحد من إخوانى الأردنيين – وفى مقدمتهم صديقى المرحوم سعيد دره ، وكيل وزارة التربية والتعليم الأردنية سابقاً – لعدم اهتمامى بالكتابة عن أبى الفضل الوليد ، وهو لا يقل فى شاعريته ووطنيته عن القروى وفرحات [1] .

ولقد عثرت مرة على « كتاب القضيتين » من تأليف أبى الفضل الوليد ، فاجتمع عندى أثران أدبيان له هما هذا الكتاب ، وديوان « الأنفاس الملتهبة » . « ثم وقعت على عدد من قصائده الأخرى . وعلى عدد من الأبحاث التى كتبت حوله فى بعض الصحف والكتب . فلم يعد بد من الكتابة عن هذا الشاعر المهجرى ، والأديب القومى الكبير .

وكنت مرة فى زيارة لصديقى الأستاذ ألبرت الريحانى فى الفريكة . وفى الطريق إليه ، وعلى مقربة من الفريكة ، مرت بنا السيارة فى قرية « قرنة الحمراء » ، فقلت : أهذه قرية إلياس طعمه ؟ فالتفت إلىّ أحد ركاب السيارة من أبناء القرية وقال : تعنى « وليد » ؟ قلت : نعم ، أعنى أبا الفضل الوليد . فقال : هو من هذه القرية ، وقد توفى ودفن فيها منذ سنوات . ولما سألته عن سنة وفاة الوليد لم يستطع أن يعرفها بدقة .

* * *

---

(١) رأينا فى فصل (الحنين إلى الوطن) كيف يعترف فرحات ، فى مجلة (الضاد) الحلبية . بأنه خلال الحرب الكونية الأولى « لم يكن يُسمع غير صوت أبى الفضل الوليد مجلجلاً بالقومية العربية » ، فهو إذن أسبق من فرحات والقروى وأعرق فى شعره القومى.

ولد إلياس بن عبد الله طعمه فى قرنة الحمراء عام ١٨٨٩ من أسرة ثرية ، وتعلم فى مدرسة القرية ، ثم أرسله أبواه إلى مدرسة عينطورة ، فقضى فيها ثلاث سنوات تعلم فيها العربية والفرنسية ، ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة فى بيروت ثلاث سنوات أخرى . وفى مدرسة الحكمة أخذت موهبته تتفتح وتبرز ، فقد جعل ينظم الشعر بالعربية والفرنسية .

وقبل أن ينهى دراسته فى مدرسة الحكمة عاد إلى قرنة الحمراء وما يزال فى السادسة عشرة من عمره . وبقى فى بيت أبويه ثلاث سنوات ، حتى كانت سنة ١٩٠٨ ، ، وفى ذلك العام أصر على الهجرة إلى العالم الجديد برغم إلحاح أبويه عليه بالبقاء معهما ، لعدم حاجته وحاجتهما إلى اغترابه لأجل المال . وفى طريقه إلى العالم الجديد زار مصر ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، والبرتغال . ثم حط رحاله فى الجمهورية الفضية – الأرجنتين – وبقى فيها سنتين . ثم هجرها إلى البرازيل ، واستقر فى ريودى جانيرو اثنتى عشرة سنة .

وفى البرازيل أنشأ عام ١٩١٣ جريدة دعاها « الحمراء » ، استمرت فى الصدور أربع سنوات . كما عمل محرراً فى عدد من الصحف هناك . وكان خلال ذلك عربيًّا حرًّا فى أدبه وشعره ، يدافع عن حرية قومه ، ويناهض قوى الظلم والطغيان فى عهد الاحتلال التركى أولا ، وفى عهد الاستعمار الفرنسى والبريطانى بعد ذلك .

وفى عام ١٩١٦ غير اسمه رسميًّا فى سجلات حكومة البرازيل : فبدلا من « إلياس طعمه » أصبح اسمه « أبو الفضل الوليد بن عبد الله طعمه » . ويذكر توفيق ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » أنه أعلن إسلامه حينذاك ، وقد بقى على إسلامه إلى آخر حياته ، وظهر ذلك جليًّا فى شعره .

وخلال إقامته فى البرازيل طبع عدداً من تاليفه الأدبية ودواوينه الشعرية . ولما عاد إلى الوطن بعد ذلك راح يعيد طبعها من جديد .

فى عام ١٩٢٢ لم تعد تطيب للوليد حياة الغربة ، فقد كان يحن حنيناً لهيفاً إلى بلاده العربية ، ويتحرق شوقاً إلى خدمتها بنفسه وقلمه وهو بين أهليها المقيمين . فغادر البرازيل عائداً إلى الوطن ؛ وفى طريق عودته عرج على تونس والجزائر .

وفى عام ١٩٢٤ رحل إلى القاهرة ؛ وعُرِضت عليه هناك مناصب حكومية عالية فأبى أن يتولى شيئاً منها .

وفى عام ١٩٢٥ استدعاه الشريف حسين بن على لزيارته فى العقبة – وكان قد خرج من ملكه فى الحجاز – فغادر الوليد القاهرة إلى القدس ، ثم إلى عمان ، حيث رافقه الأمير طلال بن عبد الله – أمير الأردن حينذاك ، وملكها بعد ذلك ووالد الملك حسين ملك الأردن اليوم – إلى العقبة لزيارة جده الملك حسين . وقد أقام أبو الفضل الوليد فى الأردن نحو ستة أشهر ، وعرضت عليه وظائف عالية فى الدولة ولكنه لم يكن يقبل وظيفة . ثم غادر الأردن إلى سوريا ، ثم إلى العراق حيث احتفى به الملك فيصل وأكرمه .

وفى عام ١٩٢٩ انتدب لتمثيل لبنان فى المؤتمر الشرقى ضد الاستعمار فى برلين . ثم عاد إلى لبنان يعمل بجد ونشاط ، ويكتب فى الصحف ، ويطبع الكتب والدواوين الشعرية ، متوخياً حرية قومه ووحدة بلاده وسيادتها .

ومنذ عام ١٩٣٤ أخلد إلى العزلة ، وظل كذلك ، لا يكاد يُعرف له شىء من النشاط غير ما يكتبه أحياناً فى « الحديث » وبعض الصحف الأخرى ، حتى توفى فى أواخر الحرب العالمية الثانية ، فلم يشعر بموته إلا الأقلون من أخلص أصدقائه ، ولم يهتم بالكتابة عنه غير جريدة « الصفاء » التى كان يصدرها رفيقه أمين ناصر الدين ، وعدد قليل آخر من الصحف . ثم نسيه الناس ، وفقدت مؤلفاته ودواوينه من الأسواق ، ولم يهتم ناشر ببعثها من جديد حتى اليوم .

* * *

لأبى الفضل الوليد عدد غير قليل من المؤلفات والدواوين الشعرية وهى ، فى الشعر : « رياحين الأرواح – أغاريد فى عواصف – الأنفاس الملهّبة – نفخات الصور – غافر ولبانة – السباعيات » . وفى النثر : « أحاديث المجد والوجد – كتاب القضيتين – المآلك – زوال الحب والملك – التسريح والتصريح » . وقد ذكر له بعضهم كتباً أخرى كان قد طبعها فى المهجر ، منها – فى الشعر : « الغريبات – والقصائد » وفى النثر « كتاب الشعب – نفحة الورد – آخر بنى سراج – الصحائف » . وذكر أيضاً أنه اشتغل كذلك فى وضع عدد من الروايات

التمثيلية ، منها « أسرار بغداد – نكبة البرامكة – وأحمد وولادة » ؛ كما ترجم قصيدة « البحيرة » للامارتين – و « الليالى » لألفريد دى موسيه ، وقسماً من « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وثلاث روايات لألفريد دى موسيه هى : « أحلام العذارى – والحب آخره قتل – وبعثناه خاطباً فتزوج » ، وكل هذه المسرحيات والمترجمات كان مما عمله فى عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ قبل هجرته إلى أميركا ، وهو بعد فى سن السابعة عشرة والثامنة عشرة . وقد أضاف إلى ذلك فى تلك السن المبكرة أن نظم « نشيد الأناشيد » لسليمان بن داود شعراً . ولكن كل هذه المؤلفات والمترجمات ضاعت فى أثناء اغترابه حينما كان يقوم بإحدى رحلاته فى ديار الهجرة .

وليس يعنينا عدد مؤلفاته ومترجماته بقدر ما تعنينا شاعريته وبيانه ، وغيرته الوطنية والقومية فى ما بقى لنا من آثاره الأدبية .

أما غيرته القومية وعروبته المخلصة فلسنا فى حاجة إلى دليل عليهما لأن كل دواوينه ومؤلفاته تفيض بهما فيضاً . وقد قال فى القصيدة الأولى من ديوانه « الأنفاس الملهّبة » :

إلى كل شعب فيه عِرقٌ من العُربِ كتبتُ ، وهذا الشعب أحسبه شعبى
تفرقت الأقوام والأصل واحد فحبًّا لجمع الشمل يجمعهم قلبى
نعم موطنى لبنان ، لكن مولدى به عربى ، كالولى من السحبِ
فلا قوم إلا العرب لى وأنا لهم على البؤس والنعماء ، والسلم والحربِ

وقد استهل ذلك الديوان بكلمة نثرية يقول فيها :

« الفضل فى إلهامى لروح العروبة التى لاحت لى من ورائها روح عليين .

إنى أموت كما عشت عربيًّا آملا مشوقاً ، وأود أن تضم جثمانى تربة دمشق الطيبة . هناك تهيم روحى فى البادية ، وتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير بردى . تلك رقدة أشتهيها ، وأعلل نفسى بها ، وأراها خير مكافأة لى إذا كنت مستحقًّا » .

وأما شعره فهو يجرى كله على النمط التقليدى : فأغلبه طويل النفس ، ذو قافية واحدة ، ويندر أن تخلو قصيدة له – حتى لو كانت غزلية – من ثورة علنية ، أو من حنين إلى الوطن ، أو من تغزل بذكريات الأمجاد والفتوح العربية .

فالوطن والعروبة هما عماد أدبه ، وقوام شعره .

ولعله أكثر الشعراء العرب تغنياً بأمجاد العرب فى الأندلس ، وأكثرهم نظماً فى الأندلس ، وحنيناً إلى عمود العرب فيها .

ومن أندلسياته العديدة نقتطف أبياتاً من قصيدة نونية عنوانها : « رثاء الأندلس » يستهلها قائلا :

يا أرض أندلس الخضراء حيّينا ... لعلّ روحاً من الحمراء تحيينا
عادت إلى أهلها تشتاق فتيتهـا ... فأسمعت من غناء الحب تلحينا
كانت لنا ، فعنت تحت السيوف لهم ... لكن حاضرها رسم لماضينـا

وفيها يقول :

فى البرتغال وإسبانيَّةَ ازدهرت ... آدابنـا ، وسمعت دهراً مبانينا
وفى صقليةَ الآثارُ ما برحت ... تبكى التمدن حيناً والعلا حينا
كم من قصور وجنّات مزخرفة ... فيها الفنون جمعناها أفانينـا
وكم صروح وأبراج ممرّدة ... زدنا بها الملك توطيداً وتمكينا
وكم مساجد أعلينا مآذنهـا ... فأطلعت أنجماً منها معالينا
تلك البلاد استمدت من حضارتنا ... ما أبدعته وأولته أيادينـا
فيها النفائس جاءت من صناعتنا ... ومن زراعتنـا صارت بساتينا
فأجدبت بعدنا واستوحشت زمناً ... تصبو إلينا وتبكى من تنائينا

وهى قصيدة طويلة ، ملأى بالذكريات ، الموجعة ، واللهفة إلى استرداد المجد المضاع . ومثلها كثير فى مختلف دواوين الوليد .

ومثل الأندلسيات كذلك تكثر قصائد الحنين . ومنها قصيدة خماسية بعنوان : « بنت لبنان » يبدأها بقوله :

الليلة القمراء ترخى النقاب ... بالله دع نفسى وذكراها

* * *

يا نازحا طال عليه الزمنْ ... هلاّ تعللت بذكر الوطنْ
فتبسم النفس لكل المحـنْ ... كنجمة تطلع فـوق الهضابْ
فى سفح لبنان رعيناها

ويختمها بقوله :

يا حبـذا الحمـراء والغابتانْ يا حبذا الصفصاف والسنديانْ
الذكر لا يمحوه طول الزمانْ والنفس لا تعلم كيف الذهابْ
ما بين ذكراها وبلواها

ومنها أيضاً قصيدة بعنوان « تلفت إلى الوراء » يقول فيها :

سلام على حمراء لبنان من فتًى يحنّ إليها كلما شهد البحـرا
ويصبو إلى الوادى الذى فى ضفافه قصائد حبّ تحقر الطرس والحبرا
قصائد تـرويهـا الطبيعة فى الدجى ويـبرزها نـور الصباح لمن يقرا
يـذكرنى الـوادى الصبى ، ويشوقنى حصاه فإن أظفر به أطرح الدّرا
لقد مـرّ أحلى العيش فيه وفوقـه وذلك عيش لا يُباع ولا يُشرى
فأصبحت فى المنفى أنوح وأشتكى فلله ما أشقى المحبين بالذكرى !

ولسنا نستطيع أن نسترسل إلى شعر الحنين لدى أبى الفضل الوليد فهو أكثر من أن نحصيه فى مثل هذه الدراسة ؛ وهو أغنى به من القروى وفرحات .

والواقع أننا حيثما التفتنا فى شعر الوليد ندور فى حلقة من الشعر الوطنى والقومى والحماسى . والشعر فى مثل هذا الموضوع لم نعتده إلا خطابيًّا مجلجلا بألفاظه وعباراته . وشعر الوليد خطابى مجلجل كله ؛ وحين نقرأ قصيدته « المعلقة » التى تقارب المائة والخمسين من الأبيات ، نشعر بمثل الهدير ، وزمجرة العواصف والرعود ؛ فالشعر الخطابى لا يعرف اللفظة الرقيقة ، والعبارة الموسيقية الناعمة إلا نادراً . وإليك أبياتاً من هذه « المعلقة » الوطنية :

حرية الشعب بين السيف والقلمِ وقـوةُ النفس بين الـدمـع والألمِ
وفى الشدائد والثـورات بانَ لنـا فضل الرجال ذوى الأفكار واللممِ
يا حبـذا أمـة تشقى بثـورتهـا حتى تفوز بما ترجو من النعمِ
لو كنت تعلم ما معنى الحياة وما فى طـاقة الشعب لم تقنط ولم تنمِ ...
لنـا حقوق وثارات نـذكّرُهـا أبنـاءنا ، ونبكيّهم عـلى الرممِ
نطلب الحق يومـاً بالسيوف فـلا نرتدّ حتى نـروّيهـا من الهممِ

على أن هذا النمط التقليدى فى الشعر ، مع طول النفس فى القصيدة ، ووحدة

القافية ، كثيراً ما يُلجئان الشاعر إلى العبارة الركيكة ، واللفظة غير الشعرية . ومثل هذا غير قليل فى شعر الوليد ، ولا سيما أن أغلب شعره يدور على محور واحد ، ويطرق موضوعاً واحداً .

وأما فى النثر فإن الوليد يتوخى دائماً جزالة العبارة ، وفخامة الجرس ، وكثيراً ما يلجأ إلى السجع . ولكنه فى معالجته الوطنية والاجتماعية كثيراً ما يوفق إلى الإجادة ، فلا يرمى إلا صائباً . والذى يقرأ كتابه « كتاب القضيتين » يجده فيه موفقاً إلى حد بعيد فى معالجة قضايا الأمة العربية ، وشئون البلاد العربية .

١٦ — حبيب مسعود
من العصبة الأندلسية

حين نتحدث على حبيب مسعود ، فنحن نتحدث على واحد من أبرز أدباء المهجر الجنوبى ؛ ينظر إليه كل أديب مهجرى جنوبىّ بعين التجلة والاحترام ، فهو رئيس تحرير مجلة « العصبة » منذ أول تأسيسها إلى ما قبل توقفها عن الصدور بأشهر قليلة ، ثم أصبح مدة من الزمن رئيس تحرير مجلة « المراحل » التى تصدرها فى البرازيل السيدة مريانا فاخورى دعبول ؛ وهو الخطاط الوحيد ذو الشهرة العريضة فى المهجر ؛ وهو ممثل صحافة المهجر الجنوبى فى مؤتمر اليونسكو فى بيروت عام ١٩٤٩ ؛ وهو صاحب كتاب « ما أجملك يا لبنان » ، وكتاب « جبران حيًّا وميتاً » . وفى هذه (الهويات) العديدة ما يكفى للتعريف بهذا الأديب المهجرى الكبير ، البعيد عن بهرجة الدعاية لنفسه وأدبه ، والذى يحترمه جميع زملائه وعارفيه فى المهجر لأدبه ، ولخلقه العالى ، وترفّعه عن المتاجرة بأدبه فى سبيل الربح المادى أو الجاه .

ولد حبيب مسعود عام ١٨٩٩ فى « بشرّى » ، الضيعة اللبنانية الجميلة التى خرج منها إلى العالم جبران خليل جبران ؛ ودرس دروسه الابتدائية فى مدرسة الضيعة ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة فى بيروت . وفى عام ١٩١٣ هاجر إلى البرازيل ،

وراح يتقلب على أكف الجهاد فى سبيل الرزق ، وفى سبيل الأدب معاً ، فعمل فى التجارة وفى تحرير الصحف . وكان دائماً عربيًّا فى عاطفته وإيمانه ، وعربيًّا فى قلمه وبيانه ، يعمل للعروبة بلسانه وقلمه ، ويخدم الفصحى ما وسعه الجهد والطاقة .

ولقد انضم إلى العصبة الأندلسية منذ فجر حياتها ، ورأس تحرير مجلتها « العصبة » منذ ولادتها . وقبل « العصبة » كانت الصحافة وسيلة للارتزاق والمتاجرة ، فجاءت العصبة تخدم الأدب والفكر مجردين عن الغرض المادى ، مترفعة عن المهاترة والتبذل ، سامية عن الاعتبارات الشخصية . وكان لحبيب مسعود فى هذا أكبر الأثر وأحسنه . وكانت افتتاحياته لها ومقالاته فيها نماذج من البيان العربى القويم المشرق ، ومن التفكير الأدبى الإنسانى والقومى الراقى .

وتوقفت العصبة وانقطع حبيب عن الصحافة إلى التجارة سنوات ، ثم عاد إليها رئيس تحرير لمجلة « المراحل » الأدبية الراقية . وقد اكتسبت به « المراحل » قوة جديدة ، وشخصية محببة إلى القراء . ولكن عهده برئاسة تحريرها لم يطل ؛ فما لبث أن هجر الصحافة من جديد [1] .

فى عام ١٩٣١ ، وبعد وفاة جبران ، عمد حبيب مسعود إلى آثار جبران الأدبية المطبوعة بالعربية فجمع منها شيئاً كثيراً ، وأضاف إليها مقدمة عن حياة جبران ، وفصولا أخرى عن عودة جثمانه إلى الوطن ، واستقبال اللبنانيين له ، ومراثى الأدباء والشعراء له ؛ وطبع كل ذلك فى كتاب ضخم بنحو أربعمائة صفحة – بمعاونة نسيبه شبل مسعود – ودعاه « جبران حيًّا وميتاً » .

وفى منتصف شهر تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩٤٨ تلقى حبيب مسعود من القنصل اللبنانى دعوة لتمثيل صحافة المهجر الجنوبى فى مؤتمر اليونسكو فى بيروت ، فاستجاب للدعوة إلى الوطن يحثه الشوق والفرحة بهذه الفرصة الثمينة التى تتيح له رؤية الأهل والوطن بعد غياب طويل .

وكانت هذه الفرصة – وقد امتدت إقامته فى لبنان سنة كاملة ، من تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٤٨ إلى تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٤٩ – وسيلة ممتازة لوضع كتاب يدوّن فيه حبيب مذكراته وخواطره وانطباعاته حول

---

(١) عاد إلى لبنان منذ عام ١٩٧٠ ، واستقر فيه نهائيًّا .

الوطن وأهله ، وما يراه فيه من ضروب الحياة ، وأنماط الناس ، وأصناف العيش ، ومن آراء الناس وأفكارهم ومشاغل حياتهم ؛ ولتصوير الربوع اللبنانية الجميلة كما يراها ويحسها بعينه وعاطفته ، بشوقه وحنينه ، وحبه ولهفته . فكان ذلك الكتاب « ما أجملك يالبنان » الذى صدر فى منشورات العصبة عام ١٩٥٢ ، وجاء فى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

قلت إن حبيباً قد صور الربوع اللبنانية بعين شوقه وحنينه وحبه ولهفته ؛ وإليك نموذجاً من ذلك التصوير الرائع لمكانة الأرز من قلبه ومشاعره ، فى فصل « فى هياكل الطبيعة » من الكتاب :

« للأرز فى نفسى حرمة خاصة كحرمة الولد لأبويه ؛ فليس هو فى نظرى تلك الأشجار الجبارة التى تمتد أصولها إلى قلب الزمن ، وإنما هو فصل من ذكريات طفولتى ، ومبعث حنين حملته فى غربتى ، لم تزده الأيام إلا أواراً . فلكم تفيأت أغصانه الصلبة كإرادة الفاتحين ، والمرنة كأنامل العذارى ؛ ولكم تبسطت عليها ، فتهوى مرة وترتفع أخرى كأنها الأرجوحة ؛ ولكم توسدت أرضه وقد كستها أوراقه الإبرية فألفت طبقة هشة كأنها الفراش الوثير ؛ ولكم نشقت أنفاسه الذكية وسمعت أغاريد هداهده ، ووشوشة أنسامه ! . .

« فى الأرز لا تسمع غير هينمة النسيم منبعثة من خلال أوراقه الدقيقة القصيرة كأنها النغم خارجاً من الأوتار ، ولا تنشق سوى أنفاس البخور تتضوع من صموغه وأكوازه فتبعث فى النفس مرحاً ، وفى الجسم نشاطاً .

« حللت ضيفاً فى الأرز على النسيب الشيخ يوسف رحمه ، صاحب فندق الشفق المشهور بجمال موقعه . ولا أدرى كيف اختلف الناس على تحديد موقع الفردوس الذى سرح فيه آدم وحواء ، وفى الأرض هذه البقعة التى يقوم فيها فندق الشفق ؟ ! فإن لم تكن هى ذلك الفردوس ، فأين فى العالم مكان أحق منها بهذا الاسم ؟ ! » .

وعلى هذا النسق من البيان العربى الصافى المشرق يمضى حبيب مسعود فى كتابه القيم . وقد ختم الكتاب بفصل ذى شقين ، عنوانه « خلاصة ما رأيت وسمعت » : قشقّه الأول جعل عنوانه « وجه لبنان القبيح » ، وعنوان الشق الثانى

« وجه لبنان الجميل » ثم أضاف كلمتين قصيرتين بعنوان : « تحية ووداع » فالكلمة الأولى حيّا بها لبنان عند وصوله إليه ، والثانية ودعه بها عند عودته إلى المهجر .

وفى هذا الكتاب دوّن حبيب مسعود الخطب والمحاضرات التى ألقاها فى أثناء إقامته فى لبنان ؛ وواحدة من هذه المحاضرات كانت حول الأدب المهجرى وقد ألقاها فى الجامعة الأميركية فى بيروت .

وأنا أذكر هذه المحاضرة بشكل خاص ، لأن حبيباً قد ساق فيها ردًّا علىّ ، دون أن يذكر اسمى بصراحة ؛ فقد كنت قبل ذلك نشرت مقالا عن الأدب المهجرى فى إحدى صحف لبنان ، نسبت فيه التجديد فى الأدب إلى أدباء المهجر الشمالى ، ونسبت إلى أدب الجنوبيين صفة المحافظة على أساليب البيان العربىّ المعروفة[1] ، ولم أكن أقصد بذلك أى مغمز أو إساءة بل أردت تقرير الواقع . فاغتنم حبيب فرصة إلقاء هذه المحاضرة وقال فيها :

« وقعت أخيراً على بحث لأحدهم فى أدب المهجر عزا فيه روح التجديد إلى أدباءالشمال يوم كان جبران يتزعمهم ، واتهم إخوان العصبة الأندلسية بالمحافظة على الأساليب القديمة .

« أقول ، إذا كان جبران وبعض إخوان الرابطة القلمية قد فتحوا بتفكيرهم جواء جديدة ، فهذا لا يعنى أن كل أديب فى أميركا الشمالية بلغ شأوهم ، أو أن أدباء العصبة محافظون لأنهم لم يسبحوا فى تلك الجواء . أما إذا كان المراد من الأساليب القديمة هو الصيغة اللفظية ، والمحافظة على ضوابط اللغة ، فليس فى ذلك موضع للغمز واللمز . ألم يخلق جوًّا جديداً فوزى المعلوف فى « بساط ريحه » ، وأخوه شفيق فى « عبقره » ، والشاعر القروى فى « حضن الأم » ؟ أما إذا كان التفكير الجديد يقتضى أسلوباً جديداً ، والأسلوب الجديد يقتضى خروجاً على اللغة ، وبلبلة فى التركيب ، ورطانة فى التعبير ، فلست مبرئاً إخوانى من التهمة ، بل أعلن على رؤوس الأشهاد أنهم محافظون أكثر من تشرشل وأعوانه . . . » .

وما أحسب أننى أخالف حبيباً فى هذا الرأى ، وما قصدت من ذلك المقال

(١) المقال نفسه منشور فى القسم الأول من هذا الكتاب .

إلا بيان حقيقة فى الفرق بين أدب الرابطين – الأدباء الكبار منهم – وأدب الجنوبيين بشكل عام ، لمجرد التعريف وبيان الحقيقة ، حين لم يكن أدب المهجر معروفاً إلا لدى الأقلين من أدباء البلاد العربية ومثقفيها .

وكذلك لا أحسب أن حبيباً قال ما قاله فى رده ناقماً علىّ رأيى ذاك ، أو مستاء منه ؛ فإنه لم يلبث بعد صدور كتابه أن أهدى إلىّ نسخة منه بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٢ ، موشحة بإهداء كتبه بخطه البديع الأنيق ، هو : « إلى أخى عيسى الناعورى – مع محبتى – حبيب مسعود » .

* * *

وبعد فإن حبيب مسعود ينفرد بين أدباء المهجر جميعاً بأنه يجمع إلى إشراق البيان العربى ونصاعته ، ونضج التفكير وإصابته ، وطيبة الخلق وسماحته وأناقة الخط وجماله ؛ وقد كانت جميع العناوين فى مجلة العصبة – للمقالات والقصائد وغيرها – تحفر بخطه الجميل ، وكذلك كانت جميع أناشيد مطولة « عبقر » – لشفيق معلوف – محفورة بخطه أيضاً ، بعناوينها وأبياتها كلها . والخط الجميل دليل على سمو الذوق ولطفه ، وعلى رهافة الإحساس ودقته .

١٧ – إلياس حبيب فرحات

إلياس حبيب فرحات شاعر من أبرز شعراء العرب فى البرازيل ، وأعرقهم فى الشاعرية الحقة ؛ فليس للعروض والقواعد والبلاغة شىء من الفضل فى حياته الشعرية ، وإنما الفضل كله لطبيعته الموهوبة ، ولاستعداده الفطرى : فإلياس فرحات ضئيل الحظ من الثقافة المدرسية ، إذ غادر مقاعد المدرسة فى العاشرة من عمره ، ونزل يجاهد فى معترك الحياة بصبر وجلد . ثم هاجر إلى البرازيل أسوة بالنازحين من أبناء بلاده ، وجالد كثيراً فلم يفز بغير الحرمان والإخفاق ، ولم يصادف سوى قسوة الحياة التى لازمته مدة طويلة . وكان لهذه الحياة القاسية ، وما رمته به من حرمان وإخفاق ، أثر كبير فى تغذية شاعريته ؛ وقد ظهر ذلك الأثر فى عدد كبير من قصائده الدوامى .

بدأ فرحات النظم باللغة العامية ، فكان زجالا يجرى على الفطرة الموهوبة التى يغذيها الذكاء المتوقد . ثم وجد من يوجهه نحو مطالعة الشعر الفصيح وتذوقه ، فعكف على المطالعة زمناً حتى تمكن من إجادة الفصحى ، فصرف شاعريته إلى وجهتها الصحيحة ؛ فإذا إلياس فرحات ، الزجال المغمور ، شاعر يملأ دنيا الضاد ألحاناً تزغرد فى مسمع الأيام بحنجرة صافية الرنين ، وإذا قصائده أناشيد يتغنى بها الناس فى المهجر وفى ربوع الشرق العربى بإعجاب وإكبار ونشوة .

وفرحات نفسه هو خير من يروى لنا قصة شاعريته . فلنستمع إليه فى القصيدة التى جعلها فاتحة لديوانه الثانى « ديوان فرحات » ، وجعل عنوانها « مقدمة الناظم » :

يقولون : عمَّن أخذت القريض ... وممَّن تعلمت نظم الدُّرَرْ ؟
وما كنتَ يوماً بطالب علم ... فإنَّا عرفناك منذ الصِّغَرْ
فقلت : أخذت القريض صبيًّا ... عن الطير وهى تغنى السَّحرُ
وعن خَطَرات النسيم العليـ ... ـل يمرّ فيشفى عليل البشرْ
وعن ضحكات مياه الجداو ... ل فوق الجلامد تحت الشَّجرْ
وعن زفرات المحبّ الأديب ... يزاحمه الموسر المحتقرْ
وعن نظرات الحسان اللواتى ... يكَدْن يغلغلْنَها فى الحجزْ
وعن عبرات الحزانى الضعاف ... فى عبرات الحزانَى عِبَرْ
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر أستاذها المعتبرْ
فى المبكيات بيانٌ جميل ... وفى المضحكات معان غُررْ
وفى كل ما يبصر المبصرون ... دروس تنَاوَبهُنَّ الفِكَرْ

وأرى ههنا من المناسب أن أنقل بعض ما ذكره فرحات نفسه فى هذا الباب فى مذكراته التى عنوانها (قال الراوى) ، فقد جاء فيها ما يلى : « بين حين وآخر ألتقى من الأدباء بمن يسألنى : كيف وأين تعلمت اللغة العربية ؟ وبين آونة وأخرى أقرأ أو أسمع من يقول : فرحات درس العربية على نفسه . والحق أننى لا أعرف كيف ولا أين تعلمت هذه اللغة ، فإنى لم أدرسها على نفسى ولا على غيرى ، فقد تركتُ مدرسة الضيعة ولى من العمر عشر سنوات ، ولم أكن قد قرأت من الكتب عند الراهب إلا مزامير داود ، ولم أتصفح حياتى كلها كتاباً للصرف والنحو . . ولا أظن

أن الراهب المعلم كان يعرفها أو يعرف منها شيئاً . وبعد تركى المدرسة لم أدرس قط ، وإن كنت قد طالعت كثيراً ، فإن القراءة شيء والدرس شيء آخر . وحتى سنة ١٩٢١ لم تكن مكتبتى تحوى من الكتب غير جغرافية فانديك . وفى تلك السن كنت أنظم الشعر الفصيح . . . لم أدرس الصرف ولا النحو ولا العروض . . . وأنا من طبعى لا جلد لى على الدرس . . . ».

هكذا أصبح فرحات شاعراً دون أن يتلقى الشاعرية من الكتب ، لأن الشاعرية موهبة تمنحها السماء لمن ترضى عنهم « . . . ولم تكن ترضى السما إلا عن الصُّلاَّح » كما يقول إيليا أبو ماضى .

وفى سنة ١٩٢٥ صدر لفرحات أول ديوان شعرى باللغة الفصحى ، مطبوعاً فى البرازيل ؛ وهو كتاب صغير الحجم ، يشتمل على عدد من الرباعيات عنوانه « رباعيات فرحات » . وهذه الرباعيات متنوعة الأغراض كما هى متنوعة القوافى ، ومتنوعة الأوزان ؛ غير أن الصفة التى تكاد تجمعها جميعاً هى صفة التمرد على المجتمع البشرى بتقاليده وطقوسه ، ومذاهبه الدينية والسياسية والاجتماعية ، ثم التشاؤم ، وأكاد أقول واليأس من إمكان إصلاح هذا المجتمع الفاسد ، الموبوء بكل داهية وخيمة من التفرقات والنعرات ، والأطماع والنذالات ، ومن الظلم والاستعباد ، والذل والخنوع .

من ذلك قوله فى الجهل الذى يدفع أغلب الناس إلى اتباع كل ناعب أو ناعق ممن يدّعون الغيرة على المجتمع ، ومحاولة إصلاحه :

قد قام « لينين » يدعو الأغنياء إلى ... توزيع ما جمَّعوه فى الصناديقِ
لقد يفوز فيلقى من يؤلّهـــه ... ويستغيث به فى ساعة الضيقِ
وقد يُخَوزَق مظلوماً فَيُرْزَق مَن ... يدعو الأنام لتقديس الخوازيقِ

وفى الأغنياء البخلاء :

كم من غنى بخيل كلما لمحت ... عيناه وجه فقير خفّ يستترُ
ترنو إلى ماله الوراث قائلة : ... «لا يؤكل الجوز إلا حين ينكسرُ »

وفى حياة بعض الأزواج التى هى فى الواقع جحيم ، وإن تكن فى ظاهرها توهم السعادة :

كم فى البرية من زوجين ما برزا إلا بسيارة تزهو كسيَّارِ
فإن تضمَّهما جدران قصرهما قاما بتمثيل دور الهر والفارِ

وأمثال هذا كثير يزخر بالصدق والحكمة والشاعرية .

وفى سنة ١٩٣٢ ظهر فى البرازيل ديوان ثان لإلياس فرحات دعاه « ديوان فرحات » . وهو فى هذه المرة ديوان ضخم يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ويشتمل على عدد كبير من القصائد المتفرقة فى الحب والألم ، وفى الوصف والحنين ، وفى الوطنية والاجتماع . ويلاحظ الذى يطالع هذا الديوان : ١ – قوة الشاعرية وجمالها فى أغلب قصائده ، ٢ – طول النفس فى عدد كبير منها ، ٣ – محافظة الشاعر فى أغلب قصائده على القافية الواحدة . وفى رأيى أن وحدة القافية فى القصيدة الكاملة ، على الرغم من أنها أوقع فى النفس ، إلا أنها تجنى كثيراً على الشعر لأنها تضطره إلى التقيد بها والخضوع لأحكامها ؛ ويندر جداً أن تسلم ذوات القافية الواحدة عند سائر الشعراء من بعض العيوب والمآخذ .

أما الصفات التى يصورها لنا شعر فرحات من صفات الشاعر وأخلاقه فأولها وأجدرها بالذكر شدة الإباء ، بحيث لا تنال الشدائد والحرمان والإخفاق من إبائه .

والصفة الثانية التى تصورها قصائد « ديوان فرحات » من أخلاق الشاعر هى صفة التمرد وتحدى المصاعب . وصفة ثالثة تبدو لنا على أشدها عنده ، وهى حب الوطن ، والألم الشديد لرؤيته ذليلا خانعاً بين مناسر الأقوياء وأنيابهم . وهذه المزايا وغيرها نقرأها فى عدد كبير من قصائده . وهو شديد الاعتزاز بشعره الوطنى ، لأنه يعلم أن الأدب الحق هو الأدب الذى يستطيع أن يرفع عن الأمة كابوس الذل ، ويسمو بها إلى الحرية والمجد ، وما عداه من فنون الأدب والشعر لا يرى فيها سوى حماقات يتسلى بها جماعات من الكسالى الذين يدعون ما يزخرفه لهم كسلهم فنًّا ، وأدباً ، وشعراً . فالأمة التى تعانى الذل فى ديارها، وتعيش تحت عبودية الظالم القوى ، حرام أن تتغنى فى ذلها بما يخدر أعصابها لتتجاهل النير الجاثم فوق أعناقها .

والذى يطالع شعر فرحات المنشور فى دواوينه المطبوعة يلاحظ أن الشاعر ترك

فيه اثاراً واضحة كل الوضوح ، نستطيع أن نستدل بها على شيء من حياته ومن أخلاقه . ونستعرض فى ما يلى هاتين الناحيتين فى ما لدينا من شعره الطبوع .

فقصيدته المطولة « بين الطفولة والشباب » ترينا أن الشاعر قد ولد فى ضيعة كفر شيا فى لبنان ؛ فهو فيها يحن إلى « الكسارة » ، وهى مكان مرتفع فى كفر شيا ، كما يشرحها فى الهامش ، وإلى « الغدير ، والحيّالى » اللذين يقول فى شرحهما إنهما نهران شتويان فى كفر شيا . كما يتذكر أيام طفولته ورفاق صباه فى هذه الضيعة .

ومن القصيدة نفسها نعرف أن الشاعر قبل أن تطوّح به يد الاغتراب إلى البرازيل ، وهو فى أول الشباب الجموح ، عرف الحب العنيف فى ضيعته ، وتعاهد هو وحبيبته على الوفاء ، ولكنه لم يكد يغترب حتى اقترنت بسواه . فهو يقول فى ذلك :

عشقتُ – والعشق ضلال يهدى – صغيرة رافقتها فى المهدِ
وعدتها ، ولم أحل عن وعدى لكنها خانت أخيراً عهدى
ولو وفت ، حافظت حتى اللحدِ

كانت حبيبتُه هذه قبل أن تنأى به عنها ظروف الحياة القاسية ، قد أهدت إليه خصلة من شعرها ، تذكاراً لحبها ، وتوكيداً لتعلقها به ؛ فكانت هذه الخصلة بعدئذ تسلية لروحه عن خيانة حبيبته ، وقد أوحت إليه بقصيدتين ، يقول فى أولاهما :

خصلة الشعر التى أعطيتنيها عندما البين دعانى بالنفيرْ
لم أزل أتلو سطور الحبّ فيها وسأتلوها إلى اليوم الأخيرْ
خنتِ عهدَ الحب ، لا بأس فإنى أكتفى بالأثر الغالى الثمينْ
فأنا ما عدت أحيا بالتمنى بعد أن منيتنى عشر سنينْ
إن أعد بعد التنائى تبصريها مثلما سلّمتنيها يوم المسيرْ
فهى كالطفلة فى حضن أبيها لا ترى إلا حناناً وشعورْ

هذا عن حديث هواه الأول ، أما حياته المدرسية ، التى بدأت وانتهت فى كفر شيا نفسها ، فإننا نعلم من شعره نفسه أنها كانت حياة قصيرة ، فهو لم

يكد يتجاوز الصفوف الابتدائية الأولى ، ومع ذلك فها هو ذا شعره يدل على عبقرية لم تتكون فى المدرسة وعلى يد أستاذ ، وإنما هى وحى موهوب .

أما حياة فرحات فى المهجر فهى حياة نضال مرير مضن ، ومشقات تكاد تنقطع . وقد عبر عنها الشاعر فى قصائد عديدة : فهو تارة يناجى « السعادة » فيقول :

سعادة نفسى متى نلتقى ؟ لعلك للآن لم تُخلَقى
إلى كم أسائل عنك ، وأبحـ ـث فى مغرب الشمس والمشرقِ
قطعت البحار ، وجبت القفار وحاولت جوب الفضاء النقى
وَعَدتِ الحزين بقرب اللقاء فطال الزمان ولم نلتقِ
خُلقت شقيًّا ، وعشت شقيًّا وأحسب أنى أموت شقى

وتارة يصور حياته وصراعه مع الرغيف فى قصيدة طويلة بعنوان « حياة مشقات » فيقول مشيراً إلى سوء حظ ، وإلى تكرر أيامه ولياليه على وتيرة واحدة لا تترك له أملا فى تحسن أو تبدل :

وأستعرض الأيام – يومى الذين مضى دليل على يومى الذى أترقبُ
طوى الدهر من عمرى ثلاثين حجة طويت بها الأصقاع أسعى وأدأبُ
أُغرِّب خلف الرزق وهو مشرّق وأقسم لو شرّقتُ كاد يغرّبُ

ثم يمضى فى استعراض حياته اليومية ، وتنقلاته ومجازفاته فى سبيل العيش ، فهو يتنقل فى عربة يجرها جوادان ، يحمّلها بالحقائب والصناديق المملوءة بمختلف أنواع البضائع ، وتسير به المركبة فى القفار أحياناً ، وفى الأدغال أحياناً أخرى ، ونراه يضطر أحياناً إلى المبيت فى أكواخ نائية مهجورة ، فلا تعرف عيناه الغمض ؛ أما الطعام فمما قد يصيده فى الطريق ، وأما الشراب :

فنشرب مما تشرب الخيل تارة وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشربُ

وأما معشره فى هذه الرحلات التى يضطره إليها العيش ، فيصفهم بقوله :

أعاشر من لو عاشر القرد بعضَهم لما رد عن دروين قبر مقببُ
وأنصت مضطرًّا إلى كل أبلَـه كأنى بأسرار البـلاهة معجبُ

وهذا البؤس الذى لقيه الشاعر فى حياته كان مصدراً ثرًّا لشاعريته .

فمن قصائد فرحات البائسة قصيدته « ثوبى المحترق » التى يقول فيها :

كأن الهـواء مع النـار لما ... رآنى لبست جديدى ، اتفقْ
فجاء بها من دخان القطار ... ونثَّرها فـوقه فاحـترقْ
فقلت أعاتب ربى مشـيراً ... إلى الحرق وهو كباب النفقْ :
إلهى ، تضن علىَّ بثـوبى ... وتكسو الغصون ثياب الورقْ ؟
ولو كنتُ غصناً لجـدّدته ... متى ما بشير الربيع انطلقْ
ولـكنْ أرى دون تجديده ... غيوم الأسى وسيول العرقْ

وجميل أن نعرف الحادثة التى أوحت بهذه القصيدة . وها نحن أولاء ننقلها عن كتـاب « ذكرى الهجرة » لتوفيق ضعون ، وهى كما يلى [1] : فى أواخر سنة ١٩١٨ حلت بفرحات النكبة الكبرى باحتراق طرف ثوبه ، فتشاورت وحسونا – هو جورج حسون معلوف ، صديق فرحات وواضع مقدمة ديوانه الثانى – فى أمره ، فقررنا أن لا مخرج له من مأزقه إلا بالعمل . ولكنه لم يكن يصلح لأى عمل تجارى ؛ فاخترنا له عملا أدبيًّا ، فيكون ممثلا لمجلة « الجديد » ومراسلا لها فى الداخلية ولكن كيف يقوم بهذه المهمة « السامية » دون رداء لائق ؟ لذلك كان أول ما فعلناه أننا استحصلنا له على بدلة بألف وخمسمائة قرش ، يرتديها معجلا ، وندفع ثمنها مؤجلا عشرة أقساط شهرية . وسافر فرحات على كف الرحمن مزوّداً بالتفويض القانونى واللوائح والوصولات . وبتنا نتوقع أخباره السارة ، ولكن كانت أولى رسائله أبياتاً ينعى إلينا بها كم ردائه الجديد الذى أحرقته شرارة من مدخنة القطار . . والثانية شكوى مرة من تلكؤ المشتركين ، والثالثة . . هو نفسه . . . »

ومن هذه الرواية القصيرة تظهر لنا خشونة الحياة التى اصطدم بها شاعرنا فرحات فى القسم الأول من حياته فى الهجرة .

ولقد تزوج فى مهجره البعيد ، ورزق أبناء وبنات ، ورد ذكرهم كثيراً فى قصائده . فهناك « ليلى » ابنته البكر التى ولدت وله من العمر ثلاثون عاماً ؛ ثم هناك ابنه خالد ، وابنه عصام . وهناك أيضاً ابنته الأخرى « سعاد » التى ولدت

---

(١) أكد لى الشاعر فى رسالة تاريخها ١٠ / ٧ / ١٩٥١ أن احتراق ثوبه قد وقع مرة واحدة وليس مرتين كما توحى به الرواية (ع . ن) .

لسبعة أشهر حمل ولم تعش سوى سنة واحدة . وقد رثاها أبوها بأبيات فى رباعياته من أرق الشعر المعبر عن عاطفة ملؤها الحزن اللاذع فقال :

يهنيك نومك يا سعاد كأنه نوم الرضيع على ذراع المرضعِ
يهنيك يا ولدى السكون ، محركاً بجلال هيبته سواكن أدمعى
كم قبلة تهفو إلى شفتىَّ من قلبى الحزين الواله المتفجع
حتى إذا وجدت سريرك خالياً رجعت فصارت جمرة فى أضلعى

وهناك كذلك ابنته الصغرى « منى » وكانت عروس البيت كما يدعوها – وقد قال فيها :

عبثت « منای » بصلعتى وتضاحكت لما رأتنى للتمشط أنشطُ
ومضت بلثغتها تقال لأمها : « أرأيت ، ما ما ، أقرعاً يتمشطُ » ؟ !
أبنيتى ، إن الحياة لَسُلَّمٌ أيهنيك أنك تصعدين وأهبطُ
والدهر ، يا ولدى ، يغربل لمَّتى فالبيض تثبت والحوالك تسقطُ

أما ليلى وخالد فقد تزوجا ، وأصبح شاعرنا جدًّا ، وهو يعتز بهذه الخاتمة السعيدة – مد الله له فى هذه السعادة – وقد كتب إلى بتاريخ ٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٥٠ يقول : « فى هذا الأسبوع . أصبحت جدًّا إن ولدى ليلى قد ولدت « لُيَيْلى » . . وقد سجلت هذا الحادث بهذين البيتين :

زهوت بليلى طفلةٌ وصبيَّة وشاءت مجاراتى فجاوزت الحدَّا
زهت بى أباً ، واستصغرت شأن زهوها فزادته لمَّا صرت لابنتها جدَّا

« والجديد الثانى أن ولدى خالداً قد تزوج فى أواخر يناير ، وهو الآن وزوجه معنا فى البيت . والصهر – زوج ليلى – والكنة – زوجة خالد – برازيليان . وهنا أخبرك أن أسرتنا ممتزجة بالبرازيليين والبرازيليات امتزاج الماء والخمر ؛ وخالد الآن يعمل خبيراً فى جيش الطيران البرازيلى – خبير بأدق آلات الطيارات – وأما عصام فما يزال يدرس الحقوق ، وفى الوقت نفسه يساعد أباه فى العمل » [1].

وهذا بعض ما يصوره لنا شعر فرحات من حياته ، ونحن نعلم أن شاعرنا قد استقرت حياته بعد أن كبر أبناؤه ، وتحسنت حالته المادية فى أثناء الحرب العالمية

(١) تخرج عصام فى مدرسة الحقوق بعد تلك الرسالة بسنوات قليلة .

الثـانية ، وأصبح يملك بيتـاً فى « بيلو أوريزونتى » أو – الأفق الجليـل – عاصمة ولاية ميناس . ومن هذا البيت يستطيع أن يمتع ناظريه بشروق الشمس وغروبها ، ومناظر الطبيعة الجميلة ، وأن يفتح نفسه لاستقبال الانطباعات الجميلة بهدوء واطمئنان لم تعد تعكرهما خشونة الجهاد وجهامة العيش ، وقسوة الحرمان .

ومن أخلاق فرحات التى نلمسها بكل وضوح فى شعره صلابة المبدأ . وفرحات مشهور فى هذا ، فهو لا يلين ولا يحابى ، ولو أدى ذلك إلى إطالة شقائه ، أو إضاعة أصدقائه ، أو إلى تفويت فرص ثمينة عليه . وهو القائل :

لا تنتظـــر أن تـرانى راضيـاً ، فأنا أرضى ضميرى ولو أغضبت أصحابى

وهذا البيت من رباعية قالها فرحات لصديق جاء ينصحه بأن يتملق الناس ويدارى الحياة لعله يبدل حظه الكابى ، وهو القائل أيضاً :

يقولون لى : « صادق فلاناً فـإنه أخـو نجـدة يرجَى لساعة ضيق »
فقلت لهم : « هـذا صحيح وإنمـا عـدوّ بـلادى لن يكون صديقى »

فهو لا يعرف الرياء والمحاباة ما دامت تفرض عليه الزيغ عما رسمه لنفسه من مبادئ . وصلابته هذه تفرض عليه أن يكون جريئاً فى قالة الحق ، وهو يقول فى هذا !

وإنى لمطبوع على الصدق ، جاهر بآياته ، والنصل فى النطع يقصـرُ
أقول لذى العينين : « إنك مبصر » وللأعور المغرور : « إنك أعورُ »

ونحن حين نتحدث على صراحة فرحات وصلابته فى مبادئه لا بد لنا من الحديث على إبائه . ولهذا الإباء صور تطالعنا كلما قلبنا قصيدة من قصائده .

ولعل من أروع هذه الصور ما نطالعه فى قصيدة « حياة مشقات » ؛ فبعد أن يتحدث الشاعر على حياته الخشنة القاسية ، ويصف ما يلاقيه من صعاب ومشقات ، يعرض علينا أشياء من أخلاقه القوية التى تحبب إليه الحياة والنضال والعمل . وفى ذلك يقول :

حيـــاة مشقات ولـكن لبعدهـا عن الذل تصفو للأبىّ وتَعْذُبُ ...
أقـول لنفسى كلما عضّها الأسى فآلمها : صبراً فنى الصبر مكسبُ
لئن كان صعباً حملك الهم والأذى فحملك مَنَّ الناس لا شك أصعبُ

فلولا إباء مازج الطبع لم يكن لمثلى مجيء فى البرارى ومذهبُ

ومن جميل إباء فرحات قوله فى قصيدة يخاطب بها بعض أصحابه الأغنياء :

سأبعد عنكم ما حييت بفاقتى لكى لا يهيج البؤس عيشكم الهادى
وأكتم آلامى عن الناس كلهم فلا رائح يدرى الذى بى ولا غادِ

أما عفة نفس فرحات ، فنستطيع أن نلمسها فى قصيدته التى بعنوان « لولا ضميرى » والتى منها قوله :

فكم ثروة تعجز الجاسبا تسلمت ، وهى لبعض التِجارْ
فقلت : أفرُّ بها هاربا فقال ضميرى : حذار حذارْ
فأرجعتها وغسلت يديَّا ولولا ضميرى لكنت غنيا

* * *

وبكر أتت حجرتى موهناً يقود خطاها غرور الصبا
فقلت : سأبلغ منها المنى فقال ضميرى : ألست أبا ؟
فأغمضت عن حسنها ناظريا ولولا ضميرى جنيت الشهيا

وهناك الناحية الدينية ، وهذه لا بد لمن يدرس فرحات من أن يتعرض لها . ففرحات لا يعرف المذهبية فى الدين ، ولا يؤمن بمظاهره وطقوسه ، لأن الدين عنده فى القلب النقى وحده ، ولا علاقة له بما يضيفه إليه أصحابه من مراسيم وطقوس وانقسامات . وهو لا يتصور مطلقاً أن يكون الدين سبباً للتفريق بين أبناء الأمة الواحدة ، أو أبناء الإنسانية عامة . وعلى الرغم من أنه مسيحى فى مولده ونشأته ، فإنه لا يمارس طقوس الدين بنفسه ، ولا بأبنائه . وهو يشير فى عدد من قصائده إلى ملاحقة بعض الكهنة له لكى يعمّد بناته ، ويذكر أنه كان يردّهم عن هذه الملاحقة لأنه لا يؤمن بعقائدهم .

وليس فرحات بين العرب أول من حمل على رجال الدين ، وعلى تعدد المذاهب واختلاف الطقوس ، فقد رأينا من هؤلاء فارسين آخرين جلّيا فى هذه الحلبة ، وهما جبران والريحانى ؛ ولكن فرحات بلا شك من أعنف من هاجموها ، ومن أكثرهم تصلباً وتطرفاً . ولعل السبب الأكبر فى كراهيته لهم هو ما رآه فى وطنه لبنان من انقسامات دينية كانت نكبة كبرى على وطنه ؛ فلم تكن مذبحة عام

١٨٦٠ لتقع فى لبنان لولا اختلاف الدين ، ولم تكن فرنسا لتنجح فى لبنان لولا تعلق قسم من اللبنانيين بها باسم الدين ، وما يزال الدين إلى الآن سبباً قوياً فى ضعف الشرق العربى وانقسام أهله على أنفسهم ، وفساد الحكم فيه .

* * *

كان لفرحات ثلاثة دواوين شعرية مطبوعة ، وكتاب صغير يحتوى على سيرة حياته[١] وعدد من القصائد المنشورة فى الصحف . ولكن بعض كرام الجالية العربية فى المهاجر قد تنادوا عام ١٩٥٤ ، وقرروا طبع شعره فى أربعة دواوين تقديراً لوطنيته ، وإخلاصه وشاعريته المبدعة ، فصدرت قصائده فى أربعة كتب . وفى سنة ١٩٦٧ نشرت له وزارة الثقافة فى دمشق ديواناً عنوانه (فواكه رجعية) ، وفى مصر ظهر له ديوان آخر بعنوان (مطلع الشتاء) .

ونحن سنتحدث أولاً على دواوينه فى طبعتها الأولى ، قبل أن تجمع فى طبعة جديدة . وأول هذه الدواوين « رباعيات فرحات » ، وهو كتيب يقع فى ١٧٣ صفحة من قياس صغير جداً ويحتوى على أكثر من مائة وستين رباعية شعرية فى مواضيع مختلفة ، بين دينية واجتماعية ووطنية ، ووصفية وحكمية ، وغيرها . ويغلب على أكثرها روح التهكم ، أو النقد اللاذع ، أو التشاؤم .

وقد طبع هذا الكتيب – كما أسلفنا – فى البرازيل عام ١٩٢٥ مصدّراً بمقدمة للأديب المهجرى توفيق ضعون . وهذا الكتيب هو أول مجموعة شعرية بالفصحى لفرحات ، وبه ابتدأت شهرة فرحات الشعرية ، وبدأ يحتل مكانه بين أدباء المهجر البارزين ، ويلفت إليه أنظار الأدباء والصحف ، والمهتمين بالأدب والشعر .

ويقول فرحات فى مذكراته : « ابتدأت بنظم الرباعيات ولم يكن يخطر لى فى بال نظم كتاب خاص من هذا النوع من الشعر . نظمت أول الأمر قصيدة مؤلفة من مقاطع ، كل مقطع من أربعة أبيات على نفس الوزن والقافية ، وإنما فى

---

(١) ظلّ مخطوطاً ، وقد أرسله فرحات إلى صاحب هذا الكتاب ، وظهرت أجزاء منه فى مجلة (القلم الجديد) عام ١٩٥٢ / ٥٣ ثم نشر فى مجلة (الرائد العربى) فى حماة سنة ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٦٥ نشرته وزارة الثقافة فى دمشق بعنوان (قال الراوى) مع زيادات عمّا نشر من قبل .

مواضيع مختلفة . ونشرت قصيدتى تلك فى جريدة « الأفكار » ، فنقلتها الجرائد والمجلات ، واستحسنها الأدباء ، فشجعنى هذا الاستحسان على متابعة النظم ، فأخذت أنظم مقاطع متفرقة فى موضوعات مختلفة وعلى أوزان عدة ، حتى حصل لى منها ديوان صغير طبعته عام ١٩٢٥ باسم « رباعيات فرحات » .

وفى ما يلى الرباعية الأولى من مجموعة هذه الرباعيات :

يا جارُ ، جارَ علىّ الظالمون كما	جار وا عليك ، فلم نرحل ولم نَثُرِ
نخشى الغريب ونخشى بعضنا فإذا	حل البلاء شكونا الضيم للقمرِ
فيم التقاطع والأوطان تجمعنـــا ؟	قم نغسل القلب مما فيه من وضرِ
مـا دمت محترماً حقى فأنت أخى	آمنتَ بالله أو آمنتَ بالحجـرِ

أما المجموعة الثانية من شعر فرحات فهى بعنوان « ديوان فرحات » ؛ وهى كتاب ضخم يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ويحتوى على مائة وثلاث وعشرين قصيدة ، بعضها يتألف من أبيات قليلة ، وأغلبها يتألف من عشرات الأبيات . وهى مختلفة المواضيع ، وفيها قسم كبير من القصائد الوجدانية ، وقسم كبير آخر من القصائد الوطنية ، إلى جانب القصائد الاجتماعية والوصفية والحكمية المتعددة . وكل ما فى هذا الديوان هو مما نظمه الشاعر ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩٣٢ ونشر الديوان عام ١٩٣٢ .

وضع مقدمة الديوان الكاتب المهجرى جورج حسون معلوف ، صديق فرحات الذى كان يقدر شاعريته ويشجعه عليها . والمقدمة دراسة تحليلية مطولة ، تقع فى ٣١ صفحة من أول الديوان ، وقد جاءت شاملة مفصلة ، إذ تعرضت لمختلف نواحى الشاعرية ومظاهر النشاط الفكرى لدى الشاعر ، مع إلمامة بالأدب المهجرى ، وفنون الشعر إجمالا ، ومميزاته وعناصره الجميلة .

يستهل الكاتب مقدمته بالإشارة إلى أن فرحات قد كلفه وضع مقدمة لديوانه ؛ ثم يقول : « وجمت قليلا قبل أن أجيب ، فعادت بى الذكرى إلى فجر معرفتى لفرحات : إلى ست عشرة سنة خلت ، يوم كان فرحات فى حديقة الأدب ذلك النجم الضئيل ، ذا الأوراق المصوحة ، والساق الضعيفة ، والجذور الواهية ؛

وها هو الآن فى روضة الشعر العربى دوحة عالية لا تبلغ الطير ذراها ، ملتفة الأوراق ، محبوكة الأغصان ، وارفة الظل .

« فرحات . تلك القطرة من الندى التى ذرفتها منذ ستة عشر عاماً مقلة الفجر على ورقة الورد ، وغادرتها قلقة مترجرجة وجلة من أن تقلبها إحدى نسمات الصباح ، أو أن تبخرها أولى ابتسامات ذكاء ؛ أصبحت ماسة قوية قاسية صلدة ، يتألق نورها لماعا يأخذ بالأبصار ويخلب الألباب . . .

« فرحات الذى طرحته النوى مطارح الشقاء ، وجيّش الدهر فى وجهه كل مصائبه ونوائبه ، وأناخ عليه بكلكله ، دون أن يتمكن من حبس مجرى شاعريته الفياضة ، وإخماد جذوة وطنيته المستعرة ، وإرغام أنفه الأشم .

« هذا هو فرحات الذى سهرتُ بعين الصداقة والإخاء على نشوئه الشعرى وارتقائه ست عشرة سنة ، تارة مستحسناً ، وطوراً لائماً منددا ؛ أرى الآن مخطوطة ديوانه فى يدى ، فكان شأنى وإياها كالبخيل انكب على كسب المال ديناراً فديناراً ، وهو يلقى الآن بين يديه كنزه الغالى وهاجاً مجموعاً مخزوناً » . . .

ويقول فرحات نفسه فى مذكراته « قال الراوى » :

« فى سنة ١٩٣٢ تألفت لجنة من أدباء سان باولو لطبع « ديوان فرحات » ، وكنت أريد طبعه فى جزأين ، فأبت علىّ اللجنة ذلك . على أننى لم أزل على نيتى الأولى ، إذ سأعيد طبعه – إذا قدر لى ذلك – فى جزأين ، أسمى أحدهما « الربيع » والثانى « الصيف » ، وسأطبع جزءاً ثالثاً مما اجتمع لدى بعد طبع الديوان وأسميه « الخريف » وأترك طبع الشتاء إلى الوراث » . . .

وأما المجموعة الثالثة من شعر فرحات فهى بعنوان « أحلام الراعى » ، وقد صدرت عن دار مجلة « الشرق » البرازيلية عام ١٩٥٢ ، ووزعت هدية على المشتركين . ومن أهم ما نشير إليه هو المقدمة التى وضعها للكتاب الكاتب المهجرى موسى كريم ، صاحب مجلة « الشرق » ، وقد جاء فيها قوله : « إن من رأى العلامة ألبرتو دى أولفيرا ، أمير شعراء البرازيل ، القائل : « إن فى قلب كل شاعر نابغ خميلة بنفسج تحاول أن تصوحها لوافح الجهل والحسد والخبث » . وفرحات الشاعر الموهوب يحمل فى قلبه أبهى وأنفس خميلة بنفسجية ؛ إنه المتواضع

دون تصنع ، والنبي دون استشهاد ، والوطني دون منّ ، والفنان دون عنجهية ؛ بل هو الشاعر العربي الكبير ، يرسل قصائده تباعاً ، ينثرها كالدراري فتبلغ قلوبنا لتسجل فيها رسوماً مليئة بالسحر . هي في الحقيقة ملاحم هدفها إذاعة عظمة القطر السوري بتاريخه المجيد ، ومآثره الفذة ، ومآتيه العجيبة التي شرفت الإنسانية ؛ بل هو شاعر الشام الذي ينشده قطراً واحداً كما حدده التاريخ ، على الرغم من سياسة المستعمرين الذين اكتسحوه مراراً دون أن يستطيعوا القضاء على كيانه الوطني ، وشخصية أبنائه الفذة .

« إنه يمزج منظوماته بدموعه فتأتي كالنسيم هينمة ورقة ، وكالربيع في سورية جمالاً ولطفاً . إنه يمزج روائعه القومية بدموعه فتأتي كالرعد زمجرة ، وكأمواج البحر اصطخاباً . إنه يمزج قصائده الرمزية بدموعه ، فتراها كما تتجلى في قصائده الست المنشورة في هذا الكتاب صوراً صادقة لنبضات قلبه وخلجات فكره » .

وأذكر أن الأديب المهجري جبران مسوح قد ذهب من الأرجنتين لزيارة البرازيل في عام ١٩٥١ . وقد كتب في ذلك مقالا يقول فيه : « عندما صممت على زيارة البرازيل كان أول أحلامي أن أرى فرحات . ولا أعلم لماذا يشغل فرحات هذه المنزلة من ذهني . . ولكن قبل سفري بيوم واحد استوقفني درزي ساذج في الشارع وقال : أنت ذاهب إلى البرازيل ؟ قلت : نعم ! قال : إذا أعطيتك أمانة فهل توصلها ؟ قلت : أعتقد أني أوصلها ، إلا إذا أمسكوها في الجمرك ، قال : كلا ، إن أمانتي لا يراها عمال الجمرك ؛ أمانتي هي أنك عندما ترى فرحات تبوسه من جبينه ، وقل له هذه بوسة من فلان . . . فقلت : وهل تعرف فرحات ؟ قال : أعرفه بالروح ؛ وهل يوجد من لا يعرف فرحات بالروح ؟ قلت : وماذا يعجبك في فرحات ؟ قال : يعجبني فيه أنه عربي لا يتغير . قلت : وماذا تحفظ من شعره ؟ قال : يكفي فرحات أنه القائل :

ما دمت محترماً حتى فأنت أخي آمنت بالله أو آمنت بالحجرِ

قلت : وماذا ترى في هذا البيت ؟ قال : إن هذا أعظم بيت في الدنيا ، لأنه يشرح أمراضنا من أولها إلى آخرها ، ثم يصف لها الدواء » .

والقارئ يعجب كل العجب من هذه الشاعرية الغامرة التي هبطت على فرحات ، فحولته من « قوال » ينظم « الردّات » و « القرادى » ، إلى شاعر فصيح بعيد الصيت . وجميل بنا أن ننقل ههنا ما يقوله فرحات فى مذكراته حول أول عهده بالنظم بعد وصوله إلى البرازيل :

« فى جويز دى فورا جاء للسلام علينا أديب عربى كان ساكناً فى المدينة ، فقال لى فى أثناء الحديث : علمت أنك تنظم الشعر ، فهلا أسمعتنى من منظومك شيئاً ؟ وكان فى جيبى قصيدة حديثة النظم كنت أظنها « آيتى » . . . فمددت يدى إليها ، فأخذتها ونشرتها وقرأت :

ضروباً من الأهوال حمَّلنى دهـرى وجـر علىَّ الهمِّ والذلِّ والقهرِ (١)

قرأت البيت وأنا أنظر فى وجه محدثى لأرى كيف يكون تأثيره عليه . فلما سمع العجز ضحك ضحكة جمدت الدم فى عروقى . على أنه لم ينتظر أن أسأله عن سبب ضحكه ، بل بادرنى بقوله إن العجز كله غلط . فقلت : وأين وجه الغلط ؟ فأفهمنى أن الكلمات « الهم والذل والفقر » مفعول به ، وبما أنها كذلك وجب أن تكون منصوبة . قلت : وما يعنى منصوبة ؟ قال : مفتوحة ، أى يجب أن تكون (الهمَّ والذلَّ والقهرَ) – بالفتح بدل الكسر – لأن الفاعل يجب أن يكون مرفوعاً والمفعول به منصوباً . . . ولا أدرى ماذا قال عن المجرور ! . . . والذى أؤكده للقارئ الآن أن ما سمعته من ذلك الأديب آنئذ كان ولا يزال الدرس الوحيد الذى تلقنته فى الصرف والنحو ، وأؤكد له أيضا أنى بعد هذا الدرس الوحيد الذى تلقنته لم أقع قط فى غلط « الفاعل والمفعول » ، فكنت كلما نظمت بيتاً تذكرت هذا الدرس وحافظت على القاعدة ! . . . »

ولكن قبل أن يبلغ فرحات العشرين من عمره كان قد ترك الزجـل وانصرف إلى نظم الشعر الفصيح . ويقول فى ذلك : « ولما لم أكن واثقاً من صحة النظم لم يكن يخطر لى فى بال أن أنشر ما أنظم » ، إلا أنه نشر أول قصيدة له إذ ذاك فى جريدة « أبو الهول » التى كانت تصدر فى البرازيل . فقويت إذ ذاك ثقته بنفسه ، ومضى يرسل إلى الصحف ما يجدّ من نظمه . وأخذ يميل إلى التقرب من

(١) قرأ الشاعر (الهم والذل والقهر) بالكسر بدل الفتح .

الصحفيين ، والأعمال الصحفية ، فعمل فى « أبو الهول » نفسها وكيلا للاشتراكات ومراسلا ، وتنقل بعدها إلى صحف أخرى .

وتعرف فرحات كذلك بالشاعر القروى ، فصار يقرأ له قصائده وتعرف بعد ذلك بجورج حسون معلوف وتوفيق ضعون ، واشترك مع ضعون فى إصدار مجلة « الجديد » مدة قصيرة . ومع الأيام كان شعر فرحات ينضج بسرعة ، ويجد صداه فى النفوس ، ويجد له قراء ومعجبين فى ديار الهجرة ، ثم فى البلاد العربية التى طالما نقلت صحفها قصائده عن صحف المهجر .

أما شعر فرحات فقد قدّر له أن يطبع مرة ثانية عام ١٩٥٤ على نفقة الجالية العربية فى المهجر الجنوبى . وفى هذه المرة استطاع فرحات أن يحقق أمنيته القديمة : فاختار أن يجمع شعره فى أربعة أجزاء متفرقة – بعكس ما فعل رفيقه القروى الذى جمع كل شعره فى كتاب واحد ضخم – فكان أحد هذه الأجزاء الأربعة للرباعيات ، والثلاثة الباقية جمع فيها ما كان فى « ديوان فرحات » وعدداً من قصائده الأخرى المتفرقة فى الصحف ، ودعا هذه الأجزاء الثلاثة كما يلى : « الربيع – الصيف – الخريف » ، وقد جاء مجموع صفحات هذه الأجزاء الثلاثة وحدها أكثر من ٨٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وكلها مطبوع طباعة أنيقة .

ويلاحظ من يعرف فرحات وشعره أنه قبل الإقدام على طبع هذه الدواوين الجديدة ، قد غربل قصائده ، ولا سيا التى لم يسبق نشرها فى ديوان ، فلم ينشرها جميعاً فى « الخريف » ، بل اختار منها ما يعتقد هو نفسه أنه أجود ما نظم بعد عام ١٩٣٢ . ولو شاء طبع جميع قصائده فى هذه الفترة لاحتاج إلى جـزء آخر على الأقل .

أما الرباعيات فقد أضاف إليها أشياء جديدة ، وقدم بعضها أو أخره عما كان فى الطبعة الأولى ، وبدلا من المقدمة الواحدة أصبح للطبعة الجديدة مقدمتان ، الثانية منهما للأستاذ حبيب مسعود رئيس تحرير مجلة « العصبة » المحتجبة .

وهكذا استطاع فرحات أن يضع بين أيدى قرائه ومحبيه جميع شعره حتى ذلك الحين ، لم يترك منه غير القليل ، وهو الذى كان قد ذكر فى مذكراته أنه سيتركه للوراث – بعد عمر طويل – ليجمعوه فى ديوان يدعونه « الشتاء » .

فى سنة ١٩٥٩ دعت حكومة الوحدة فى سوريا الشاعرين فرحات والقروى إلى زيارة الوطن . فتجوّل فرحات فى سوريا ولبنان ومصر سنة كاملة ، ثم عاد إلى البرازيل إلى جانب أسرته ، فى حين بقى القروىّ سنوات .

وفى سنة ١٩٦٧ ظهر لفرحات ديوانان جديدان : واحد نشرته وزارة الثقافة فى سوريا بعنوان « فواكه رجعية » ، والثانى نشرته مكتبة القاهرة بعنوان « مطلع الشتاء » . الأول قدّم له خمسة أدباء من مصر وغيرها ؛ والثانى قدّم له وديع فلسطين وحده .

ولكنّ فرحات لم يأتِ فى هذين الديوانين بجديد يمكن أن يتميّز به عن سابقاتهما سوى كثرة المقدّمات فى « مطلع الشتاء » ؛ وهى بدعة عجيبة غريبة . أما الروح ، ففى قصائد « مطلع الشتاء » خاصة خطابية مملّة ، ومعانٍ ما أكثر ما طرقها فرحات وأمثاله حتى أصبحت تبعث على شىء من الملل أو ربما الغثيان . وكثيراً منها أحلام ماتت بعد أن خيّبتها الحقائق المرة – ومن الشعر ما يموت قبل أن يخرج من فم منشده ! – حتى الغزليات القديمة التى عاد فرحات يحييها فى « فواكه رجعية » فقدت طعمها ولونها .

وهذا دليل على أن أدب المهجر قد مات أكثره فى الخمسنيات ، وما بقى منه شاخ مع شيخوخة أصحابه ، وأصابه الهرم ؛ إذ فقد زهوته ولونه .

١٨ – رشيد سليم خورى الملقب بالشاعر القروى من العصبة الأندلسية

ولد رشيد سليم خورى فى قرية « البربارة » فى لبنان عام ١٨٨٧ ، وتعلم فى مدرسة القرية أولا ، ثم فى مدرسة الفنون فى صيدا ، ثم فى سوق الغرب ، ثم أنهى دروسه الإعدادية فى جامعة بيروت الأميركية ، واشتغل فى التدريس سبع سنوات فى عدد من المدارس الأجنبية والطائفية ، فى طرابلس والمينا

وبشمزين وزحلة والشوير وسوق الغرب . وقد ظهرت بواكير نبوغه الأدبى وهو ما يزال على مقاعد الدراسة .

وإلى جانب الأدب مال القروى إلى الغناء والعزف على العود حتى برع فيهما . وتعلم إلى جانب العربية اللغة الإنكليزية ، ثم البرتغالية التى تعلّمها فى ديار الهجرة

وفى أول شهر آب (أغسطس) ١٩١٣ غادر القروى لبنان مع أخيه قيصر – المعروف باسم « الشاعر المدنى » – إلى البرازيل . أما سبب هجرته فهو يرويه فى مقدمة « ديوان القروى » كما يلى :

« نشرت لى جرائد بيروت على عهد المتصرف التركى يوسف فرنكو باشا بعض القصائد الوطنية الثائرة ، فما قرأها عمى إسكندر – وهو قبطان فى الجيش البرازيلى ، ويعشق الشعر الحماسى على الخصوص – حتى شرع يرغبنى فى السفر إلى عنده . واستمر على ذلك بضع سنوات ، وأنا أتردد فى هجر وطنى الذى تيمنى منذ حداثتى ، وأسأل العارفين هل فى البرازيل جبال جميلة كجبال لبنان ، وسماء نقية كسمائه ؟ حتى أوجدنى عمى أمام الأمر الواقع بإرساله إلىّ خمسين ليرة إنكليزية لأسافر فى الدرجة الأولى . وكان والدى قد توفى سنة ١٩١٠ غمًّا و كمداً لفرط حيائه من « لا » ، وتوزيعه ثروته قروضاً لم يستوف منها فلساً ؛ وخلف علينا ديوناً لا يرجى إيفاؤها من راتب التعليم الضئيل . فوطنت النفس على الاغتراب ، وأنا أمنيها بالأوبة حالما أبرئ ذمة والدى . وركبت البحر ، لكن لا فى الدرجة الأولى ولا فى الثانية ، فإن شقيق قيصر أعرض عن نصحى له بالبقاء ريثما أصل فأستدعيه أو أعود أدراجى ؛ وأبى ، لعدم طاقته فراقى ، إلا أن يصحبنى مع زوجته وطفلتهما الرضيع ، فاضطررنا لاستدانة ما يكفينا للسفر فى الدرجة الثالثة » .

وفى ولاية ميناس فى البرازيل حمل رشيد «الكشة» وضرب فى مناكب الولاية ببضاعته متعرضاً لأقسى مشقات الحر والسيول الطامية – كما يقول – ثم انتقل من ولاية ميناس إلى ريو دى جانيرو فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وهناك شرع يرتزق بتعليم العزف على العود ، ثم بالتدريس فى مدرسة جمعية زهرة الإحسان . وفى عام ١٩١٥ انتقل إلى سان باولو ، وراح يعمل فى التدريس فى

بعض المدارس العربية والأجنبية ، وفى إعطاء الدروس الخاصة فى البيوت ، ثم ترك التعليم وانصرف إلى العمل معتَمَداً لبعض المحلات التجارية .

وفى سان باولو برز رشيد شاعرا ، وعرفته الأوساط والأندية الأدبية . وظهرت موهبته فى الشعر الوطنى الذى أصبح همه الأكبر ؛ فكثيراً ما كان يتوقف عن أعماله التجارية لينظم الشعر ويلقيه فى حفلات الأندية والجمعيات حاملا على الاحتـلال الأجنبى ومؤيديه ، ومعرضاً نفسه لحملات أعداء الحرية وخصوم القومية العربية .

ثم عمل فى الصحافة ، فتولى تحرير جريدة « الرابطة » لمدة سنتين بعد أن توفى محررها الدكتور خليل سعادة عام ١٩٣٤ . وافتتح بعد ذلك مصنعاً لربطات العنق ، ولكنه لم يلبث أن أغلقه بعد ثلاث سنوات .

وفى عام ١٩٢٤ لحقت به أمه وأخته إلى البرازيل ، ثم تلاهما بقية إخوته ، فلم يبق فى قريته « البربارة » أحد من الأسرة .

وحينما أنشئت العصبة الأندلسية فى البرازيل كان رشيد من أوائل الذين انضمّوا إليها ؛ فلما توفى رئيسها الأول ميشال معلوف عام ١٩٣٨ انتخب رشيد خلفاً له فى رئاستها ، إلى أن انتقلت الرئاسة إلى الشاعر شفيق معلوف . آخر رئيس لها حتى توقّفها .

وقد أصدر رشيد عدداً من الدواوين الشعرية كان أولها « الرشيديات » ، ثم « القرويات » ، ثم « الأعاصير » . وفى عام ١٩٥١ تنادى العرب المهاجرون — وعلى رأسهم إلياس عاصى فى البرازيل ، والشاعر جورج صيدح [1] فى الأرجنتين — إلى تكريم القروى بجمع مبلغ من المال لشراء بيت يقدمونه له . وقد جمعوا لهذه الغاية ما يعادل ثلاثين ألف ليرة لبنانية . غير أن القروى أبى أن يقبل هذه الهدية منهم ، وقال إنه يفضل قبراً فى وطنه على قصر فى غربته . وطلب رد المال إلى المتبرعين ، واعتبر هذا التبرع إهانة له .

---

(١) المودة التى كانت بين القروى وصيدح انقلبت فى الأعوام الأخيرة إلى عداء سافر بلغ أقصى العنف بالمهاجاة القلمية فى الصحف المشرقية والمهجرية . وكذلك الحال بين صيدح وفرحات . وهو أمر يدعو إلى الأسف من هؤلاء الثلاثة فى أقصى شيخوختهم .

وعند هذا الإباء من القروى لم ير المهاجرون بدًّا من تخصيص المبلغ الذى جمعوه ليطبع به شعر القروى كله فى ديوان واحد ، بدلا من شراء المنزل الذى أرادوه . ولم يسع القروى أمام إلحاحهم إلا أن يقبل المال للغرض الأدبى ، فعكف على جمع شعره كله – المنشور فى دواوين سابقة ، وغير المنشور من قبل – فى ديوان جديد .

وفى عام ١٩٥٢ ظهر « ديوان القروى » فى ٩٢٦ صفحة من القطع الكبير ، مقسماً إلى أبواب هى : « البواكير – الأعاصير – الزمازم – المحافل والمجالس – زوايا الشباب – الموجات القصيرة – الأزاهير » . وفى صدر الديوان مقدمة طويلة تقع فى أربع وثلاثين صفحة – غير الصفحات الـ ٩٢٦ التى تضم شعر الديوان – وفى هذه المقدمة سرد القروى سيرة حياته ، وتحدث على أسرته ، وأخلاقه ، وطباعه ، وغربته ، ووطنيته . ووقف قسماً كبيراً من المقدمة للحديث على القومية العربية ، وإيمانه بها ، وحبه لها ، وواجب العربى القومى ، وما إلى ذلك . وقد أعيد طبع الديوان فى مصر عام ١٩٦٥ للمرة الثانية .

يقول تحت عنوان : « لماذا غلبت الحماسة على شعرى » من المقدمة :

« ما كدت أنهض بقادمتى حتى صكت مسمعى أنات أمتى ، ولفحت وجهى زفراتها ؛ فطويت جناحى عند سريرها ، مخضعاً خيالى لواقعها الأليم ، مقدماً واجب تمريضها على التغريد فى الخمائل ، والتنقير بين الحقول . ولو أنى أدركت أمتى صحيحة قوية لحلّقت مع الأسراب فى ألف سماء بعد سمائها . لقد سلب اللصوص نصيب أمتى من الحرية والعدالة والحق ، وهى أسمى المعقولات التى ينشدها الإنسان الراقى ، بل أغلى الجواهر الروحية المشعة من صدر الرحمن ؛ لا يحيا قلب بشرى نبيل إلا بقطر نداها ، ولا يمكن أن يُتَصور خير ولا جمال ولا سعادة فى هذا الوجود إلا بانعكاس نورها » .

وفى هاتين الفقرتين ما يعرب بوضوح عن مدى تعلق القروى بأمته وبوطنه العربى الكبير . ولكن الشاعر لم يكتف بالإعراب عن عاطفته هذه بالشعر والنثر ، فطالما ترجم مشاعره الوطنية أعمالا يذكرها له التاريخ بالفخر . ومن ذلك ما يلى :

١ – فى عام ١٩٤٧ طبع القروى كراسة صغيرة ضمنها ثلاث قصائد متبادلة بينه وبين الأمير شكيب أرسلان ، وجعل عنوانها « اللاميات الثلاث » . وقد اجتمع له من ريعها مائتان وخمس وخمسون ليرة إنكليزية بعث بها جميعاً إلى أمين الجامعة العربية حينذاك ، لتنفق على تعزيز قوة الدفاع عن فلسطين – كما ذكر لى ذلك فى كتاب منه بتاريخ ١٢ / ٥ / ١٩٤٧.

٢ – ذكر جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » أن القروى أهدى نسخة من ديوانه إلى فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى فى مصر ، فأرسل إليه الشيخ حوالة مالية – تقديراً له – قيمتها مائتا جنيه مصرى . فأعاد إليه القروى الحوالة شاكراً ، وطلب أن ينفق المبلغ على تسليح الجيش المصرى.

٣ – فى عام ١٩٥٧ كتبتُ إلى القروى أطلب منه ثلاثين نسخة من « ديوان القروى » طلبها منى سماحة الشيخ إبراهيم القطان – وكان إذ ذاك مفتش التربية والتعليم فى لواء البلقاء فى الأردن – لتوزيعها على مكتبات المدارس . وقد أرسلها القروى فعلا ، ولكنه أتبعها برسالة تاريخها ١٤ آذار (مارس) سنة ١٩٥٧ يقول فيها : « أخى عيسى ، أكتب إليك فور تسلمى جوابك شاكراً لك التطمين عن وصول أول شحنة من الكتب . . وأما الغرض الأهم فهو استيقافكم عن إرسال ثمنها إلى ، لأننى وقفته على عائلة الشهيدة الخالدة رجاء[1] ؛ مع الرجاء بأن يصلنى بواسطتكم وثيقة من أسرة رجاء بتسلمهم القيمة . وأفوّضكم منذ الآن بتوزيعها عليهم حسب فهمكم وإنصافكم ، أو تقديمها لوالد الشهيدة أو والدتها » . وفعلا استدعيت أخا الشهيدة من أريحا وسلمته خمسين ديناراً أردنياً تبرعاً من الشاعر القروى ، وأرسلت كتاباً بخطه إلى الشاعر إيذاناً بتسلم المبلغ .

٤ – لم يترك القروى فرصة لجمع التبرعات لقضايا الوطن العربى إلا اهتبلها وتحمل فى ذلك المشاق والعناء لهذه الغاية . وقد جاء فى كتاب « مهمة فى قارة » لأكرم زعيتر ما يلى :

« حدثنى الصديق إلياس عاصى أن القروى كان حين يتطوع بالطواف

---

(١) رجاء حسن أبو عماشة .

على القرى والأقاليم النائية لجمع الإعانات للقضايا العربية يستصحب معه جوارب لبيعها فى الحين ذاته ، ولينفق من ربحها على أجور رحلته ، مؤثراً هذا على أن ينفق من الأموال العامة شيئاً » .

أما السبب فى تسمية رشيدباسم « الشاعر القروى » فقد رواه الشاعر نفسه فى حاشية الصفحة ٩٥ من ديوانه إذ قال معلقاً على قصيدة له بعنوان « لعينيك يا لبنان » :

« هى أول قصيدة نشرها بتوقيع « الشاعر القروى » ، وكان ذلك على أثر صدور ديوانه الأول « الرشيديات » سنة ١٩١٦ ؛ إذ راح المرحوم نجيب قسطنطين الحداد يتابع نقده فى جريدته « المؤدب » كيفما اتفق . ولقى صاحب الديوان ذات يوم المرحوم جورج الحداد ، صاحب جريدة « القلم الحديدى » ، وفى يده عدد من المؤدب يلوح به ويقول : « خذ اقرأ . . . إنه هذه المرة يسلخ جلدك سلخاً » ، فتناوله ضاحكاً ومضى يتصفح طائفة من النعوت ، حتى وصل إلى قوله : « من هو هذا الشاعر الـ . . شاعر جرن الكبة . . . الشاعر القروى ؟ . . . » فوقف عند هذا النعت الأخير وقد عرته لرنته هزة . . . »

وهكذا صار رشيد لا يكتب شيئاً ، شعراً أو نثراً ، إلا وقعه بتوقيع « الشاعر القروى » منذ أن قرأ نقد قسطنطين الحداد ذاك . وقد اشتهر بهذا الاسم حتى إن كثيرين لم يعودوا يعرفون اسمه الحقيقى . وما يزال كثير من الأدباء يخلطون بين اسمه واسم الشاعر رشيد أيوب ، ولا يعرفون أيهما « القروى » ، وأيهما « الدرويش » .

شاعرية القروى عامة

لعل الميزة الجامعة لشعر الشاعر القروى رشيد سليم الخورى هى أنه وليد الشعور العميق الدافق . وهذا الشعور قد يرقّ أحياناً ، فنسمع فيه أنغام السواقى ، والشحارير ، وحفيف أجنحه فراشات الربيع ، وقد يعنف فإذا فيه جلجلة العواصف ، وهدير الأمواج ، وقصف الرعود ؛ قد يروق فإذا هو حنين

ذائب ملتهب ، ووصف ساحر رائع ، وصور من ألحان القلوب الندية ، وقد يفور فإذا هو ثورة صاخبة عارمة ، ووطنية مؤمنة لاهبة ، وغيرة قومية فيها الصدق ، والوفاء ، والمحبة .

يرى شاعرنا الأبقار سارحة فى الحقل فى أحد أيام الشتاء ، فيقف ليخاطبها قائلا :

تشكين فصل الشتاء البارد القاسى ؟ ماذا أقول أنا فى عِشرة الناس ؟
نامى على الثلج ، نامى ليس من باسِ فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تغشاكِ طوباك ، فالقطر غير الدمع طوباك !

فنرى شاعراً تفور فى صدره أحاسيس الحنان والرحمة أمام قساوة من يلقاهم من بنى البشر ، وصلابة قلوبهم ؛ فهو يعزّى البقر بأنه لا يحس بهذا الشعور البارد القاسى حينما يحسّ ببرودة الثلج .

هذا هو القروى فى شعره الإنسانى ، أما فى شعره الوطنى فقد كان ثورة عارمة : ينقم على المذاهب والأحزاب التى تفرق بين الإخوان فى الوطن الواحد ، ويستثير الهمم لنشدان الحرية ، ويستقطر غضب الأرض والسماء على الظلم والظالمين ، وعلى كل من يعمل على إذلال أهله ووطنه .

والأمثلة كثيرة فى هذا الباب من شعر القروى ، فقد كان أغلب شعره وطنيًّا شديد الفوران ، ملتهب العاطفة . وفى قسم « الأعاصير » من ديوانه مجموعة من هذه القصائد الوطنية الثائرة .

أما الحنين فنستطيع أن نقول إن القروى كان من أكثر المهجريين حنيناً فى شعره ، ولعله من أرقهم إحساساً فى حنينه ، ومن أعذبهم شعراً .

ونرى من رقة شعوره فى قصائده الوجدانية فنوناً عجاباً . فلنستمع إليه فى قصيدة له تحت عنوان « أختى المريضة فى العيد » حيث يقول :

رأيت الصبايا صفوفاً تغنى وتطفر فى العيد مثل الظبا
إلى كل روض ، على كل غصن أهاب الربيع فلبىّ الصبا
قصائد من كلّ وزن ولحن يرتِّلها الله فوق الرّبى
وأختى البريئة رهن الألم كما حُبس الطفل عن ملعبه

إلهىَ ، ضيعتَ أعلى نغم   وعطَّلت شعرك من أعذبه

وفى شعر القروى كثير من الإحساس الجميل العميق بالطبيعة ، وعلى الأخص فى قصيدة « الربيع الأخير » وفى قصائد الحنين العديدة من شعر القروى وإليك نماذج من شعره فى الحنين .

قال فى قصيدته « تحية المغترب » :

سلامٌ إلى حيث غادرت روحى   بلبنـــان سابحةً هائمـــهْ
إلى البحر كم أشتهى أن أراه   وروحى على سطحه عائمـــهْ
أحـــنّ إليـــه وأطـــواده   تزمجـــر قاعـدةً قائمـــهْ
وأشتـــاقه ومـــوجـــاته   تُـدَغْـدغ تلك الحصى لائمهْ

ومن قصيدة « وقفة على الشاطئ » :

يا نسيمَ البحر البليل سلامُ   زارك اليومَ صبُّك المستهامُ
إن تكن ما عرفتنى فلك العذ   ر فقد غيّر المحبّ السقامُ
أولا تذكر الغلام رشيداً ؟   إننى يا نسيم ذاك الغلامُ
طالما زرتنى إذا انتصف الليـ   ـل بلبنان والأنام نيامُ
ورفعت الغطاء عنى قليلا   فأحست بمزحك الأقـدامُ
وتنبهت فاتحاً لك صدراً   شبّ فيه إلى لقاك ضرامُ
فتغلغلت فى الأضالع أنفا   ساً لطافاً تهفو إليها العظامُ
ولثمت الفؤاد ثغراً لثغر   ولكم حجّب الثغور لثامُ
يا نسيم المحيط ، ما هكذا فى   ساحل البحر عندنا الأنسامُ
ذاك أزكى شماً وألطف ضمًّا   ذاك تشْفى بلمسه الأجسامُ
كم شفت لى عيون والده البحـ   ـر أواماً ، يا حبذاك الأوامُ !
كارعاً من زلالها ، لا بجام   فهى ساقٍ وسلسبيلٌ وجامُ
أسبق الفجر فى الهبوط إلى البحـ   ـر وكم طاب لى به استحمامُ

وهكذا حتى نهاية القصيدة ، وهى من ألطف شعر الحنين والوصف معاً . ولها مثيلات كثار فى ديوان القروى . فليرجع إليها من شاء .

على أن من الحق أن نذكر أن القروى – على شاعريته المبدعة ، وشهرته

البعيدة – لا يخلو شعره فى أحيان كثيرة من المآخذ ؛ فنى كثير من قصائده ضعف فى الصياغة ؛ لعله من جناية القافية الواحدة والوزن الواحد . وإن القارئ الممتلئ إعجاباً بالقروى وشعره ليقف أحياناً أمام بعض قصائده وهو يشعر بأنها دون شعر القروى ، وكان خيراً لو استغنى عنها الشاعر فلم يضعها فى ديوانه إلى جانب العديد من قصائده الجياد .

خذ مثلا قصيدته « حضن الأم » . إنها من حيث الفكرة والموضوع قطعة فنية رائعة ، بل هى فكرة بكر بالنسبة إلى القروى : فالمسيحى حين يصل إلى خاتمتها يحس بأن القروى قد لخص له عقيدته الدينية فى بيت واحد من الشعر حين قال :

وكانت ليلة وإذا صبى صغير نائم فى حضن مريم

غير أن سياق القصيدة ضعيف جداً ولا يتناسب البتة مع جمال الفكرة الموحية .

ومثل قصيدة « حضن الأم » قصائد أخرى عديدة للقروى ، ولاسيما من شعر المناسبات الشخصية ، والمحافل والمجالس ، وما إلى ذلك .

على أننا نلاحظ أن أقوى قصائد القروى التى نال شهرته بسببها ، سواء فى الحنين ، أم فى الوطنية ، أم فى الوصف ، أم فى الشعر الإنسانى ، كلها كانت من شعر الشباب والكهولة ، وكلها مما نظمه القروى قبل عام ١٩٥٠ ؛ وكل شعره الذى نظمه بعد هذا التاريخ لا يقاس بشعره السابق من حيث القوة والجمال والإبداع ، ولا من حيث الصياغة وقوة البيان . والذى يريد أن يحتفظ للقروى بصورة زاهية لامعة ، فعليه أن يقف به عند عام ١٩٥٠ ، ولا يتجاوزه ؛ فالقروى الشاعر بعد ذلك غير القروى القديم .

* * *

الوطنية فى شعر القروى

إذا كان رشيد سليم الخورى قد اشتهر بين شعراء المهجر جميعاً بشعره الوطنى الثائر فعاطفته الوطنية لم تقتصر على بلده لبنان ، فكل قطر عربى هو وطنه : يتغنى به . ويُشيد بمحامده . ويستنهضه للحرية ، وهو من المؤمنين بأن العروبة وحدة لا تتجزأ ، وإن فرّقتها السياسة الاستعمارية زمناً ، وجعلتها أشلاء ، لكل شلو حدود وحكومة وأنظمة خاصة . كما أنه لا يفرّق بين أبنائها اختلاف المذاهب والعبادات .

ولذلك نرى الشاعر القروى فى بعض قصائده الوطنية يحمل على إخوانه اللبنانيين المسيحيين ، الذين لم يشتركوا فى الثورة السورية الأولى لتحرير بلادهم من نير الأجانب ؛ فيقول مخاطباً سلطان الأطرش ، ومشيراً إلى هذا المعنى :

فتى الهيجاء ! لا تعتبْ علينا ... وأحسنْ عذرَنا ، تحسن صنيعا
تمرّستم بها أيام كنّا ... نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثاً وهاماً ... وأوقدنا المباخر والشموعا
إذا حاولتَ رفْعَ الضيم فاضربْ ... بسيف محمد واهجر يسوعا !

وهو يرى – وليس من الضرورى أن نرى نحن مثل رأيه هذا – أن الدين الذى يعلمهم أن « يحبوا أعداءهم » هو الذى يغرس فى نفوسهم معانى الذل والخنوع ، فيجعلهم يتقاعسون عن الجهاد ؛ فيتعرض لهذا الموضوع فى قصائد كثيرة ، لا يحترم فيها عقيدة الآخرين ، ويحمل على السيد المسيح والمسيحية حملة خطابية كنّا نودّ لو أنه نزّه قلمه عنها .

وهو يرى أن المحبة وحدها لا تكفى ، لأنها إذا كانت من الضعيف للقوى فهى ضعف وجبن ، وتملق ؛ والقوى لا يؤمن بها ، ولا يأبه لها . ولذلك لا يمكن للحب والإنسانية أن يحررا عنقاً من نير ، أو يخلّصا معصماً من قيد ؛ والوحش لا يفهم إلا لغة الوحوش ، كما يقول القروى فى قصيدة ثانية :

والسيفِ – لا عيسى ولا أضرابه – ... خلق الكمال لهم من النقصانِ

فانسفْ جبال الظالمين به ودَعْ لذوى القلانس « خردل الإيمانِ»
خاطب وحوش أروبّة بلسانهم واذخر لسان الحب للإنسانِ
أحسن إليهم بالإساءة – إنمـا ترويض ذى ناب من الإحسانِ

ثم يعود إلى موضوع المحبة والدين فى قصيدة أخرى فيقول – وهو لا شك غير مصيب فى تعرّضه للأديان نفسها :

قال المسيح لنا : « حبوا أعاديكم » لكنه لم يقل : « حبوا الشياطينا » !
الدين قِبلتنا ، لكن تجارتكم بالدين تُكرِهنا أن نَكره الدينا

وفى قصيدة غيرها على لسان الثائر الفلسطينى :

وكّلت إنجيل السلام فلم يَفُز غير الحسام بحل هذا المعضل

وحين يرى أن النعرة الدينية تفرق بين الإخوان ، وبتفرقهم تضيع حقوقهم وحريتهم فى أوطانهم ، ثار على هذه التفرقة المذهبية الدنيئة ، وهتف فى قصيدته « عيد الفطر » قائلا :

ولكننى أصبو إلى عيد أمّة محرَّرة الأعناق من رقّ أعجمى
إلى عَلَم من نَسْج عيسى وأحمد وَآمنةٌ فى ظلّه أختَ مريم
هبونى عيداً يجعل العُرْبَ أمّة وسيروا بجثمانى على دين بَرْهَم
سلام على كفر يوحِّدُ بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنّم !

فالدين الذى يؤمن به الشاعر القروى ليس « النصرانية » ولا « الإسلام » ، وإنما هو دين « القومية العربية » التى تجعل من العربى أخاً ونصيراً وسنداً لكل ذى ملة ودين فى وطنه ، لأن هذا هو الدين الوحيد الذى يرى أن على أساسه نهضت الأمم القوية ، ووصلت إلى مكانها من العظمة والقوة ، والذى على أساسه يتحرر الشرق العربى من عبودية المستعمر الغريب ، ويستعيد مجده العظيم .

فليس أحب إلى الأجنبى من أن يلقى بذور الفساد بين أبناء الوطن الواحد عن طريق النعرات المذهبية أو العائلية ، أو الأطماع الشخصية ، ثم يقف بعيداً يضحك ملء شدقيه من هؤلاء الحمقى الذين يتهارشون على لا شىء ، ويشتغلون بأنفسهم عن نكبة وطنهم وقومهم ، وعن نير العبودية الجاثم فوق أعناقهم .

ولقد واكب القروى النهضة القومية ، واستعر قلبه بحب أمته وبلاده ، حتى ليكاد يحترق حقداً على سالبيها حريتها ، ومستعبديها . فهذه فتاة إنكليزية اسمها « مود » تتودّد إليه فيعرض عنها لأن قومه قد بلوْا من قومها أدهى المصائب ، فيقول :

ولو لم تكونى فرنجيّة ... لكنت سُعادىَ قبل سعادْ
ولكننى عربىّ المنَى ... عربى الهوَى ، عربىّ الفؤادْ
لعمرك يا « مود » لولا ذووك ... لما ميّز الحب بين العبادْ
ولا أكرهوا شاعراً أن يقو ... ل : هذى البلاد ، وتلك البلادْ
فهم أوغروا بالعداء الصدور ... وهم أضرموا النار تحت الرمادْ
فلا تعذلى شاعراً زاهداً ... —وكم هام بالحب فى كل وادْ —
فإنى حرام علىّ هواك ... وفى وطنى صيحة للجهادْ!

* * *

وفى عيد الجلاء : جلاء الجنود الأجانب عن سوريا ، نسمع الشاعر القروى يحذّرنا من أن ننخدع بالجلاء الجزئى عن بقعة صغيرة من الوطن العربى الكبير ، بينما تبقى جيوش الاستعمار منشبة مخالبها فى الأجزاء الأخرى . فيقول :

عيد الجلاء تغبة ، إن لم يقم ... فى مصر برهان على الدعوى جلى
لا تُخدَعوا برحيله عن جلّق ... وأخوه عن بغداد لم يترحل
لا فرق إن نزف العدو دماءكم ... من أشجع أو أخدع أو أكحل
إن تتركوه ليُمعنَنّ تهكماً ... بمهارج استقلالكم لا يأتلى
وليبزُلن كبودكم كدنانكم ... وليَشرَبنّ على لذيذ المأكل
لا يرتوى إلا وهنّ فوارغ ... متهالكات ، وهو دنٌّ ممتلى
النيل والأردنَ فضلة كأسه ... والرافدان ثمالة المتثمل

ولا ينسى شاعرنا القروى فلسطين المنكوبة المجاهدة ، فقد ذكرها فى عدد كبير من قصائده . فها هو ذا يندد ببلفور ، صاحب الوعد المشؤوم فيقول :

الحقُّ منك ومن وعودكَ أكبرُ ... فاحسب حسابَ الحقّ يا متجبرُ
عِدْ من تشاء بما تشاء فإنما ... دعواه خاسرةٌ ووعدُك أخسرُ

فلقد نفوز ونحن أضعفُ أمـــة ... وتؤوب مغلوباً وأنت الأقدرُ

ويهتف فى قصيدة أخرى :

يهنيكَ ! لم ترَ عيناك الذى فعلت ... ذات الأساطيل من أهوالها فينا
قد أهلكتنا على أردننا ظمأ ... وأوردتنا المنايا من موانينا
أجرت مراكبها مشحونة قذراً ... وأفرغتها يهوداً فى فلسطينا
ماذا جنى القدس من «لاوى» وإخوته ... إلا الشقاء وإلا الذلّ والهونا ؟ !
والله لو داس فى بيروت أقدَسُهم ... لسممت قدماه نبع صنينا !

وها هو ذا يخاطب بريطانيا بلسان الثائر العربى الفلسطينى ، فيقول :

فَصْلُ الخطاب هنا بحدّ الفَيْصَل ... فاقطع بلندن ما بدا لك أوْ صِلِ
يا مغرياً بى عنكبوتَ دهائِه ... هلّا غزلتَ بغير هذا المغزلِ ؟ !
إن كنتَ يوماً بالوعود مكرتَ بى ... أنا غير عهدك بالزمان الأولِ
أغنانىَ الحق الذى أنا ربّه ... عن وقفة المتسوّل المتوسلِ
ليس الدم المسفوح منك سوى دمى ... والمنزل المهدوم إلا منزلى
الأرض لى . . والدار لى . . والقول لى ... والفعل لى .. والسيف لى ..والنصر لى !

وجملة القول إن الشاعر القروى كان شاعر القومية العربية ، ولسان الثورة الحمراء لأجل الحرية ، فما كان يرى سواها وسيلة تعيد إلى المظلوم حقه ، وإلى المقيد حريته . وإلى المهان كرامته ، ولذلك نادى بها فى أكثر قصائده .

١٩ – شفيق المعلوف
من العصبة الأندلسية

ما ذكرت شفيق المعلوف مرة ، إلا ذكرت معه مطلع إحدى مراثيه لأخيه المرحوم فوزى ، وهو :

أهويت أبحث عنه فى الترب ... تاج تدحرج عن جبين أبى

فأردده بإعجاب وحسرة : الإعجاب لأنه فى رأيى أوقع مطلع وقعت عليه

فى حياتى من مطالع الرثاء فى الأدب العربى ، وأدلها على صدق اللوعة ، والحسرة على ذلك التاج النفيس الذى تدحرج عن جبين والد الشاعر ، فأهوى ليبحث عنه فى التراب ، وهيهات أن يجده ، فقد غيّبه التراب إلى الأبد – وودائع التراب لا ترد – وقضى على جماله وسناه .

فى هذا البيت استطاع شفيق المعلوف أن يصور عمق لوعته وشدة جزعه على أخيه الراحل أصدق تصوير وأدقه ، وأن ينقل شعوره هذا إلى قارئه بطريقة مؤثرة جداً . وهذه مزية لا نجدها إلا لدى الشاعر المطبوع على الشاعرية .

وشفيق المعلوف شاعر مطبوع ، ما فى هذا ريب ؛ ويدلنا على ذلك ما له من نتاج شعرى منشور فى كتب خاصة ، أو فى الصحف . ولا غرابة ، فقد نشأ شفيق فى بيئة تفوح بشذا الآداب ، وتنفح الشعر عابقاً . فهو ثانى ثلاثة إخوة شعراء لا نعرف بيتاً عربياً اجتمع فيه مثلهم ، وأخواه الآخران هما : فوزى المعلوف ، ورياض المعلوف . والأول شاعر ملأ دنيا الضاد بالشعر العبقرى ، والثانى شاعر تعرفه المحافل الأدبية فى الشرق والغرب ، بكتبه ودواوينه الشعرية ، الطريفة ، بالعربية والفرنسية والإنجليزية . وأما أبوه فهو الأديب المؤرخ والشاعر عيسى إسكندر المعلوف ؛ وخالاه ميشال وقيصر أيضاً شاعران مشهوران ، والأول منهما كان أول رئيس « للعصبة الأندلسية » فى البرازيل . وهذه كما نرى بيئة شعرية خالصة من كل أطرافها .

ولد شفيق فى زحلة بلبنان سنة ١٩٠٥ ، وتثقف تحت رعاية أبيه العلامة ، واشتغل بالصحافة مدة . وقد سبقه أخواه إسكندر وفوزى إلى الاغتراب ، ثم لحق بهما إلى البرازيل نحو سنة ١٩٢٧ ، حيث انصرف إلى التجارة ؛ ولكنه استمر على الإنتاج الأدبى الذى كان قد بدأه فى الوطن بديوانه « الأحلام » . فلما أنشأ خاله ميشال « العصبة الأندلسية » انضم إليها ، واستمر على مناصرتها ورعايتها ، وأصبح فيما بعد رئيسها وممولها .

فى سنة ١٩٢٦ كان قد ظهر لشفيق فى لبنان ديوان شعرى صغير عنوانه « الأحلام » ، هو باكورة إنتاجه . وهذا الديوان يحتوى على قصيدة خيالية

ذات ثلاثة فصول – أو ثلاثة أحلام – تتألف كلها من سبعة وعشرين نشيداً ، فى مائة وتسعة وثمانين بيتاً .

كان شفيق حينما نظم هذه الأناشيد ما يزال فى أول مراحل الشباب ، ولذلك ليس غريباً أن نقول إنها كانت خيالات فتى لم ينضج بعد ، ولم تنضج أفكاره وخيالاته ، غير أنه كان فيها إشراق غير قليل من شاعرية تتقدم نحو السطوع .

لقد كانت ملأى بالتشاؤم والألم لأنها كانت تعبيراً عن حيرة الشاعر فى مستهل حياة الشباب ، فقلبه مشبع بالمثل العليا التى تلقنها فى الكتب ، وسمعها فى عظات المؤدبين فى البيت والمدرسة والكنيسة . وكان خياله غنيًّا بها ؛ ولكن الحياة تصدمه دائماً بحقائقها المرة القاسية ، وتثبت له بكل برهان أكيد أن المثل العليا أوهام فى أخيلة الأطفال ، وسطور على صفحات الكتب – يكتبها فى الغالب أناس لا يؤمنون بها – وليست سطوراً حقيقية ثابتة على صفحات الحياة . ولكم يجنى اصطدام المثل العليا بحقائق الحياة على النفوس البضة ، فيبدّل من سيرة أصحابها تبديلا قد يؤدى إلى نتائج سيئة ، أو يصم حياتهم بالتهجم والألم المستمرين ، لأنه يولّد عندهم عقداً نفسية مؤلمة .

لذلك نرى فى صلاة الشاعر قبل نهاية « الأحلام » فى النشيد السادس والعشرين تعبيراً عن ألمه الصارخ من الحياة والوجود ، إذ يخاطب ربه قائلاً :

إلهى ، سألتك تدمير هذا الـ وجود وتحطيمه بيديكْ
سألتك خنق الشرور ، فهلا ، خنقت الشرور على قدميكْ ؟ !
ألست ترى فى الحياة جموعاً تقرّح أعمالهم ناظـــريكْ ؟
فأفن الوجود ، وخذهم إليك وإلا فياربّ خذنى إليكْ !

إنها غضبة غلام يعتقد أن فى استطاعته تبديل الكون ، وتغيير نواميس الحياة بحسب إرادته وطبقاً لمبادئه ومثله العليا ، فإذا لم يتمكن من ذلك ، فهو ينقم على الدنيا وما فيها ، ويريد هلاكها ، أو . . هلاكه هو نفسه إن لم يكن ممكناً إهلاك الكون كله . . .

ثم إن الشاعر الشاب يريد أن يعرف كل شىء عن الحياة وعما وراء الحياة ، ولكنه لا يصل إلى ما يريد . وهو إذ يرى نفسه ما يزال مدلجاً فى ظلمات حيرته لا يفتأ

يذكر الموت كثيراً فى أناشيد يقطر منها الألم الأسود ، ويحاول أن يجد لنفسه عزاء فى الموت لأنه شىء لابدّ منه . . .

وما أذكر القبر لو لم أجد فيـ ـه عرشاً توارثته من قرون
تبوّأه فى التراب جدودى وسوف أبوّؤه بعد حينِ
فمملكتى قيد باع ، وحصنى صخور تصدّ المغيرين دونى

أما فى المهجر فقد نظم شفيق قصيدة جديدة دعاها « عبقر » أطلق فيها العنان لخياله القوى ، وسكب فيها من روح الشاعر التى بدأت نضجها . وقد اشتهرت هذه القصيدة فى الأوساط الأدبية ، وبها تبدأ شهرة شفيق المعلوف الشعرية الحقيقية ، لأنها عمل أدبى وفنى يتميز بكثير من الجمال والنضوج الفكرى والخيالى (وقد درسناها فى القسم الأول من هذا الكتاب دراسة كافية) .

وفى عام ١٩٥١ أصدر ديوانه « لكل زهرة عبير » ، وهو مطبوع فى لبنان ويقع فى نحو مائة صفحة من القطع الصغير وينطوى هذا الديوان على ثمانى عشرة مقطوعة شعرية قصيرة ، قد ينزل عدد أبيات بعضها حتى لا يزيد على ثلاثة أبيات — كما فى قصيدته « إلى ابنى » — أو يرتفع فلا يتجاوز الأربعة والثلاثين من الأبيات — وهذا وقع فى قصيدة واحدة هى الأخيرة وعنوانها « خرائب بعلبك » .

على أن هذه المقطعات القصار التى نظمها شفيق فى مناسبات مختلفة وفى أزمنة وأماكن متباعدة ، إنما يجمع بينها حس مشبوب ، وخيال محلق ، وعبارة مشرقة ، وصور بارعة ؛ وتلك كلها من مميزات شعر الشفيق التى خبرناها فى « عبقر » وفى كثير من قصائده الأخرى . ومن صوره الشعرية البارعة قوله فى وصف الأم وهى تودّع ابنها على المرفأ :

فما نضبَتْ لمُقْلتها دمـــوعٌ كأنّ لعينها فى البحر غرْقَا

وفى وصف الراعى العاشق وقد علم أن معشوقته العالية قد زُفّت إلى غيره :

مالَ على نَايه ، ومقلتُه يشبّ من خلف مائها لهبُ
حتى إذا بثّ ما يجيشُ به غُضَّ ما فى ضلوعه القَصَبُ
كأنما الجرحُ — جرحُ مهجته كان على نايه له ثقبُ
فالناى لا يأتلى على فَـمـه يعبّ من قلبـــه وينتحبُ

وبهذا الأسلوب الشعرى الرقيق يمضى شاعرنا فى ديوانه الصغير ، فيحمله الكثير من المعانى الإنسانية المؤثرة التى تدل على قلب مفعم بالأحاسيس الجميلة النبيلة . خذ مثلا مقطوعته التى بعنوان « بسمة » والتى لا تزيد عن أربعة أبيات ، وفيها يقول :

كُنْ بسمةً بفم الضعيف ولا تَزِدْ بالله أتراحاً على أتراحـهِ
ما ضرّ أن يَحْظَى أخوك بحقه فترى فلاحك ناجــزاً بفلاحهِ ؟

وقصيدته « مشهد صيد » التى يصف فيها خروجه للصيد مع كلبه ، وبعد أن رمى برصاصه طائراً فأرداه وجاء كلبه يحمله إليه بفمه الممرّغ بالريش والدم ، أحس بالألم لاعتدائه على حياة مخلوق مسكين لم يذنبْ إليه . ومثل هذا ما نجده فى قصيدة « مصرع الأسد » ، وهو يقصد بها أسداً كان قد رباه إمبراطور الحبشة قبل أن تسقط بلاده فى أيدى الإيطاليين ، فلما أراد مغادرتها عند احتلال الأعداء لها ، عمد إلى الأسد فرماه برصاصه ليخلصه من أسر الأعداء . والقصة فى حد ذاتها مصدر وحى شديد التأثير للنفوس الحساسة ، فكيف إذا أتيح لها خيال موهوب كخيال شفيق المعلوف ! لقد نظم الشاعر قصيدته هذه مخاطباً الإمبراطور ، وفيها يقول :

ودّعْتَ قصرك بينما شرفاتــه لوّحْنَ للتوديـــع بالأستارِ
فإذا بزأرة ضَيْغَم صدمت لها جُدُرُ البلاط معاقل الأسوارِ
عَتَبٌ عليك زئيره . . . أفتَغْتدى حراًّ ، وتُبقيه حليف إسار ؟
أسدٌ يُزمجر فى الحديد ، جبهته خَلْفَ الحديد بنَهْرَة الأمـارِ
أقعى ، فرحْتَ تُجيل فيه ناظراً أجفانه نضناضة بشرارِ
وكأننى بك ناظرٌ فى شدقه أسداً بلندن ما وفى بذمارِ !
فرميتَ لبدته فزمْجَرَ وارتمى متخبِّطاً بدم الإباء الجارى
أوَخِفْتَ من ظفر العدوّ به فلم تسلمه للأنياب والأظفارِ ؟ !
لما استغاثك رُحْتَ تُؤثِر قتله من أن تسلم ضارياً لضوارى

إن الشعر لا تكون له قيمة كبيرة إن لم يستمد مواضيعه من قلب الحياة ؛ وقيمة شعر شفيق المعلوف تأتى من أن مواضيعه منتزعة من قلب الأرض ومن صميم

دنيا الناس ، وقد أضفى عليها الشاعر من رؤى السماء وخيالات عبقر ، فإذا هى فنّ أخاذ ، تطالعه ملتذاً مستمتعاً ، ثم تعود إلى نفسك تتحسس ما نبشته فيها قصائد الشفيق من معان إنسانية رقيقة مؤثرة ، وما طبعته على لوحتها من صور صافية . وكذلك كان هذا الديوان الذى دَفقَ صاحبُ « الأحلام » « عبيره » من جنات « عبقر » .

ومثله أيضاً جاء ديوانه الآخر « نداء المجاذيف » المطبوع فى لبنان أيضاً عام ١٩٥٢ . وهو مثل سابقه حجماً وأناقة ولطف شاعرية وقد جمع فيه شفيق خمس عشرة قصيدة من شعره العذب الأنيق ، فيها الحنين ، والوطنية ، والتأمل الشعرى الرقيق ، والشعر الاجتماعى الواقعى .

استمع إليه يصف قنبلة هيروشيما المجرمة :

سلبوا الشمس قطعةً من لظاها ورمـــوْها على العبـــاد تدورُ
فجَّـرُوهـا ملء الفضـــاء ذُرَيْـرا ت تَشَظَّى شرارُهـــا المستطـــيرُ
أغيــوثٌ سوداء تنهــلّ أم نـار تبيدُ الجسوم ، أم زمهريرُ ؟
يا لها من غمامة ساقَها الحقْـ د فجاشت بما تكنُّ الصدورُ
أين منهـــا على قبائل عـــاد عاصفٌ فيه يومهن الأخـــيرُ
أين سادوم ؟ أين أعمدة الملـ ح إذا ما تَلَفَّتَ المذعـــورُ
غَضَبُ الله صار فى حَوْزة العبـ د فأين الله القــوى القديرُ !

وسأكتفى ههنا بالإشارة إلى قصائد هذا الديوان ، بعد أن أكثرت من الاستشهاد بشعر سابقه . ومن هذه القصائد أضع الإصبع بشكل خاص على « نداء المجاذيف » و « غرناطة » و « لبنان » وبشكل أخصّ على قصيدة « حنين » .

إن أخص مزايا طابع شفيق معلوف الشعرى هى : قوة التصور ، وروعة التصوير ، وعذوبة الموسيقى الشعرية ، وقوة العبارة ورشاقتها . وهذه المزايا واضحة كل الوضوح فى كل دواوينه ، من « عبقر » إلى « نداء المجاذيف » و « لكل زهرة عبير » ، ثم إلى الديوانين اللذين صدرا كذلك فى لبنان ، وهما : « عيناك مهرجان » عام ١٩٦٠ ، و « سنابل راعوث » عام ١٩٦١

أما فى النثر فلا نعرف لشفيق معلوف غير كتاب واحد هو (حبّات زمرّد) وهو يضمّ مجموعة مقالات فى الأدب العربى القديم والحديث ، وفى أدب الفُرس والهنود . وقد صدر الكتاب فى منشورات وزارة الثقافة فى سوريا عام ١٩٦٦ .

٢٠ – شكر الله الجر
من العصبة الأندلسية

شكر الله الجرّ ، شاعر ، وناثر ، وناقد . وله فى هذه النواحى الثلاث جولات موفقات ، وفصول روائع : ففى الشعر صدر له فى المهجر ديوانان مطبوعان هما : « الروافد » ، و « زنابق الفجر » ، وفى النثر « نبى أورفليس » ، وكتابه النقدى اللطيف « المنقار الأحمر » . وبعد عودته النهائية إلى لبنان عام ١٩٦٢ صدرت له فى بيروت أربعة دواوين وكتابان نثريان . يضاف إلى كل هذا نتاج أدبى متفرق فى صحف المهجر الأدبية ، ولاسيما فى مجلته المحتجبة « الأندلس الجديدة » وفى مجلة « العصبة » . وقد مارس الجر الصحافة مدة وكان من فرسانها المجلين فى المهجر . وهو أخو الشاعر عقل الجرّ ، الذى توفى فى البرازيل عام ١٩٤٥ ، وله من العمر ستون عاماً .

كان شكر الله الجر أول من سعى لتأليف « العصبة الأندلسية » فى البرازيل ، وأول المنضمين إليها ؛ وتطوع للعمل لها ، وساهم فى تحقيق فكرتها ونشر رسالتها . وظلّ حتى النهاية من أعضائها البارزين ، ومن رسلها المخلصين .

ولد شكر الله فى ضيعة (يحشوش) قرب مدينة جبيل ، على الشاطئ اللبنانى ، ما بين بيروت وطرابلس . ويذكر عمر الدقاق فى كتابه (عنادل مهاجرة) أنه تلقّى رسالة من الشاعر تاريخها ١٦ / ١١ / ١٩٦٣ يؤكد فيها أن ولادته كانت عام ١٩٠٥ ؛ مع أن الشاعر نفسه كان قد ذكر فى مقدّمة ديوانه (زنابق الفجر) المطبوع فى البرازيل سنة ١٩٤٠ أن ولادته كانت عام ١٩٠٢ . والفرق بين التاريخين ثلاث سنوات ،برغم أن مصدرهما واحد ، هو صاحب القضيّة نفسه .

ويغلب على ظنّى أن مولد شكر الله كان قبل التاريخين ؛ فقد زرته فى منزله فى جبيل عام ١٩٧٤ ، فوجدته شيخاً مهدّماً ، أكثر ممّا تستطيع أن تفعله سبعون عاماً أو اثنان وسبعون عاماً . ولكنّ فقدان سجلاّت الميلاد فى العهد الذى وُلد فيه الشاعر – ومثله كان الأمر مع أبى ماضى ، وفرحات ، وكثيرين غيرهما – هو الذى أوقع فى مثل هذا الاضطراب فى تحديد عمر الشاعر وسنة ميلاده .

وهاجر شكر الله إلى البرازيل فى أعقاب الحرب الكونية الأولى ، وكان أخوه عقل قد سبقه إلى هناك . فاشتغلا بالتجارة معاً ؛ ولكن شكر الله لم يلبث أن انصرف إلى الصحافة ، فأنشأ مجلة « الأندلس الجديدة » ، وظل يحررها حتى صدرت الأوامر الرسمية فى الحرب العالمية الثانية بمنع نشر شىء فى عير لغة البرازيل الرسمية . فاحتجبت كما احتجب غيرها من الصحف ، وعاد شكر الله إلى التجارة . ولم يقدر للأندلس الجديدة عودة إلى الحياة بعد ، ولكن إذا كان شكر الله قد تخلى عن الصحافة ، فإنه ظلّ يمارس مهنة القلم إلى جانب التجارة .

وأول ما صدر له من المؤلفات هو ديوان « الروافد » المطبوع سنة ١٩٣٤ فى منشورات مجلة « الأندلس الجديدة » فى البرازيل . وهو يحتوى على عدد من القصائد الوطنية والاجتماعية التى تعبر عن فورة الشعور ، ونفرة الإباء ، ورقة الحنين .

وكان كتابه التالى هو « نبى أورفليس » المطبوع سنة ١٩٣٩ ؛ وهو يدور حول جبران خليل جبران . وقد تخلله بضعة رسوم من ريشة الشاعر نفسه ؛ فهو رسام ينحو برسمه المنحى الرمزى ، متأثراً فى ذلك بجبران إلى حد ما .

ثم يأتى ديوانه الثانى « زنابق الفجر » ، وفيه إلى جانب الشعر بضعة رسوم أخرى رمزية بريشة الشاعر نفسه . أما آخر كتبه المطبوعة فى المهجر فهو كتابه النقدى « المنقار الأحمر » ؛ وهو يحتوى على عدد من الفصول النقدية التى كان ينشرها فى « الأندلس الجديدة » .

مما يزيد فى تقدير قيمة أدبه النقدى ، بنوع خاص ، فورة أسلوبه وجرأته التى تصل أحياناً إلى القسوة ، ولكنها فى قسوتها تضع المشرط على مكان الداء لتستأصله . ولعل من أجمل فصوله النقدية مقاله على المتنبى ، وعلى « أدباء معاصرون

لحبيب الزحلاوى ، و كتاب « جبران » لمخائيل نعيمه ، ومن تعريفه للنقد الأدبى ندرك قبل غايته وإخلاصه للأدب . فهو يقول :

« ليس هنالك نقد عنيف أو نقد لطيف ، بل هنالك إما نقد مصيب وإما نقد مخطئ . الأدب قوام الشعوب والأمم ، والنقد قوام الأدب والفن » . ذلك هو تعريفه ، وما دام النقد كذلك فعبثاً نحاول استغلاله للتقارظ والمجاملة لأن الحقائق لا تعرف المجاملات .

ثم يقول فى مكان آخر فى تعريف الناقد وبيان مهمته : « لذلك أقول بوجوب اجتماع ملكة النقد إلى ملكة الشعر والنثر فى نفس الأديب ، يهيمن عليها كلها الذوق الفنى الخالص ، فيكون لنا الناقد الذى ننشده » وقد جمع أديبنا النقادة بين ملكة النقد ، وملكة الشعر والنثر ، والذوق الفنى ، فكان ناقداً بصيراً موفقاً يجرى على مقاييس عالية للأدب ، وعلى تمجيد المعانى الإنسانية والفكرية الرفيعة .

وليس فى الإمكان أن أنقل ها هنا شيئاً من أحكامه النقدية ، لأن ذلك يتطلب فراغاً أكثر من هذا . ولكن الذى يطالع كتاب « المنقار الأحمر » سيجد الكثير مما يستحق أن يظفر بإعجابه وثنائه .

أما كتاب « نبى أورفليس » فهو كتاب لم تعرف العربية مثله قبل كتاب « يسوع ابن الإنسان » لجبران خليل جبران – فى ترجمته العربية – فإن شدة إعجاب الأديب الجر بنابغة العرب الكبير جبران دفعته إلى وضع هذا الكتاب حوله بمثل أسلوب جبران فى « يسوع ابن الإنسان » ؛ فإذا كان جبران قد خلق هناك أشخاصاً كثيرين ، بين رجال ونساء ، وخلق على ألسنتهم كلاماً حول المسيح وحياته وتعاليمه ، فقـد فعل شكر الله الجر كذلك : فخلق أشخاصاً كثيرين ، بين رجال ونساء ، ووضع على ألسنتهم كلاماً حول جبران يكاد القارئ يحسبه من كلام جبران نفسه ؛ فهو من نوع الإنشاء الجبرانى الخيالى الرشيق . وقد وفق فى طريقته هذه توفيقاً غريباً ، فقدم لنا من جبران صورًا لا نعرف إنساناً قبل شكر الله أنصف نابغة العرب العظيم بمثلها . فالكتاب فى رأيى هو أحسن كتاب يتحدث على جبران لينصف جبران وأدب جبران .

إن مؤلف « نبى أورفليس » يمجد جبران ويكاد يقدسه ، وهو يعده أحد

معلمى الإنسانية الكبار . ويختم الفصل الأخير من كتابه بأن يجعل جبران أخاً للمسيح . ولسنا نعتقد بأن المؤلف قد غالى فى تقديره ، وإنما وضعه حيث يجب أن يكون ، فما عرفت العربية حتى الآن أديباً غيره نشر رسالة الشرق الروحية فى أجواء الغرب المادية ، وأصبح أدبه الإنسانى جزءاً من تراث الإنسانية الخالد ، يقرأه الناس فى مشارق الأرض ومغاربها بلذة وغبطة فيمجدون القلم الذى جرى بهذا السحر الحلال ، والذى فجر لهم هذه الينابيع الحية من الحق والمحبة والحكمة .

وإذا كان جبران قد اتخذ من كتابه « يسوع ابن الإنسان » معرضاً لبث أفكاره الخاصة ، ونشر شيء من رسالته الأدبية ، فقد فعل الأديب الجر مثله تماماً ، فجعل من « نبي أورفليس » مسرحاً لعرض أفكاره الاجتماعية والأدبية بحسب مناسباتها . فهو مرة يذكر رأيه فى « الأبناء » فيقول : « . . . البنون والعافية هما فرح الحياة الدنيا ، وإنما نحن نعيش فى أبنائنا كما عاش آباؤنا فينا . إن كيانهم يعيش فى كياننا مجتمعاً ومنفرداً ، فهم ينظرون إلينا بأعيننا ، ويرقصون بأقدامنا ، ويحبون بقلوبنا ، ويتكلمون بأصواتنا » .

وفى مناسبة أخرى يتحدث على معاملة الأزواج ، فيقول على لسان جبران مخاطباً رساماً أميركيًّا يريد أن يطلق زوجته : « . . . إذا حطمت هذه الشرائع الزوجية التى ربطت كيانك بكيان هذه المخلوقة التى هى زوجك وأم أولادك ، فهل بوسعك أن تمزق تلك الشبكة التى طرحتاها معاً فى أمواج بحر الحياة ، وأخرجت لكما هذه الأسماك الصغيرة التى تتقلب أبداً فى بحيرة حنانكما الواسع ؟ هل لك إذا طلقتها أن تطلق معها ذكريات الحب والصبا؟ وأين لك أن تقتلعها من ماضيك إذا اقتلعتها من حديقة قلبك ؟ . . لا تطلب الطلاق بل دع زوجتك وشأنها ، دع الحياة تحطمها على شواطئها الصخرية الشائكة ، فهى لا بدّ راجعة إلى نفسها رجوع الموجة المنكسرة إلى الشاطئ الحزين لتحتضن رماله وحصاه بتوق وندمة . . . وإن الذى لا يغتفر للمرأة هفواتها الصغيرة لا يتمتع بحسناتها الكثيرة . وإذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة ، فليزن أولا قلب زوجها بالموازين » ؛ وبعض هذا من كلام جبران نفسه .

وأما من أقواله فى جبران ، فنقتطف ما يلى :

١ – على لسان شاعر من « الرابطة القلمية » ؛ « لقد كان – جبران – الحرارة فى نفوسنا ، والعذوبة فى أرواحنا ، والجمال فى أعيننا . لقد كان الخيال فى أدبنا ، والقوة فى ضعفنا والفكرة النيرة فى قلوبنا ، والجديدة فى قديمنا . . . لقد كان المحرك الأكبر لأفكارنا وأقوالنا ، والمنارة المضيئة على شواطئ أحلامنا » .

٢ – على لسان أديبة دمشقية : « . . . نعم ، لقد خلق لنا جبران لغة لكل ما كنا ندركه ونحسه ولا نقوى على تصويره والإفصاح عنه . وإنى لا أدرى ، هل وجدت اللغة العربية حاجتها فى جبران ، أم وجد حاجته فيها ؟ . . . أما الآن فقد اهتديت بفضل اللغة الجبرانية إلى ألوان عديدة فى الكلام ، واكتشفت على ضوء روحه ألواناً جديدة فى عواطفى . . . إن شاعر الجليل – المسيح – قد خلق لنا الإيمان بالحياة ، وأما شاعر الوادى المقدس – جبران – فقد خلق لنا الإيمان بالأدب ؛ فهو إذاً مسيح هذه اللغة ومخلّصها » !

هذه هى طريقة شكر الله الجر فى إنصاف جبران ، وفى تعريف جبران إلى من لا يعرفونه ، وهذه بعض أقواله فيه . لقد خلق شكر الله سبعة وعشرين شخصاً ، وأنطقهم بكلام على جبران فيه خيال جميل ، وشاعرية محلقة ، وفيه قوة ورشاقة ، وبراعة أدبية فائقة . وكان آخر أشخاصه « هو نفسه » تحت عنوان « شاعر من يحشوش » ، كما كان آخر فصل فى كتاب « يسوع ابن الإنسان » على لسان جبران نفسه تحت عنوان « شاعر من لبنان » . ويختم المؤلف كتابه على الجملة التالية التى تدلنا على مدى التقدير الجميل الذى يحمله شكر الله لجبران : « . . . وفى تلك الليلة الرهيبة من عام ١٨٨٣ ولد فى جوار أرز الرب ، على أكتاف الوادى المقدس ، شقيق ليسوع اسمه جبران » . . .

أما أول أشخاصه فهى « ألميترا » صاحبة « المصْطفى » نبى جبران وقد أجرى الكاتب على لسانها نجوى رقيقة لطيفة تشيّع بها « نبيّها » الراحل ، بعد أن ملأ قلبها بحبه ، وملأ كيانها بوجوده . وفى ما يلى بعض نجواها ؛ وهى تعيد إلى أذهاننا كلام جبران وخياله ، وأسلوبه الرقيق البارع : « وأخيراً عادت سفينتك لتقلع بك عن هذه الجزيرة يا نبى الله ، وأقفرت الشواطئ منك يا زورق أحلامى الذهبية . ولكننى سأظل كالدوحة العارية على هذا الخليج العريض إلى أن يعيدك إلىّ مد

الصباح . حينئذ تعود إلىّ الحياة ، فتورق أغصانى ، وتزهر أفنانى . . . أصحيح أن هنالك ، حيث ينتصب الحور على ضفاف الأنهر البلورية ، وحيث يرف الحمام البرى الأبيض فى جو بلادك الأزرق البليل . . . أصحيح أن هنالك سترقد عظامك يا حبيبى ؟ ! ولكن لا . إنك لم تمت – عندى – يا جبران ! فإن هذا القلب الذى كان عشاً لأهازيج فتوتك ، ومسرحاً لرغبات شبيبتك ، وميداناً لمطامح رجولتك ، سيظل مردداً حتى النهاية أنغامك ، مزيناً جدرانه برسوم أحلامك . . . إنك حى فى رغبات قلبى وأشواقه يا حبيبى ! »

ونلاحظ هنا أن المؤلف قد استمد أهم ما فى كتابه من جبران نفسه ، فعنوان الكتاب منتزع من كتاب « النبى » لجبران ، لأن المصطفى – نبى جبران – كان يقيم فى مدينة أورفليس حتى عادت إليه سفينته التى حملته إلى جزيرته النائية . و« أليترا » التى شيعت جبران فى « نبى أورفليس » بنجوى الحب الخالد ، هى عينها « أليترا » التى شيعت المصطفى فى « نبى » جبران . والخيال والأسلوب البيانى ، وطريقة التأليف فى « نبى أورفليس » هى عينها خيال جبران ، وأسلوبه البيانى وطريقة تأليفه فى « يسوع ابن الإنسان » .

وفى يقينى أن هذه هى أحسن طريقة فى تمجيد جبران ، وفى تكريم الأديب الذى عاد إلى الأذهان رسالات أنبياء الشرق الكبار ، فى دنيا الدولار والآلة ، فكان رسولاً عظيماً ، وأديباً كبيراً ، وشاعراً إنسانياً مبدعاً .

هذا هو شكر الله الجر فى نثره ، ناقداً ومؤلفاً ، أما شكر الله الشاعر فنراه فى ديوانيه : الروافد ، وزنابق الفجر ، وكذلك فى كتبه الشعرية الجديدة التى صورت فى لبنان ، شاعراً واسع الأفق ، رحيب الخيال ؛ فى شعره عاطفة قوية ، وفكرة نيرة :

ينظم فى الحنين ، فإذا هو شعور رهيف معذب ،

وينظم فى وصف الطبيعة ، فإذا هو إحساس فسيح ، وخيال منحلق ،

وينظم فى الوطنية ، فإذا هو ثورة ونقمة ولهيب .

وينظم فى معانى الحياة والوجود ، فإذا هو فكر نيّر ، يغنّى له خيال خصيب وحس دفوق . وتبقى ناحية من عاطفته لها نصيبها الكبير من قصيده ؛ وحين نبحث

عنها ، نجد الشاعر يجعلها شيئاً هو الشمول ، وهو الحياة ، والتعبير عنها هو التعبير الأكمل عن شمول الحياة والوجود . تلك هى « زاوية الحب والمرأة » : فهو فى مقدمة ديوانه « زنابق الفجر » يقول : « الرجال عندى يمثلون الموت فى أنانيتهم الصارخة ، فقد خلقوا ليأخذوا ، بينما المرأة – وهى الحياة عينها – خلقت لتعطى ولتعطى أبداً . . . وإنه لمن الجحود الناطق أن لا نعبد الحياة فى المرأة ، وهى مستودع وجودها ، بل من الكفر بنعمة الوجود أن لا تكون المرأة كل شىء فى حياة الشاعر ، وهى معبق طيبه ، وقارورة أحلامه ، ووسيلة اتصاله بالأجيال نسلا وإلهاماً . . . » وهى مثل ذلك أيضا فى روايتيه (الوشاح الأبيض) و (جزر الخطيئة) اللتين صدرتا بعد عودته إلى لبنان .

وليس يهم أن نخالف الشاعر فى رأيه هذا أو نوافقه ، غير أن فى دفاعه حرارة وقوة . وله ما يراه ما دام مقتنعاً بذلك ، ولن نرميه بما خشى هو أن يرمى به من تهتك وفجور ، فما كان الناقد حاكماً ومشرعاً أخلاقيًّا فيجرّم الناس أو يؤيدهم ، وإنما هو فنان يبحث عن الجمال والحيوية . والذى يهمنى إذاً هو الصدق والحرارة ، والسعة والجمال ، وقد وجدت من ذلك كله شيئاً كثيراً فى شعر شكر الله الجر ونثره ؛ وذلك حسبى .

والشاعر نفسه لا يهمه أن يخالفه الناس أو يوافقوه فيما يرتئى ، فهو يقول فى قصيدته « صدق العقيدة » :

قنعتُ من الدّنيا بصدق عقيـدتى ... فلست أبالى ما أصادف من نُكْـرِ

وهى قصيدة جميلة ، تدلنا على شىء من مذهب الشاعر الفكرى والإنسانى ، ومنها قوله :

وبى غضبةٌ للشعر والحقّ لو مشت ... على الجبل الراسى ، اقشعرّ من الذّعرِ
ولـكن قوماً لم يحرك إبـاءهم ... هَوَانٌ وجُوع ، هل يحرّكهم شعرى؟
ومـا ضائرى أن قيـل إنىَ مُلحـدٌ ... وإنىَ جاوزت التطـرّف فى كُفْرى
هُمو يعبدون الله فى ثوب راهب ... وأعبـده بالنـور والمـاء والزهر
وأعبده بالغصن يعطى ثمـاره ... وأعبـده بالبـذر يثمر فى الصخرِ
وأعبـده بالبحـر والصّبح والدّجى ... وأعبـده بالشمس والنجم والبـدر

أرى فى جمال الكائنات جمالَه فأملأ نفسى من محاسنه الغُرّ
وأشهدُ فى موت الحياة خلودَه فنى الموت سرّ يربط المهد بالقبر

ولنمض مع الشاعر فى قصيده التأملى أولا ، فالتأمل هو السلسلة الذهبية التى تربط الواقع بالغيب ، فتقود إلى إدراك حقائق الكون الكبرى ، وفيه تتجرد النفس إلاّ من حب الحقيقة ، وتنصرف بكليتها إلى استكناه الجمال فى الحياة وفيما وراء الحياة . فالوجود الأكبر هو ميدانها ، تتلقى آفاقه الرحاب رفّات أجنحتها ، وهمسات شوقها ، وتمتمات حنينها إلى المجهول وإلى ما فى المجهول من رموز وجواذب تدفع إلى التفكير والتساؤل . وقد تجد النفس جواباً عن هذا التساؤل ، وقد يرتد إليها صوتها دون صدى ، أو قد يكون فى رجعة الصوت وحده كل الجواب . وماذا تجد النفس المتأملة سوى جمال الوحدانية فى الوجود الشامل ، وقدسية الحياة الكبرى ، وسمو الإيمان بالجمال الأسمى ؟

. . . فصلاةُ الطير فى الرّبوة والسفح غناءْ
وعبيرُ الزهر بخورٌ تعالى فى الهواءْ
لا يضيرُ اللهَ أن نعبدَه حيثُ ، نشاءْ
هيكل الله جبالٌ ، وبحار وسماءْ
وعَلاَمَ القولُ : « إنّ اللهَ قد حُجّب عنّا »
هو فى الليل وفى الفجر إذا فتّحتَ جَفْنا
هو فى البرق وفى الرّعد إذا أرْهَفْتَ أذْنا
هو فى الأكوان مذ كانت ، وفينا مُنْذُ كنّا

والواقع أننا إذا أردنا أن نلخص مواضيع ديوان « زنابق الفجر » قلنا إنها « تأمل ، وألم ، وحب » . وتحت التأمل نستطيع أن نجمع قصائد الطبيعة فى حين يرفّ جناح الحنين تحت قصائد الألم ، أما الحب فيمدّ أحد جناحيه إلى « التأمل » والثانى إلى « الألم » ، ويغذيهما بنورة العاطفة ودفق الجمال .

ونحن إذا نظرنا فى شعر الطبيعة من قصائد شكر الله وجدنا خيالات وأحاسيس كلها لطف وجمال . خذ مثلا قصيدة « شلال تيجوكا » التى يقول فيها الشاعر مخاطباً الشلال :

أشلالَ تيجوكا ! ماذا النّـواح أتبكى نظيرى نعيماً غَـبَرْ ؟
تـرى أنت عين الزمان تثرّ الـ ـدموعَ ، أم انك صوتُ القدرْ ؟
غسلتُ بمائكَ عينى وعُـدْتُ فأبصرتُ مـا النـاسُ لا تبصرُ
فبالله قُـلْ لى إلامَ تظـــلّ كـذلك تجتـــازك الأعْصرُ
وأنت تكرّ كرورَ الزّمـــان فـلا تستقرّ ولا تفـــترُ
وهذا الـزمان كما كان قبلا : شعوب تجىء وأخـرى تروحْ
ودنيـا تضـــجُّ بسـكانها فهـذا يغنى ، وهـذا ينـوحْ
وذلك مستسلم للقدرْ

فتجد فى هذا نجوى كلها تأمل واعتبار ، وكلها خيال وجمال . وتمضى فى القصيدة حتى نهايتها ، فإذا أنت تتنقل مع معانيها الجميلات وأحاسيسها اللطاف ، كما تنتقل النحلة فى حديقة ملأى بالزهر .

إن الكآبة التى تطوف بنفوس الشعراء فى لحظات من التأمل الصامت ، كثيراً ما كانت ينبوعاً ثرًّا للشعر الرقيق الحزين . والشاعر كثيراً ما يرش على المخلوقات الأمل والتعزية ، ولكنه يترك لقلبه الألم الكبير . وكذلك فعل شاعرنا الجرّ قصائد عديدة ، منها « زهرة الورد » التى بدأها بنجوى للوردة جميلة منمقة بالخيال الجميل .

زهـرةَ الورد ! قبَّل الفجر خدَّيْـ ـك وخلاّك فى الحديقة فَجْرَا
وحبـاك الضحى من الشمس ألوا نـاً أراها تشع فى الثغـر درَّا
وهفا يحتسى على شفتيك الـ ـنَّحل فى غفلة من الزّهر قطرَا
وتمشّى النسيم بين شعـاب الـ ـأرض يلقى من عطر روحك عطرا

وقد ختمها بهذا البيت الجميل :

أنت يا وردة الحـديقـة تَذْويـ ـن نظيرى لتنعشى الآخرينا

* * *

والحنين إلى الوطن ، هذه العاطفة الملتاعة المحترقة التى لا نعرف فى الشعر العربى تعبيراً عنها أحر وأصدق وأوسع من تعبير شعراء المهجر ، لقد أحس بها الشاعر شكر الله الجرّ فقدم إلينا منها صوراً حارة صادقة . خذ قصيدته « حنين » فى ديوانه « زنابق الفجر » لتستمع إلى هذه العاطفة المتفجرة بالألم العميق :

أىّ عشٍّ فارقْتــهُ – ليت شعـــرى – أىّ روض أقصيته عن عيــونى
أىّ وكــر لم يبقَ مـــن زقزقـــاتى فيه غير الصّدى ورَجْــع الحنينِ
ليتنى ما علقت فى شرك الأطـــماع يوماً ، ولا جننت جنــونى
ضـــاع عمرى سدًى ، وشمس شبابى لوحت للمغيب خلف السنين
غربة أقسم الزمـــان بأن يقـــتصّ مني بهـــا لأمى الحـــزين
فإذا ما جنيت فى الـــــروض ورداً عاد شوكاً فى راحتى يدميـــني
وإذا مسَّتِ الجليـــــدَ بنـــــانى صار جمراً فى قبضتى يكـــويني

ومثل هذه القطعة غير قليل فى شعر شكر الله الجرّ ، لا يتسع المجال لسرده ؛ وفى هذا النموذج خير الدلالة عليه .

غير أنه إذا كان الحنين هو عاطفة الحب المتلهف الذى يحمله الغريب لوطنه ، فإن هذا الحنين يرافقه عادة غيرة على حرية الوطن ورقيه ومجده ، ونقمة على أعدائه وظالميه . ونحن واجدون فى شعر شكر الله الجرّ كثيراً من هذا ، وعلى الأخص فى ديوانه « الروافد » . فلقد كان لبنان مطية للمستعمر ، كغيره من الأقطار العربية ؛ وهذا ما كان يحزّ فى نفس كل مخلص من أبنائه المقيمين والمغتربين على السواء ، ولكنه فى أدب المغتربين أبرز وأقوى ، لأن مجال القول والتعبير عن ثورة العاطفة عندهم أرحب وأكثر حرية ، فما تمتدّ إليهم يد المستعمر أو الحاكم المستبد بأذًى . وهذه أبيات لشكر الله فى معني الوطنية الثائرة ، من قصيدته « تحية الشمال » :

لبنانُ ! كيف غدَتْ ربوعُك بعدَمـا عصفت رياح البؤس فى أصلابها ؟
أوْدَى الدّخيـــل بزهْوهـــا ونعيمها ومضى الزمان بحسنها وخضابها
الليث مغلولُ اليمــــين مكمّمٌ مَن ذا تـــراه يذود شرَّ ذئابهـــا
ما القيـد فى غلّ اليمــــين وإنمـــا فى أن يُكَمّ الحـــرُّ من كُتّابها
لعب الشقاء بأهلهـــا فتفرّقـــوا فى الأرض بين شعوبهـــا وشعابها
فغدت مناخاً للغــــريب وموطنـــاً وغـــدا بنوها النجب مـــن أغرابها

وها هو ذا يذكر بملء الأسى والحنين سبب هجرة اللبنانيين من وطنهم ، فيقول فى « سوانح غريب » :

إيــه لبنانُ ! يشهــدُ اللهُ أنّـــا   ما هجرناك عن قِلًى وصــــــلابه
إنما أصبــح المقامُ بـــأرض الـ   أرز للحــرّ ذلـــة ومعـــابه
كيف لا يهجــر الأبىّ مكانــاً   ملأ اليأسُ جــوّه ورحابـــه
وطــنٌ نــام كالنعـــاج بنـوه   نومةً أيقظت عليـــه ذئابــه
وطــنٌ ضعضع التخــاذلُ أهليـ   ـه وحط الشقاء فيــه ركابــه
أنشب الجهــل ظفــرَه ببنيــه   حيثما أغـــرز التعصب نابــه

وما أكثر معانى الوطنية والحنين فى شعر شكر الله وما أحرّها . إنها تعبير عن صدق مخلص وعن حب عميق ، يزخر ديوان « الروافد » بما انصب فيه منهما من فيض نفس الشاعر الحساسة .

* * *

ولقد عاد شكر الله إلى لبنان عام ١٩٦٢ ، وانصرف إلى جمع شعر أخيه عقل وطبعه فى ديوان ؛ ثم عنى بإعادة جثمان أخيه من البرازيل ، ودفنه فى مدينة جبيل . وفى الوقت نفسه مضى يجمع أعماله الأدبية الشعرية والنثرية ، ويطبعها فى كتب ؛ وما بين عام ١٩٦٢ و ١٩٧٣ أصدر (أغانى الليل – ومن خوابى الزمن – وقرطاجة ، ولا بيس الكورنثية – وبروق ورعود) شعراً ، و(الشبح الأبيض – وجزر الخطيئة) نثراً .

وفى صباح يوم الأحد ٢٢ / ٢ / ١٩٧٥ أغمض الشاعر عينيه فى رقدته الأبدية فى منزله فى مدينة جبيل .

٢١ – عقل الجر
من العصبة الأندلسية

إذا كان أغلب المشاهير من أدباء المهجر قد وصلوا إلى ديار الهجرة فى بواكير الفتوة ولم يتح لهم إلا حظ ضئيل من الثقافة المدرسية ، وفى الغربة تفتحت مواهبهم الأدبية واستقامت لهم أساليب البيان ، فإن عقل الجر يختلف عنهم

فى كل ذلك : فقد نال من الثقافة المدرسية حظًّا غير ضئيل ، إذ أنه درس فى مدارس مختلفة حتى أنهى الدراسة الابتدائية ، ثم التحق بمدرسة الحكمة فى بيروت فتتلمذ فيها على الشيخ عبد الله البستانى . ودرس الطب سنة واحدة ، ثم هجره ودرس المحاماة ولكنه لم يستمر فيها حتى النهاية .

وبعد ذلك اشتغل فى حقل السياسة ضدّ حكم مظفر باشا التركى فى لبنان ، بمعية الشيخ فريد الخازن ، وراح يكتب فى جريدة « الأرز » مقالات نارية يلهب بها الجماهير لتأييد حركة الخازن السياسية ؛ وكان يخطب فى الجماهير كذلك لهذا الغرض مثيراً حماستهم لأجل حرية بلدهم . واشترك فى تأسيس جمعية انضم إليها عشرون قرية من قرى منطقة الفتوح فى لبنان ، وأصبح هو رئيس الجمعية .

فلما تضايقت حكومة لبنان التركية من نشاطه السياسى جدّت فى طلبه ، ففر إلى مصر عام ١٩١٢ ، واتخذ من جريدة الأهرام – التى كان يحررها آنذاك نَسيبُه داود بركات – مجالا لمواصلة نشاطه السياسى . فطلبت الحكومة التركية إلى حكومة مصر أن تخرجه من هناك ، فلم تفعل ؛ وظل عقل فى مصر نحو ثلاث سنوات حتى زال حكم مظفر باشا ، وعند ذاك عاد إلى لبنان عودة الزعيم المظفر .

غير أنه لم يلبث أن غادر لبنان عام ١٩١٤ بتأثير أقاربه الذين رأوا فى اشتغاله بالسياسة والصحافة السياسية خطراً على حياته . فعرّج على مصر ، ومن هناك سافر إلى باريس ؛ ولم يكن فى نيته قط أن يغترب طويلا ، بل كان يعتزم العودة فى وقت قريب إلى وطنه . إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى حال دون عودته ، فلم يجد بدًّا من السفر إلى البرازيل ، وأقام فى عاصمتها – ريودى جانيرو – يعمل فى التجارة وفى الصحافة معاً .

ولم يكن فى وسع عقل الجر أن ينصرف إلى التجارة وحدها ، وهو الذى تمرس بالوطنية ، وبالنضال السياسي ، وكان حب وطنه لبنان لديه ضرباً من العبادة والتقديس ؛ وأصبح خيال الوطن فى الغربة رفيقه الملازم ، فأنشأ فى الريو نادياً أدبيًّا واجتماعيًّا دعاه « النادى الفينيقى » ، لم يلبث أن أصبح أكبر النوادى

الأدبية هناك ، وأكثرها ازدهاراً ونشاطاً ، وكان ملتقى الصفوة من كبار الجالية ورجال الفكر والسياسة ، المقيمين والقادمين للزيارة . وكان عقل رئيساً للنادى سنوات من عمره .

وفى البرازيل برزت مواهب عقل الأدبية ، فى الشعر والنثر ، بعد أن كان نشاطه فى الوطن مقتصراً على الأدب السياسى والصحافة الحزبية . وفى فترة قصيرة أصبح من أبرز شعراء المهجر الجنوبى .

ولم يقتصر نشاطه الفكرى على الكتابة باللغة العربية وحدها ، بل كان يكتب كذلك باللغة البرتغالية ، وعلى الأخص فى مجلة تدعى « الكورايو دامانيان » . ويقول أخوه شكر الله إنه « كانت له مساجلات تاريخية عن فينيقيا مع بعض أعضاء المجمع العلمى فى الريو ، كان فيها حليفه المنطق والاستنتاج التاريخى الراهن ، فتلقّ رسائل الإعجاب من كبار المؤرخين والباحثين . ولو جمعت مقالاته فى البرتغالية بهذا الموضوع ، لجاءت كتاباً غنيًّا بالمعلومات القيمة » .

ومما يدل على سعة شهرته الأدبية هناك ما ذكره عنه توفيق ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » وهو : « فى أواخر عام ١٩٢٢ عاد الشاعر القروى من العاصمة – الريو – يحمل إلىّ من تاجر أديب أسمه « عقل الجر » مبلغ ألف قرش ، مع اعتذار رقيق عن الإقلال ، ثمن خمس نسخ من كتابى « مختارات الجديد » ، فبعثت بالنسخ مع كتاب شكر . فأجابنى عقل بما يفضل المال من روائع بيانه . ومنذ ذلك العهد أصبح لى صديق لا أعرفه شخصيًّا اسمه عقل الجر . على أنى كنت قرأت عقلا قبل ذلك ، وأعجبت به كاتباً وشاعراً . أما أن تصدر من حجة مثله تلك البادرة الطوعية الدالة على الاستحسان والتشجيع ، فهذا ما لم أكن أحلم به عمرى . . . »

ولقد عاش عقل فى المهجر ، ولكنه كان يحن إلى لبنان حنيناً لهيفاً ، تعبر عنه الأبيات التالية :

ولست آسَى على شىء أساىَ عـــلى ... عمر تصرّم فى الهجـــران أبكيهِ
وما احتياجاً نزوحى كان عـــن وطنى ... لكنهـــا نزوات الطيش والتيـــهِ
لله لبنـــان ، لو أنى بقيت لـــــه ... علّمت من فيه كيف الأسد تحميهِ !

وقوله فى قصيدة أخرى :

وطنٌ بالعيـــون نسقى ثَـــراه ... إن توانَى الغمـــام عن إمطـــارِهْ
إن حرمنـــا من نعمة العيش فيه ... لا حرمنا من مرقد فى جـــوارِهْ !

وفى قصيدة ثالثة :

أسفًا للأديب فهـــو غريبٌ ... قلق القلب أين حلَّ وسارا
لم ينل من حنينـــه المالَ والجـا ... ه ، ولم يُنسه الجمالُ الديـــارا
هو فى غربةٍ يحـول فيها الـــ ... شوق أفـــراحَ قلبـــه أكـدارا

ولقد رأى مرة صوراً من مناظر لبنان تعرض على الشاشة أمامه فثار فى نفسه الشوق والحنين ، فقال :

أكلُّ نصيبى من بـلادى أنْ أرى ... على الشاشة البيضـــاء رسْم خيالها !
أحـنُّ إليهـــا والموانـــــع جمَّـة ... فمن ذا مُنيلى ساعةً فى ظـــلالها
فأحثـو على وجهى رمـــالَ شطوطها ... وألهب بالتقبيل ثلج جبالهـــا !

والشواطئ تثير خيال عقل الجر ، فهو ابن قرية يحشوش – قرب جبيل – على الساحل اللبنانى الجميل . وكم كان الشاطئ الرملى هناك ملعباً له فى طفولته ، وكم ركض خلف الأمواج هناك وركضت خلفه الأمواج ، وكم ترامى عليها عابثاً لاهياً !

وكان عقل يحب لبنان حرًّا مستقلاً ، يحسن علاقاته بجاراته الأقطار العربية ولكنه لا يندمج فيها ، ولا يتخلى معها عن استقلاله . وقد لازمته هذه الفكرة إلى آخر حياته . على أن رغبته فى أن يصون لبنانه استقلاله بغير أن يندمج فى وحدة مع الأقطار العربية الأخرى أو سواها لم يكن يمنعه من المفاخرة بعروبته ولسانه العربى . فللعروبة من شعره ونثره نصيب وافر .

وفى عام ١٩٢٨ أزمع عقل أن يعود إلى وطنه ، فرأى أصحابه أن يقيموا له حفلة وداعية . وقد نظم لتلك الحفلة قصيدة فى أكثر من ثلاثين بيتاً . وفى تلك القصيدة يقول مودعاً البرازيل وإخوانه العرب فيها :

وداعاً أيُّهـــا البلـــدُ الجميلُ ... فقد أزفَ النوى ودنا الرحيـلُ
وداعاً ليس يعقبـــه لقـــاءٌ ... إذا يحشوش نادت أو جبيـــلُ

ولست أعقّ فضلَك غيرَ أنى ... إلى وطن ربيتُ به أميلُ
تغلغل حبه فى القلب حتَّى ... تولانى من الحبّ النحولُ
صحابى ! عهدُ ألفتنا تولّى ... فلا كأسٌ تدارُ ولا شمولُ
أغادركم وفى الأحشاء نارٌ ... أبى إطفاءها دمعٌ يسيلُ
سأذكركم إذا الأرزُ احتوانى ... غداً ، وأفاءنى الظلّ الظليلُ
ومن لبنان آوتنى جنانٌ ... يموج ربيعُها الزاهى الخضيلُ
تغنيه الطيور على السواقى ... فترقص فى ظَيالسها الحقولُ
فوا شوقى إلى فردوس عدن ... قضى بفراقه طمعٌ وبيلُ
وددت لو ان جسمى قيدُ روحى ... لكان من السفينة لى بديلُ
فخير مغانم الدنيا غريبٌ ... يتاحُ له إلى الوطن القفُولُ
سأنقل من تحاياكم عبيراً ... زكيًّا تنتشى منه العقولُ
أردّد ذكركم للأرز حتَّى ... أرى أغصانه طرباً تميلُ
أقول له : بَنوك بُنود مجد ... وأُسْدٌ فى مهاجرها تَصولُ
فإن يسأل : متى عينى تراهم ؟ ... أقفْ أسفاً وأجهل ما أقولُ !

غير أن الموانع قامت فى وجهه فمنعته من العودة ؛ وهكذا لم يقدر لهذه القصيدة الوداعية الجميلة أن تُلقى أو تنشر ، حتى طواه الردى بعد ذلك بسبعة عشر عاماً ، عاشها عقل متقلباً على اللظى والشوك من حنينه المحرق إلى وطن الأرز .

على أن شعر الجر لم يقتصر على الحنين والوطنية ، فله شعر كثير متنوّع المواضيع ، فى الغزل وفى الأمومة ، والطفولة ، والوصف ، والطبيعة ، وغير ذلك .

ولقد ذكرت الطفولة فى شعره ، ولكن عقل الجر لم يعرف الزواج والأبناء فى حياته التى بلغت ستين عاماً ، غير أن خياله كان يتأثر بمنظر الأطفال وأمهاتهم ، وكان ذلك يوحى إليه أحياناً بالشعر الجميل ، كما فى قصيدته « ولدى » التى يحسب كل من يقرأها أن الشاعر قد نظمها فى ابن له ، وهو إنما نظمها على لسان أم تخاطب ابنها .

وفى العامين الأخيرين من حياة عقل الجر أصيب بمرض شديد لم يهتد أطباء الريو إلى حقيقته ، حتى هدّه المرض وكاد يخترم حياته ؛ فاضطر فى أوائل

عام ١٩٤٥ إلى الذهاب إلى سان باولو . وهناك استقبله إخوانه فى العصبة الأندلسية بكل شوق وترحاب وعناية . وأدخل مستشفى هناك ، فبقى فيه حتى وافاه الأجل المحتوم ، ودفن فى سان باولو بما يليق به من إكرام عظيم . وأقامت له العصبة الأندلسية حفلة تذكارية كبرى ، كانت من أبرز الأدلة على المكانة الأدبية العظيمة التى كان يحتلها فى نفوس الأدباء والجالية العربية فى المهجر .

ولم يصدر لعقل الجرّ فى حياته شيء من المؤلفات . ولكن أخاه الشاعر شكر الله الجر قد عمد أخيراً إلى جمع شعره ونشره فى ديوان بعنوان « ديوان عقل الجر » صدر فى بيروت عام ١٩٦٤ .

فى صباح يوم الأحد ١٠ كانون الأول ١٩٦٧ ، وبعد أكثر من عشرين سنة من وفاة عقل الجرّ ، وصل جثمانه عائداً بالطائرة إلى مطار بيروت ، بفضل مساعى شقيقه شكر الله . ومن المطار نقل الجثمان بالسيارة إلى مدينة جبيل ، فاستقبله أهل المدينة وطلاب المدارس بالموسيقى ، وحمل النعش على الأكفّ إلى كاتدرائية مار يوحنا ، حيث صلّى عليه . ونقل بعدئذٍ إلى جوار كنيسة مار يعقوب حيث دفن فى ضريح فخم من الرخام ، ركّز فوقه تمثال نصفى للشاعر من صنع النحات حليم الحاج . وتقدّم الشيخ بيار الجميل فأزاح الستار عن التمثال .

وهكذا عاد الشاعر ، بقايا رفاتٍ ، ليدفن فى الأرض التى أحبّها ، والتى عاش فى ديار الهجرة أكثر من ثلاثين سنة وهو يحنّ إلى العودة إليها .

٢٢ – نظير زيتون
من العصبة الاندلسية

فى عام ١٩٤٩ عاد إلى حمص ، بعد هجرة طالت نحو ٣٨ سنة ، الأديب المهجرى نظير زيتون ، عضو العصبة الأندلسية منذ نشأتها ، وخطيبها فترة من الزمن ، وأمين سرها فترة أخرى ، وخطيب النادى الحمصى فى البرازيل مدة عشرين سنة ، ومحرر جريدة « فتى لبنان » – فى البرازيل ، لصاحبها الشيخ

رشيد عطية – مدة ثلاثة عشر عاماً ، وصاحب المؤلفات والمترجمات المتعددة .

وما كان نظير حينذاك إلا زائراً ، يريد أن يمتع نظره ويشبع لهفة قلبه من رؤية الوطن ، الذى غادره عام ١٩١٤ فتى صغيراً لا تزيد سنه على أربعة عشر عاماً . وكان يظنّ أن زيارته للوطن ستكون قصيرة ثم يعود إلى البرازيل من جديد ؛ غير أنها طالت فما عاد يفكر فى هجرة جديدة ، حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٦٧ فى مدينة حمص ، مسقط رأسه .

ولد نظير فى مدينة حمص – سوريا – عام ١٩٠٠ ، وغادرها إلى البرازيل عام ١٩١٤ مزوداً بنصيب من الثقافة المدرسية التى تلقاها فى مدارس المدينة . وهناك راح يضرب فى مجاهل التجارة ، فلم يوفق فيها . فانصرف إلى البحث عن العمل الصحفى ، على الرغم من قلة زاده الثقافى . ولكنه لم يكن خاملا ، فقد كان يدرس على نفسه ويضنى نفسه بالدرس ، حتى استقامت لغته ، وتفتحت نفسه على آفاق من المعرفة . ولم يكن ذلك إلا على حساب نظره الذى أجهده كثيراً ، فاضطر إلى دخول المستشفى لمعالجته معالجة طويلة .

وفى عام ١٩٢٧ دعاه الشيخ رشيد عطية ليتولى تحرير جريدته « فتى لبنان » التى كان يحررها قبله توفيق ضعون . فنجح فى الصحافة نجاحاً كبيراً ، وبرز اسمه كاتباً نابه الذكر ، متين العبارة ؛ ثم أصبح خطيباً قوى الحجة ، كبير التأثير فى توجيه الجالية العربية توجيها قومياً يباعد بينها وبين النعرات الطائفية والإقليمية الضيقة .

وخلال هذه الفترة وضع نظير عدداً من المؤلفات المتنوعة ، وترجم عدداً آخر . ومن أهمّ مؤلفاته : (ذنوب الآباء « رواية » – مركيزة سنطوس « رواية برازيلية تاريخية مترجمة عن البرتغالية » ، وهى للأديب البرازيلى باولو سيتوبال – أين الله ، أو اعتراف ابن الشعب « مترجم عن مكسيم غوركى » – سقوط الإمبراطورية الروسية « مؤلف تاريخى يتناول حوادث روسية فى عهد القيصر نقولا الثانى والثورة البلشفية » – رسالة فى استقلال البرازيل والإمبراطورية الأولى – هيرودوس الكبير «رواية تاريخية فلسفية مقتبسة بتصرف عن هنريكى بيرس إسكريش » – يسوع المصلوب « رواية تاريخية فلسفية تحوى دراسة جديدة فى رسالة المسيح وتعاليمه » –

الشعلة « مجموعة خطب » – الشيخ رشيد عطية ، حرف عربى من لبنان فى المهجر الأميركى « ترجمة ودراسة الشيخ رشيد عطية ، وآثاره الأدبية والصحفية ») .

أما هذا المؤلف الأخير فقد وضعه نظير زيتون فى سوريا عام ١٩٥٧ بعد أن بلغه نبأ وفاة صديقه الشيخ رشيد عطية ، صاحب جريدة « فتى لبنان » التي عمل فيها نظير محرراً مسؤولا مدى ثلاثة عشر عاماً ، بعد أن تتلمذ فى صغره على كتابه « الإعراب عن قواعد لغة الأعراب » .

وكان نظير يعتز ويفاخر بزمالته للشيخ ، وعمله فى صحيفته . وفى ذلك يقول فى كتابه هذا : « غريب أن تشاء لى المصادفات أن أتتلمذ على رشيد عطية فى كتبه اللغوية ، ثم تشاء لى أيضاً أن أتتلمذ عليه فى المدرسة الصحافية . فلو أن صحفيًّا عربيًّا سواه دعانى إلى مثل هذه المهمة ، لرفضت غير شاكر وغير معتذر ، كما رفضت مراراً فى أثناء اضطلاعي بتحرير « فتى لبنان » ، لسببين جوهريين ، الأول : أن رشيد عطية هو الذى شقّ لى الطريق ، وهو الذى قادنى بيده إلى الميدان الصحافى ، وليس من الوفاء أن أجحد فضله ، وأسيء إليه وإن كان الكسب أوفر ، والثانى : أن فى اقتران اسمى باسمه على رأس « فتى لبنان » ، وهو العلامة اللغوى القدير ، وأنا الكاتب الناشئ الغرير ، شيئاً كثيراً من الفخر لى والاعتزاز والتقدير » .

ولذلك كان كتاب نظير هذا نفحة من الوفاء الجميل لذكرى الصديق الراحل . وقد ختمه بهذا الرثاء المؤثر : « فيا معلمى ، ويا صديقى وزميلى ورفيقى فى معترك الصحافة والأدب والقومية ! لئن ودعت دنياك وسلكت طريقك إلى الخلود ، وأنت فى المهجر وأنا فى الوطن ، فحجبتنا البحار ، واستعصى علىّ أن أتمسح بنورٍ كشَف لى الآفاق ، وأستلم يداً شقت لى الطريق وعلمتنى الانطلاق ، وأن أطرح على مثواك إكليل التكريم والإطراء مخضوضلا بندى الشكر والوفاء ، لئن فاتنى ما كنت أحب فإن هذا القلم لن يحجبه عن الولاء اغتراب أو لقاء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا حياة أو قضاء وثواء . فى مداده نفحة منك ، وفى صريره نغم منك ، وفى لهبه قبس منك ، وفى تساميه نهج منك . أحسن الله إليك مقدار ما أحسنت إلى امتك ، وجادك بالرحمة مقدار ما جدت بالغيرة على أمتك » .

والذى لابد من الإشارة إليه هو أن نظير زيتون من أكثر أدباء المهجر الجنوبى نشاطاً ، وأغزرهم إنتاجاً وأوفرهم مؤلفات .

فى عام ١٩٤٧ كنت قد كتبت إلى الشاعر القروى أطلب منه شيئاً عن العصبة الأندلسية ومجلتها وأسرتها . غير أن الجواب جاء من نظير زيتون لا من القروى ، فقد كتب إلىّ بتاريخ ٢٩ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٧ رسالة طويلة فى ثلاث صفحات (فولسكاب) استهلها بقوله : « تحية الأدب والعروبة ، وبعد فقد دفع إلىّ صديقى الشاعر القروى الأستاذ رشيد سليم الخورى رسالتك اللطيفة المؤرخة فى الرابع من يناير المنصرم ، وسألنى مدفوعاً بدالة الأدب والصداقة أن أجيب عن الإيضاحات التى توجهت بها فى رسالتك الآنفة الذكر » .

وبعد أن ملأ الصحائف الثلاث الطوال بالشرح والسرد ، ختم الرسالة بقوله : « هذا وإنى أغتنم الفرصة فأشكر لصديقى رشيد الذى أتاح لى لذة الكتابة إليك ، وسرور التعرف بك . وترانى هنا رهن إشارتك لكل خدمة أدبية . والسلام عليك ممن يزجى إليك أصدق شعور الولاء والإعجاب – نظير زيتون » .

وأعترف ههنا أن تلك الرسالة كانت أول ضوء تلمسته فى دراستى لأدب المهجر الجنوبى ، وللاتصال بالعصبة الأندلسية ومجلتها ، وللتعرف إلى الوجه الحقيقى لأدب الجنوب المهجرى .

وحينما كنت أصدر مجلة « القلم الجديد »[1] واعتزمت إصدار عدد ممتاز منها يخصص للأدب المهجرى وحده ولأدبائه ، كتبت إلى نظير فى حمص أطلب منه دراسة عن أدب المهجر الجنوبى لذلك العدد ، لأنه كان خير من يستطيع الكتابة فى ذلك بحكم صلته المباشرة الوثيقة به . فلم يتأخر نظير عن إجابة الدعوة ، فأرسل دراسة مفصلة استغرقت من المجلة ثمانى صفحات ، وكانت لغيرى ممن يجهلون أدب المهجر من أدباء الأقطار العربية ، مثلما كانت رسالته الأولى لى ، تعريفاً بشىء مجهول . وكانت لذلك خدمة أدبية كبيرة أسداها نظير زيتون إلى الأدب العربى بتواضع عظيم ، حتى إنه لم يقل شيئاً عن نفسه أكثر من ذكر اسمه فى

---

(١) فى أيلول / سبتمبر ١٩٥٢ إلى آب / أغسطس ١٩٥٣ ، وكان العدد المهجرى الممتاز آخر عدد صدر منها .

تضاعيف المقال ، مما اضطرنى إلى التعليق فى الهامش منوهاً به وبأدبه الغزير القيم ، وبمقدرته الخطابية .

ومن الفقرات المقتطفة فى ما تقدم يلاحظ القارئ ما فى أسلوب نظير من الرصانة والسلاسة فى آن واحد ، يضاف إليهما العمق فى الدرس والبحث والتحليل ، وقوة المنطق ومتانة الحجة . ولكنه فى الفترة الأخيرة من عمره أخذ يميل إلى الإكثار من السجع بشكل غريب فى بعض ما يكتبه . ولست أدرى ما الذى أغراه بعد عودته إلى الوطن بهذا الأسلوب ، وهو الأديب الصافى الديباجة ، الناصع البيان ، حتى كانت مرثيته الطويلة للمرحوم عادل زعيتر مجموعة ضخمة من الجمل المسجوعة المتلاحقة ليس بينها وبين أسلوبه المألوف المحبب أية صلة . وقد ظهر شيء من هذا السجع المتعمد فى أول كتابه عن رشيد عطية .

على أن من الحق أن نشير إلى غيرة نظير زيتون على الأدب المهجرى ورجاله ، وإلى جهده الوافر فى سبيل إنصافهم وتقديرهم التقدير اللائق بهم . وإننى لأذكر بهذا الصدد أننى حين نشرت فى مجلة « الأديب » عام ١٩٥٢ دراستى حول « القصة والرواية فى الأدب المهجرى »[1] تلقيت منه رسالة من حمص بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٥٢ ، يقول فيها معلقاً ومصححاً :

« . . .رأيت أن أعلق على مقالك بملحوظة صغيرة ، وهى أنه فاتك أن تذكر شيئاً عن روايتين طريفتين كتبهما المرحوم شكرى الخورى ، صاحب جريدة « أبو الهول » التى عاشت نحو أربعين عاماً فى سان باولو ، البرازيل ، ثم انتهت حياتها بحياة صاحبها فى سنة ١٩٤١ . أما الروايتان فهما « يا حسرتى عليك يا زعيتر » وهى تحوى قصة مهاجر لبنانى ، وكان المؤلف فى هذه الرواية بسيكولوجياً من الطراز الأول ؛ وقد ترجمت إلى عدة لغات ونالت إعجاب المستشرقين ، أو المتمشرقين ، أو المستعربين ؛ والثانية « فينانوس » وهى لبنانية روحاً وعقلية ، وقد قرظها أجمل تقريظ النقادة « الطاغية » مارون عبود .

« قلت إنه فاتك ذكر هاتين الروايتين ، ورأى أن التعبير غير صحيح ، فالأصح أن أقول إن خبر هاتين الروايتين الجذابتين لم يتصل بك على كثرة تضلعك من

(١) أنظر القسم الأول من هذا الكتاب .

الأدب المهجرى ، ومعرفتك بجنوده وقوّاده . فحبذا لو طالعت هاتين الروايتين لترى فيهما طابعاً لبنانيًّا بسيكولوجيًّا طريفاً .

« وأنا ما أحببت أن ألفت نظرك إلى « يا حسرتى عليك يا زعيتر » و« فينانوس » إلا مدفوعاً بحب الفن الروائى . ولا تستغرب إذا قلت لك أيضاً إن مؤلفهما رحمه الله كان من أشد خصومنا فى العقيدة القومية ، ومع هذا لا أشك فى أنه كان مخلصاً كل الإخلاص للبنان ، وإن أنكر جلاء الأجنبى .

« وهناك قصصى طريف هو المرحوم أنطون سليم سعد ، من بشرّى ، كان من أعضاء العصبة الأندلسية ، واشتهر بكتابة القصة فكان موفقاً كل التوفيق . ومع أن ديباجته مشرقة فهو لا يعرف الصرف ولا النحو . وقد نشر فى مجلة العصبة أكثر من ثلاثين قصة ، بينها قصص تاريخية . وأنا لا أدرى هل كانت هذه القصص معربة عن لغة أجنبية ، أو مقتبسة ومسبوكة فى قالب جميل ، أو هى من حصاد خياله الخصب . وقد توفى رحمه الله ، فى سنة ١٩٤٥ أو ١٩٤٦ »[1] .

حين ألقى جورج صيدح محاضراته عن الأدب المهجرى فى المعهد العالى للدراسات العربية فى مصر – وقد جمعها بعد ذلك فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » – ثارت فى صحف مصر ضجة كبيرة حول قيمة الأدب المهجرى ، فغضب نظير للأدب المهجرى غضبة مضرية ، فكتب ردًّا طويلا عنيفاً على من يهاجمون الأدب المهجرى وهم لا يعرفونه . وقد نشر رده فى صحف متعددة فى الشرق وفى المهجر ، وكذلك نشره جورج صيدح فى الطبعة الثانية من كتابه .

كان نظير زيتون بين أدباء المهجر الجنوبى واحداً من رجال الطليعة الممتازين بالموهبة الأدبية ، والذوق الأدبى ، والنشاط الغزير ؛ وإذا كان أغلب إنتاجه – أو على الأصح كل إنتاجه المعروف – نثراً ، فإن له خطرات شعرية جميلة ، ولكنها قليلة أو نادرة . وقد ذكر له البدوى الملثم واحدة من القصائد الجميلة فى الحنين إلى سوريا . إلا أنه لم ينصرف إلى الشعر مثل انصرافه إلى النثر ، فلم يشتهر به .

---

(١) سجلت هذه الرسالة ههنا لما فيها من المعلومات المهمة الجديرة بالتسجيل ، لأنه لم يرد من قبل لها ذكر فى كتابى هذا ولا فى غيره من الكتب المتعلقة بأدب المهجر .

٢٣ – يوسف البعينى
من العصبة الأندلسية

فى منتصف شهر أيار من عام ١٩٤٩ ، والبراعم الجديدة تفتقها يد الربيع فى الكون فتزدان بها السهول والآكام ، والحدائق والأودية ، قصف الموت غصناً نديًّا يانعاً ، سخيًّا بالثمار ، زاهياً بالنضرة والشباب والحياة : ذلك هو الأديب والشاعر يوسف البعينى ، عضو العصبة الأندلسية فى البرازيل ، وأحد نوابغ الأدباء الشبان فى المهجر الجنوبى .

ولد يوسف البعينى فى قرية « الهدينة فى شمالى لبنان عام ١٩٠٨ ، وما كاد يحبو إلى الثامنة من عمره حتى فقد والدته ، فعاش فى رعاية أبيه ، ودخل مدرسة المرسلين فى جونيه . وفى هذه المدرسة بدأت تظهر بوادر نبوغه ، وتبشر بمستقبل أدبى لامع .

وما كاد يطأ عتبة الخامسة عشرة من عمره حتى غادر لبنان مهاجراً إلى البرازيل ، وكان ذلك عام ١٩٢٣ . فلما تأسست العصبة الأندلسية فى عام ١٩٣٢ انضم إليها ، ولم يلبث أن أصبح من أبرز أعضائها . واستمر يغذّى مجلتها « العصبة » بروائع قلمه ، نثراً وشعراً ، وتأليفاً وترجمة ، حتى اخترمت المنية حياته وهو ما يزال فى الحادية والأربعين من عمره .

وفى السنوات الأخيرة من عمره كنت تجد له أحياناً فى العدد الواحد من « العصبة » موضوعات متعددة ، قد تصل أحياناً إلى ثلاثة موضوعات أو أكثر . وكان هو وحبيب مسعود القائمين على تحريرها فى الأشهر الأخيرة من عمره . وقد كان حبيب مسعود رئيس تحريرها منذ نشأتها حتى انقطاعها عن الصدور .

كان يوسف يتأثر بأدب الرابطة القلمية ، وبأدب عميدها جبران بشكل خاص ، وكان شديد الإعجاب بالرابطة وأدبها . ولذلك كثيراً ما كان يرد ذكر جبران فى كتاباته . وحين زار عبد المسيح حداد – صاحب جريدة « السائح » ،

وعضو الرابطة القلمية – البرازيل عام ١٩٤٩ ، استقبله يوسف البعينى ورافقه خلال رحلته ، وعقد معه حديثاً طويلا على جبران نشره فى العصبة .

وكما كان يوسف شديد الإعجاب بجبران ، كذلك كان شديد الإعجاب بأمين الريحانى ، وقد كتب حوله دراسة تنم عن إعجابه الشديد به وبأدبه .

وقد اختار يوسف عشرة من أبرز أدباء الرابطة وغيرهم من المهجريين ، فكتب فيهم دراسات أدبية كان يعتزم جمعها فى كتاب بعنوان « عشرة وجوه » ؛ ولكن الموت لم يمهله ريثما يكمل دراساته ويجمعها فى كتاب .

كان يوسف يجيد إلى جانب اللغة العربية اللغة الفرنسية التى درسها فى مدرسة الفرير المريميين فى جونيه ، والبرتغالية التى تعلمها فى البرازيل . وكان كثير العكوف على المطالعة فى هذه اللغات الثلاث ، والترجمة عن اللغتين الغربيتين . وكان بيانه مشرقاً صافياً وأسلوبه أنيساً سلساً .

أما أخلاقه فقد أجمع كل من عرفه ، وكل من كتب حوله ، أنها فى أعلى مستوى ممكن من الدماثة واللطف والوداعة .

كان يوسف ناثراً وشاعراً ، ولكنه كان مقلاً فى شعره ، فى حين كان غزير الإنتاج فى نثره . وفيما يلى نموذج من شعره ، وهو من شعر الحنين :

أقبِلى عنـــد الصـــباحْ   نَرتَـد الشمس وشاحْ
فوق أكتاف التلالِ
وامسحى دمـــع الليالى   عن عناقيـــد الدوالى
وأزاهـير الأَقاحْ
وأضاميم العبقْ

* * *

أترى تحمل هبَّاتُ الريــاحْ   فى ليــالينــا
خَشَّة الفُلك وتهليل الصبـــاحْ   عن شواطينا
وعن الأطيار فى الروض صـــداحْ   موقظًا فينــا
ذكر أوقات عذابِ
فى حمى فجر الشبابِ

قبـــل أيام اغترابى
بين زهـــو وتصـــابِ
وَقُبَـــل

وأما من نثره فنقدم النموذج التالى من مقال له بعنوان « الانتقاد الأدبى » يقول فيه :

« كلنا نسمع حشرجة الجداول وحفيف الأوراق فى سكينة الليل ، فنحس أن الجداول تؤلمها الصخور والمنحدرات ، فتشكو وتنتحب ، وأن الأغصان عندما يلامسها نسيم الأودية تتحرك مصفقة متمايلة . فمن كان ذا عاطفة شفافة يفسر حشرجة الجداول بأنين محتضر يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وحفيف الأوراق بنبضات قلب تتنازعه الميول والحنين والتذكارات .

« والأديب كالجدول أو كالغصن تتألم نوازعه شاهقة فى مسامع الحياة التى لا ترحم ولا تلين ، فإذا جاء من يقيس هذه الظواهر بالأرقام الحسابية والموازين المنطقية يسىء إلى الفن والإبداع ؛ وذلك لأن الفكر غير محسوس وغير منظور ، وليفهمه الناقد يجب أن يستعمل مقياس عواطفه ومشاعره وإحساساته . . . »

وليس فى وسعنا أن نسترسل فى تقديم النماذج من أدب هذا الأديب النابغة الذى اخترم الموت حياته فى عنفوان الشباب قبل تمام نضجه ، فحسبنا من هذه الكلمة أن نلفت أنظار الأدباء الشرقيين إلى أدبه المعبر عن فيض من النبوغ والحيوية ، والقوة الروحية والأدبية .

٢٤ – حسني غراب
من العصبة الأندلسية

وقف حسنى غراب عام ١٩٤٩ ، يرثى صديقه ورفيقه فى العصبة يوسف البعينى ، فقال فى رثائه له ، معدّدًا الرفاق الذين مضوا تباعاً إلى الأبدية :

نثرت أيدى الليـــالى عقـــدنا وغدا أكثرنا تحت الـــثرى
سبعة منـــا تولـــوا وقَضَـــوا فَمَن الثامن منا يا ترى ؟ !

وما كاد يمضى على ذهاب البعينى عام ونصف العام ، حتى كان حسنى غراب هو الثامن فى قافلة الراحلين إلى الأبدية من أعضاء العصبة الأندلسية . وعند ذاك وقف حبيب مسعود ، رئيس تحرير مجلة « العصبة » ، يرثيه فى حفلة تأبينه ويقول :

« عقدنا الثمين ينفرط حبة حبة ، وقلبنا النابض يتصدع مرة بعد مرة ، ودماغنا المفكر يتهدم يوماً بعد يوم ، ولساننا الفصيح يتفشى فيه البكم عاماً بعد عام . . . »

ثم يضيف إلى ذلك صرخته الموجعة التالية :

« ألا فليعلم القوم أن هذه القافلة الأدبية متى اندرست اندرست معها معالم العربية . ولا يتوهمن أحد أن الخسارة تعوض بعناصر أدبية جديدة تَفِدُ من الأقطار العربية ، فالروح والتفكير والذوق هنا شيء وهناك شيء آخر » .

وفى حسنى يقول حبيب مسعود :

« كان حسنى هبة سماوية ، فاعتزت به عشيرته وأعزها . ولد شاعراً ، وعاش شاعراً ، ومات شاعراً . . . فى حضن العصبة الأندلسية قضينا معاً ثمانية عشر عاماً ، فما نذكر خلالها أن حسنى كان عاذلاً أو معذولاً . ولا بدع ، فمن كان فى خلق حسنى فقد جاور الأصفياء الذين خلصت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، واحلولت ألسنتهم » .

* * *

ولد حسنى غراب فى حمص – سوريا – عام ١٨٩٩ ، ونشأ على حب الأدب والشعر منذ نعومة أظفاره . وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية فى حمص ، والثانوية فى طرابلس ، هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٠ .

ومنذ أن أنشئت العصبة الأندلسية هناك انضم إليها ، وكان واحداً من شعرائها الأفذاذ ؛ فكان يغذى مجلتها « العصبة » بالكثير من روائع شعره الوجدانى والوطنى والاجتماعى ، كما كان يشترك فى الحفلات الاجتماعية والوطنية بشعره الجميل المؤثر . وكان من المتحمسين للعروبة وخدمة قضاياها . وفى قضية فلسطين ومأساتها الكبرى كانت نفسه الكبيرة تجيش بالشعر الوطنى الفائر بالحماس واحتـدام العاطفة . ومن ذلك قوله فى قصيدة له قبل النكبة :

أأقبل العيدُ حتى يفرحَ العربُ ؟ لا ، لا لعمـرك إن العيـد مرتقبُ
العيـد يومَ يثورُ الحـقُّ ثورتَـه والعيد يوم يعمُّ الويـل والحـربُ
وتلبث الرايـة الحمـراء خافقـةً حتى يُـردّ إلى أصحـابه السلبُ

ولكن النكبة وقعت بعد ذلك ، وخاب أمل حسنى فى دول العرب التى خـفّت لنجدة فلسطين ، ولكنه لم يقنط من مجىء يوم الثأر للوطن المضاع والكرامة المهدورة . وهو القائل فى فلسطين :

وَخـبِّر القـوَم أنّا لا نقاسمهـم ذاك التراث وإن ضجُّوا وإن صخبوا
يأبَى علينـا عُلانـا أن نفارقَـه إلا إذا فارقت أبراجهـا الشهب

كان حسنى غراب كبير النفس ، عالى الهمة ، يحب الخير لكل الناس ، ويكره البخل والغرور والتعالى . وفى شعره غير قليل مما يعبر عن ذلك كله . ومن ذلك قوله :

قالوا : نرَى نفراً عند الملوك سَمَوْا وما لهم همّـةٌ تسمو ولا وَرَعُ
وأنت ذو همَّة فى الفضـل عاليـة فلمْ ظمئتَ وهم فى الجاه قد رتَعوا ؟
فقلت : باعوا نفوساً واشتروا مننـاً وصنتُ نفسى فلم أخضع كما خضعوا
قد يكـرم المـرء إعجاباً بخستـه وقد يُهان لفرط النَّخـوة السَّبُعُ !

وكان حسنى مرح الروح ، كثير الدعابة ، حلو الفكاهة ، وإن يكن فى

شعره أشياء من الكآبة . وكان كثير الحنين ، شغوفاً بوطنه العربى ، وبمسقط رأسه حمص . وكم تغنى فيها بشعر عذب رقيق ، كقوله :

أبعدَ حمص لنا دمعٌ يُراق على ... منازل ، أم بنا من حادث هلعُ
دار نحنُّ إليها كلما ذُكرت ... كأنما هى من أكبادنا قطَعُ
وملعب للصبا نأسَى لفُرقته ... كأنه من سواد العين منتزعُ

ويلاحظ القارئ من هذه النماذج المتقدمة أن حسنى كان يحافظ على جزالة الأسلوب العربى والديباجة الأصيلة ، ولا يميل إلى التنويع فى أوزانه وقوافيه . ولعلّ ذلك ما دفع الشاعر عمر أبو ريشة إلى أن يقول : « إن حسنى غراب أصفى شعراء المهجر ديباجة » .

ولكن حسنى قضى ولم ينتج كتاباً ، ولا جمع شعره فى ديوان . وقد ذكر الشاعر جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » أن أخاه مدحت غراب عاكف على جمع شعره . وكنا نرجو أن يحقق مدحت ذلك خدمة للأدب العربى عامة ، والمهجرى خاصة ، ولكن المنية اختطفته هو أيضاً فى أواخر عام ١٩٥٨ دون أن يحقّق الأمنية .

٢٥ – ميشال معلوف
من العصبة الأندلسية

حين تأسست العصبة الأندلسية فى البرازيل فى عام ١٩٣٢ ، انتخب ميشال معلوف أول رئيس لها . واستمر فى رئاستها حتى عاد إلى الوطن .

ولد ميشال بن إبراهيم (باشا) معلوف فى زحلة عام ١٨٨٩ ، ودرس فى مدارسها الابتدائية ، ثم فى الكلية الشرقية الكاثوليكية على صهره عيسى إسكندر المعلوف . وبعد نهاية دروسه فيها اشتغل بإدارة أملاكه الواسعة فى البقاع ، فأتقن الزراعة ، وكان ميالا إلى الأدب ، فأخذ ينشئ المقالات لمجلة الجمعية العلمية التى أنشأها صهره فى الكلية الشرقية ، وينظم الشعر وينشره فى الصحف الأخرى .

وفى سنة ١٩١٠ استدعاه أخواه قيصر وجورج معلوف – وكانا من كبار التجار والأثرياء فى سان باولو – فالتحق بهما هناك ؛ فاشتغل مدة بالتجارة ، وأسس معملا للنسيج . ولكن شغفه بالأدب كان يدفعه إلى القيام بحركة ترفع من شأن الأدب فى ديار الغربة . فأنشأ مع شكر الله الجرّ وعدد من الأدباء البارزين العصبة الأندلسية ، ورعاها بماله ونفوذه ، فانتخبه الأعضاء رئيساً للعصبة . ثم أنشأ مجلة « العصبة » التى لم تكن تعرف المهاجر الأميركية حينذاك مجلة فى مثل مستواها الأدبى العالى ، وكتابها وشعرائها الكبار . وكان يغذيها ما استطاع بشعره العذب الرقيق .

وفى صيف عام ١٩٣٨ عاد إلى زحلة فى زيارة كان يظنها قصيرة الأجل ، غير أن نشوب الحرب العالمية الثانية حال دون عودته إلى أعماله وأبنيته « وعصبته » ؛ فأقام فى زحلة وتزوّج هناك . وبعد سنة ونصف أصيب بمرض عضال لم يستطع الطب الوقوف فى وجهه ، فقبض ميشال إلى رحمة ربه فى الرابع من حزيران (يونية) عام ١٩٤٣ ، ودفن فى مسقط رأسه[١] . ومن بعده رأس العصبة الشاعر القروى ، ثم شفيق معلوف – ابن أخت ميشال .

ولميشال معلوف آثار أدبية من شعر ونثر ، ولكن لم يتح له طبعها . أما المراثى التى قيلت فيه فقد جمعت فى كتاب بعنوان « هيكل الذكرى » ، ومعها بعض قصائده .

وقد ألف ميشال فى أول عهده بالأدب مسرحية بعنوان « سجين الظلم » فى خمسة فصول ، مُثِّلت مراراً فى الوطن والمهجر ، ولكنها لم تطبع .

كان ميشال محساناً ، ينفق هو وأخواه من ثرائهم الواسع فى أعمال الخير . وبعد عودته إلى الوطن ، لمس حاجة الكثيرين من مواطنيه إلى المساعدة فكتب إلى أخيه جورج معلوف بذلك . فجمع هو وابنا شقيقته – شفيق وإسكندر معلوف – مبلغاً كبيراً من المال وأرسلوه إليه . فابتيعت به حنطة وزعت على الفقراء فى بيت أهله بواسطة لجنة من أهل زحلة .

---

(١) استقيت هذه المعلومات من صهره الشيخ عيسى إسكندر المعلوف ، رحمه الله .

وكان آخر ما نظمه ميشال ، وهو على سرير مرضه بداء القلب ، الأبيات التالية :

جَنَيْتُ عليكَ يا قلبي ولم تشفعْ بكَ الشكوى
فكم قاسيتَ فى جنبي وكم حاقتْ بك البلوى
وكم خدعَتْك آمالٌ وكم أشقاك مَن تهوى
بلى قد جُرْتُ يا قلبي عليكَ فلم تَعُدْ تَقْوَى

* * *

سجيناً بين أضلاعى قضيتَ العمر مضطربَا
تشدُّ عليكَ أطماعى وتشطرك النوى إربا
وكنتَ كطائر غرد تحوّل شَدْوُهُ شَجْوا
بلَى قد جرتُ يا قلبي عليك فلم تَعُدْ تقوى

* * *

ومرّتْ بى من الذكرى سحاباتٌ مضيئاتُ
على جنباتها تَتْرَى ابتساماتٌ وديعاتُ
فأطبق جفنيَ الطرْفا وعاد القلبُ للنَّجوى
بلَى قد جزتُ يا قلبي عليك فلم تَعُدْ تقوى

وهذه قصيدة أخرى من شعره بعنوان « كبد من تراب » :

تُمرُّ الليالى كمَرّ السحابْ
وتمضى الأمانى كومض البروقْ
فحتَّام يغمر هذا الضبابْ
حَواشيَ نفسى فلا تُبصر وتبحثُ عنك فلا تعثرُ !
تُراها أضاعت إليك الطريقْ ؟ !

* * *

حنينٌ وشوقٌ وحبٌّ دفينْ
يكابدُه كبدٌ من ترابْ

فإن يكُ فى الأرض ماء وطينْ
يحول ويفصـــل ما بيننا وكنت اتَّخذت السهَى موطنا
فيا ربّ عجلْ بيوم الذّهابْ

٢٦ – رياض معلوف
من العصبة الأندلسية

لعله لم يكن من المنتظر أن يكون لرياض المعلوف فصل خاصّ من هذه الدراسات المهجرية ؛ فمكانه بين شعراء لبنان المقيمين لولا أن المصادفة شاءت له أن يعيش فى المهجر ردحاً من الزمن على غير اختيار منه ، وأن ينضم إلى رابطة أدباء العرب فى البرازيل ، وهى « العصبة الأندلسية » التى كان أول رئيس لها خاله المرحوم ميشال المعلوف ، وآخر رئيس لها أخاه شفيق المعلوف ، ولولا أن هذه السنوات القلائل التى قضاها فى المهجر مرغماً قد تركت فى شعره أثراً يميزه عن شعره الذى ظهر قبل سفره إلى أميركا فى ديوانه الأول « الأوتار المتقطعة » .

أما المصادفة التى قضت بأن ينضمّ رياض المعلوف إلى شعراء المهجر الأميركى ، فهى أنه قد غادر الشرق فى عام ١٩٣٨ ، قاصداً إلى باريس ونيويورك لأجل النزهة ، ولمشاهدة المعرض الذى أقيم فى نيويورك إذ ذاك . وقد طالت سياحته قليلاً حتى أدركته الحرب ، فقطعت عليه سبيل العودة إلى بلاده ، فاضطر إلى السفر إلى البرازيل حيث يقيم إخوته الثلاثة : إسكندر وشفيق وإدمون ، وإلى الإقامة بينهم ريثما تنجلى الغمة عن وجه العالم . وكان وصوله إلى البرازيل فى تشرين الأول سنة ١٩٣٩ . وقد شاءت الصدفة أيضاً أن يطول أمد الحرب فتطول معها إقامة رياض فى أميركا الجنوبية ، حيث عرفته صحفها وأنديتها الأدبية ؛ فانتخب عضواً فى المجمع العلمى البرازيلى فى ريو دى جانيرو ، وفى نادى القلم

الدولى (Pen Club)[1] وحيث نشر بعض المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وضمّنها بعض الرسوم من قلمه أيضاً ، إلى جانب رسوم أخرى لرسامين غربيين .

وما دامت المصادفة قد شاءت فأصبح رياض أحد شعراء المهجر ، فلابدّ له إذًا من دراسة خاصة مع شعراء المهجر . فى الواقع أن بين شعره المطبوع فى المهجر وشعره المطبوع فى الوطن فرقاً ملموساً ، لا شك فى أنه من تأثير اختلاف البيئة ، كما هو نتيجة لتطور الشاعرية واستمرار نموها ونضوجها .

كانت باكورة إنتاج رياض الشعرى كتابه (الأوتار المتقطعة) المطبوع فى مصر عام ١٩٣٣ . وهو يدل على عدم نضوج الشاعرية عنده ، كما يدل على أن رياضاً كان إذ ذاك يحاول أن يجرى فى شعره على نهج أخيه المرحوم فوزى الذى كانت شهرته الأدبية تملأ دنيا الضاد . فى الديوان روح فوزى المتشائمة ولكن ليس فيه شعر فوزى المتين الناصع وحبكته الجميلة ؛ وفيه أشياء من ألم فوزى ولكن ليس فيه لطف خياله وحرارة دموعه ؛ وفيه محاولة لتنويع الشعر وزركشته ، ولكنها غير مكتملة لعناصر الحيوية على الرغم من ترقرق الكثير من أبياتها ولطف موسيقاه .

على أنه لابد لنا من الإشارة إلى تقدمة الديوان ، فعباراتها وأبياتها تدل على إحساس لطيف ، وحنان كثير ، : وهى « إلى التى حملت معى صليب العذاب فى طريق الحياة الوعرة بصبر وتضحية ، أقدم أوتارى وألحانى » . ثم يضيف إليها الأبيات التالية :

ولدتْنى وسقَتْنى دَمهـــا والحيـــاةْ
فشِفاهى ليس تُنسينى اسمَها للممـــات
حفرتْ عينى بدمعـى رسمَها طىّ قلبى
تلك أمى !

ثم يجىء ديوانه الآخر « خيالات » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٤٥ وهو أدل من الأول على روح رياض ، وعلى طابعه الأدبى ؛ فقد تحرر فيه من محاولة التأثر بطرائق سواه ، وانطلق على سجيته ، ولكنه حاول أن يجعل لشعره طابعاً

---

(١) وهو عضو كذلك فى مجمع إقليدس داكونيا البرازيلى . وفى عام ١٩٦١ انتخب عضواً فى رابطة الصحفيين والكتّاب اللاتين ، فى روما .

غربى الروح واللهجة وإن يكن عربى الألفاظ . لذلك لا غرابة فى أن يكون تـأثرنا واعجابنا بما نقرأ له بلغات الغرب ، أكثر من تأثرنا وإعجابنا بشعره العربى ، فهو فى شعره أقدر على مسايرة روح الغرب وأقرب إليها منه على المحافظة على روح الشرق وطابعه .

شعر رياض من النوع الوجدانى الغنائى فى الغالب ، ومقطوعاته يتعمد فيها القصر واللمسات الخاطفة . ويظهر أن العروض العربية تعسِّر عليه التعبير بسرعة واقتضاب كما يشاء ؛ أما بلغات الغرب ، وبطريقة الشعر المرسل ، فهو يصل إلى غايته بأيسر سبيل وأجمل بيان . خذ مثلا قصيدته « إلى عازفة » من ديوانه « خيالات » ، حيث يخاطب العازفة بقوله . . .

لعبتْ أناملُك الرشيقةُ بالقلوب وبالبيانه
أطرافها حمرٌ كأن بكلّ أنملة جمانـه
فاستنطقت لسن البيانة باللباقـة واللّيانه
هى فى تنقُّلها الطروب كطائر غرد ببانه
وبحلقك الشادى هزارٌ منشد دون استكانه

إنك لن تطمئن إلى سلامة التعبير وسلاسته وجماله ههنا كما تطمئن إليه وتستعذبه فى عبارته الإنكليزية ، من كتابه (غيوم — Clouds) فى قطعة قريبة من معنى هذه القصيدة . فهناك يقول :

One could have felt
That there dwelt
Ten Nightingales
In the ten fingers
Of the Orchestra Conductor

وترجمتها : « إن المرء ليشعر بأن عشرة بلابل تقيم فى أصابع قائد الأوركسترا العشر » وهو معنى غاية فى اللطف والإبداع ، يدلّ على حس مرهف بارع الالتفاتة . وكما تستعذب هذه اللمسة الناعمة ، وتعجب بهذه الالتفاتة البارعة ، تستعذب كذلك كثيراً من أمثالها فى ديوان « غيوم » فى لغته الإنكليزية . خذ مثلا القطعة التالية :

In the veins
Of these violin strings
Flows, quivers and sings
The blood of innocent
Nightingales
Martyrs of their love's lament

وترجمتها : « فى شرايين أوتار الكمنجة هذه تسيل وترتعش وتغنى دماء عنادل بريئة شهيدة التفجع على حبها » .

وكذلك الخاطرة التالية عن أشجار الخريف :

All these denuded trees
Are
The harem
Of the autumn

وترجمتها : « كل هذه الأشجار العرايا ، هنّ حريم الخريف » :

وكما نجد الشاعر بارعاً فى خطراته ، ناعماً فى لمساته السريعة فى هذا الديوان ، كذلك نجد عنده كثيراً من التشابيه والتعابير اللطيفة العذبة . كقوله فى وصف البحر :

Is not
The Ocean
The fluid mirror
Of the horizon ?

ومعناه : « أليس المحيط هو مرآة الأفق السائلة ؟ » . وفى وصف الظل :

O ... shadow
Darkness visible
Charcoal that the sun
Has not yet
Consumed
Dark purple wine
Of the night
Spumed
In the cup of day !...

ومعناه : « أيها الظل ، أيها الظلام الشفاف ، والفحم الذى لم تلتهمه الشمس بعد ، يا نبيذ الليل الأرجوانى الداكن ، المسكوب فى قدح النهار » .

* * *

أما الصفة الغالبة على شعر رياض فهى أنه عاطفى غنائى فى الغالب ، كما قدمنا ؛ فللحب فيه المكانة الأولى ، والغزل فيه يكاد لا يتقيد بحدود ، كما فى قصائده التالية : « عاصفة الحب » ، و« من ذكريات باريس » ، و« ليلة الأحد » ، و« ليالى المرافع » ، وغيرها من ديوانه « خيالات » ، وعدد من قصائد ديوانه « غيوم » . ونجىء إلى ديوانه « خيالات » ؛ وأودّ ههنا أن أذكر أن فيه عدداً من القصائد الجياد التى جمعت بين جمال الخيال ، وحسن التعبير ، وصدق الإحساس . وأول هذه القصائد وأجودها شاعرية هى قصيدة « المصدور » لأنها أحسنها تصويراً ، وأعمقها تأثيراً ، وهى كذلك أطوعها على قلم الشاعر نظماً . وقد رأينا أبياتاً منها من قبل .

ثم تأتى قصيدته بعنوان « الذكرى العاشرة » ، وهى دمعة يذرفها على قبر أخيه المرحوم فوزى فى الذكرى العاشرة لوفاته ، وفيها حزن أصيل ، ولوعة صادقة ولا سيما فى قوله :

لبنـــانُ يأمـــل أن تعـــو د إليه من بعـــد النُّـــزوحِ
أكفـاك هـــذى الحفـــرة الـ سوداء يا نسر الطمـــوحِ

وفى الديوان قصيدتان عن لبنان أوحى بهما إلى الشاعر طيف الوطن النائى ، وهما من شعر الحنين الجميل ، إحداهما بعنوان « لبنان » والأخرى بعنوان « هل يا ترى نعود » وفى هذه الأخيرة يقول :

كم سُحْتُ فى المعمـــورْ مـــا غـــرّنى منظـــرْ
فبلـــــدى المهجـورْ وكـــــوخـــى الأخـضرْ
أحـــلى من القصـــــورْ والـــــذهـب الأصفـــرْ
هل يا ترى نعـودْ
إليك يا لبنانْ ؟ !

وتستمر هذه الروح الغنائية الحلوة فى شعر رياض ، فنجدها كذلك فى ديوانه : « زورق الغياب » الذى صدر فى لبنان ، والذى رأينا منه من قبل قصيدته فى ابنتيه « نجوى وحياة »

وأود أن أشير إلى قصيدته « الفلاّح » فهى من الشعر الجميل ذى المعانى الرائعة .

هذا هو رياض المعلوف كما رأيته فى ما لدىّ من دواوينه . وأود قبل أن أختم هذا الحديث أن أذكر أن له غير هذه عدداً آخر من المؤلفات باللغات الغربية ؛ فله كتاب بعنوان « تلاوين » نشره فى باريس سنة ١٩٣٨ ، وقصائد بالفرنسية طبعت فى الأرجنتين بعنوان « حبات رمال » و« الفراشات البيضاء » ، وكتاب فرنسى بعنوان « شعر المرأة والخمر عند العرب » . كما أودّ أن أذكر أن ديوانه « غيوم » – وهو مجموعة خطرات قصيرة متنوعة – كان قد وضعه فى الأصل بالفرنسية ، ونشره فى البرازيل سنة ١٩٤٣ ، ثم ترجمه إلى الإنكليزية ج . ت . و . سدلر . أما فى العربية فقد صدرت له « الأوتار المتقطعة » و« خيالات » و« زورق الغياب » و« عمائم الخريف » ، وهذا آخرها حتى الآن . وله بالفرنسية كتاب بعنوان (مسامير العاج) طبع فى باريس عام ١٩٤٨ . وترجم الكثير من شعره إلى الإسبانية والبرتغالية . كما أن له كتاباً فى دراسة شعراء آل المعلوف ، و(صور ريفية) نثراً .

٢٧ – يوسف أسعد غانم
من العصبة الأندلسية

لعل أصدق تعريف للأديب والشاعر ما نستطيع انتزاعه من كلامه هو نفسه حين ينطلق على سجيته فى لحظة من لحظات التجلى والصفاء النفسى ، لا ما تخلعه عليه مؤلفاته أو إنتاجه الأدبى فحسب .

وعلى هذا الأساس أنقل ههنا صورة حقيقية للأديب المهجرى يوسف أسعد

غانم ، من رسالة كان قد بعث بها إلىّ من برجه الأخضر فى غوياز ، فى البرازيل ، وتاريخها ١٢ شباط (فبراير) ١٩٥٣ . وهذه هى الرسالة كاملة :

« أخى الأستاذ عيسى الناعورى المحترم

أحيى فيك الروح العربية والأدب الباسل . أنا لا أقيم فى سان باولو حيث مركز « العصبة الأندلسية » التى أنتمى إليها ، وإدارة مجلتها « العصبة » التى أساهم فى تحريرها . فبينى وبين سان باولو مسافة أربع ساعات جوية . لذلك تأخرت رسالتك التى تسلمتها اليوم محوّلة إلىّ من إدارة « العصبة » ، بعد أن بعثت إليك فى البريد الجوى بمقال لا أدرى رأيك فيه ، لأننى لست منصرفاً إلى الأدب وحده فأسكب فيه قلبى وروحى وعقلى وشعورى . . . وأموت على دينه ! ! فأنا أشتغل بالتجارة فى ولاية غوياز ، وفى بلد صغير اسمه « أنا بوليس » . فيه تسعون عيلة عربية منصرفة إلى « عجل اليهود »[١] ؛ لا مكتبة عربية ، ولا أندية ، ولا مجالس ، ولا محاشد عربية ، ولا مرجع يُستراى ويُستفتى ؛ فأنا أستفتى نفسى خطأ أو صواباً . وأنا الأديب العربى الوحيد فى ولاية غوياز التى تعادل مساحتها ضعفى مساحة فرنسا !

أما المرأة العربية فى المهجر فمثل خيل الدولة[٢] ! والمرأة هى محور الدائرة فى نبوغ النابغين . والشاعر فرحات يبعد على مسافة أربع ساعات جوية . وعندما هزنى لأكتب مقالا لمجلة « القلم الجديد » ، فعلت كما يفعل الدليل الصحراوى عندما تغلق عليه معالم الطريق ، فيلطم رأسه صائحاً : « طاحت رأسى » ! . . . لأنى لا أعرف المجلة ولا نهجها . فاعذر يا أخى عيسى هذا الأزغب الجناحين فى قصوره عن مجاراة ذوى الأجنحة الصافعة عواصف الأجواء ، فهو يجهل اللغات الأجنبية ، وينسج أدبه من خيوط نفسه .

واسلم لأخيك

يوسف أسعد غانم

* * *

---

(١) يعنى بـ « عجل اليهود » المال .

(٢) أى أنها صعبة المراس عسيرة التطويع .

فى هذه الرسالة القصيرة أكثر من صورة لهذا الأديب المغترب : ففيه صورة عن نوع حياته ، والجو العجيب الذى ينتج فيه أدبه ، والمسافات الهائلة التى تفصله عن أجواء الأدب ومحافله ورجاله ، والصعوبات التى تحول دون انصرافه إلى الإنتاج الأدبى . وفيه عدا ذلك صورة من أسلوبه الأدبى الضاحك الخفيف الظل .

أما المقال الذى يشير إليه فى هذه الرسالة ، فقد كان بعنوان « خيمة عربية » ، وقد نشر فى العدد الممتاز الذى خصص للأدب المهجرى وحده من مجلة « القلم الجديد » — وقد صدر عام ١٩٥٣ وهذا شىء منه ، نقتطفه لأنه يصور الحياة التى يعيشها المهجريون ، وينتجون فيها أدبهم :

« هزنى فى هجعة دماغى صديقى الشاعر الكبير إلياس فرحات لأكتب مقالا لمجلة « القلم الجديد » ، التى شاء لطف صاحبها أن يخصّ بعدد منها الأدباء العرب المغتربين ، الذين نزحوا عن أوطانهم جسوماً ، لا قلوباً وأرواحاً ، فرفعوا علم الأدب العربى فى محيط أعجمى طاغ :

تجمَّع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحدّاث إلا التراجمُ

هواة ، لا متخلّين من أشغالهم أو متفرغين للأدب وحده . فإذا عاب عائب مقيم قصورهم فى إحدى نواحى الأدب — والكمال لله — فلأن البيئة والوجوه والجوّ هنا هى غير البيئة والوجوه والجو فى الأقطار العربية ، ولأنهم يكتبون بالأيامن ، ويرتزقون بالشمائل ، فغرقوا فى أعمالهم المادية فى بلاد طغت ماديتها على روحانيتها ، فغرقوا فى هذه اللجة الطامية مجروفين بالتيار الجارف العجاج .

يتنكر لهم الأجنبى لجهله لغتهم ، ويجفوهم مواطنوهم لأنهم لا يفهمونهم . وإذا حدّثوا المرأة العربية عن المتنبى أبدت سرورها ورَغبتها فى مشترى اثنين أو ثلاثة منه للمطبخ ! . . فأدباء دقيقو الإحساس يعيشون — أو يموتون — فى محيط يوهن العزائم ويخذل الهمم ، لا يستطيعون أن يبنوا أكثر مما بنوا » .

وينتقل بعد هذه الصورة المؤلمة لحياة أدباء المهجر وجهادهم لأجل العيش والأدب معاً ، إلى الحنين إلى البلاد العربية ، وتصوير الألم المحرق الذى يعانيه فى ديار الغربة شوقاً إلى وطنه ، فيقول :

« لقد سلخ القدر ستًّا وعشرين سنة من عمرى : ستًّا وعشرين سنة طارت هباء على الشواطئ الجميلة التى وقفت على رمالها وصخورها مدى ستة وعشرين عاماً أرقب السفن العابرة إلى الشرق ، إلى موطن الله وكلما مرت سفينة ألوّح لها بيدى وأصرخ بملء فمى ، فكانت الريح تقصيها عنى ، وتعيد صراخى إلى حلقى ، حتى تحوّل صدرى إلى كهف تتجاوب فيه أصداء ندائى وصراخى . وكيفما أدرت عينى فى سماء هذا المهجر الكريم المضياف ، تجلت لى خيمة عربية نصبت فوق ديار أعجمية سحنة ولساناً . . .

ولو تبخر عمرى كله قصيراً فى أى صعيد عربى ، لحمدت الله على حياة قصيرة عريضة فى دنيا يقيم الله فى قلوب أبنائها ، ويقيم الشيطان فى قلوب مغتصبيها . . . فصواعق بلادى هى ورود ترشقنى بها سماء بلادى . . .

لقد تعبت فى الغرب حتى ملّنى التعب . . .

خذوا السيارة والطيارة ، وأعطونى جملا وحصاناً . . .

خذوا الدنيا الغربية ، أرضاً وبحراً وسماء ، وأعطونى خيمة عربية أنصبها على إحدى روابى وطنى لبنان . . . على ضفاف بردى . . . على شواطئ الرافدين . . . فى أرباض عمّان . . . فى الصحراء السعودية . . . فى مجاهل اليمن . . . فى سفح الأهرام . . . فى واحات ليبيا . . .

أعطونى خيمة عربية ، لأضعها فى كفة وأضع الدنيا فى كفة ، وأنا الرابح ! »

ولعمرى لست أدرى أى حنين أشد حرارة ووقدة من هذا الحنين المحرق ، وهذه اللهفة الصارخة ، فى بيان مشرق سخى بالمعانى الجميلة ، والخيالات الحلوة والكئيبة معاً .

ولقد سبق أن عرفنا يوسف غانم – فى القسم الأول من هذا الكتاب – زجالا مبدعاً ، رقيقاً فى أزجاله التى جمعها فى ديوانه الزجلى « البرج الأخضر » . ونحن الآن نعرفه أديباً مبدعاً كذلك فى نثره وفى شعره . وقد قدمنا شيئاً من نثره ، وهذه نماذج من شعره ، وكلها منتزعة مما نشره فى « العصبة » و« الشرق » وغيرهما من صحف الأدب المهجرى . قال من قصيدة له بعنوان « بين الواحات والبيد » :

عاصفَ الدَّهر ، تمهَّلْ ، إننا قد كبحنا جامحَ الجهل المريدِ

سادةُ الدنيـــا عبيدٌ ، إنمـــا سادة الأقلام ليسوا بالعبيـــدِ
دورةُ الحظ عـــلى عثرتهـــا حملتنا من صعيـــد لصعيـــدِ
نُنشد اللحنَ وما مـــن سامـــع يفهم اللحن ويُصغى للنشيدِ
نـــوّرَ الليـــلَ عـــلى جلـكته مشعل[1] ضاءَ على الشط البعيدِ

وهذه الأبيات تكمل صورة حياة الأدباء المغتربين وجهادهم وتزيدهما وضوحاً .

وكان للشاعر مرة بيت فباعه – ويقول إنه استعاض عنه بالدنيا ، فهى بيته الأكبر ! – وقد زاره مرة بعد بيعه ، فثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، فقال :

يا منزلاً قد زرتـــه بعـــد النَّـوَى لا تنجـــلى عن ناظـرىّ طيوفُهُ
لما دنـــوتُ تبسمتْ أبوابـــه وتهلّلت جـــدرانه وسقوفهُ
همّت به بعد الرحيـــل نوازلٌ ومشت إليه من الزمان صروفـهُ
ما للريـــاح الهوج تعصف حولَه مجنونـــةً تجتـاحه وتخيفـــهُ

وليس يوسف غانم من أصحاب القصائد الطويلة ، فكل شعره مقطعات قصيرة ، قد ينظمها على طريقة الشعر التقليدية ، وقد ينوّع فى أوزانها وقوافيها . ومن قصائده الغنائية قصيدة بعنوان « درب النسور » يقول فيها :

لىَ دربٌ خالفت كلّ الدروبْ
خيمَّ الليـــلُ عليهـــا
واستبدّ الشوك فيهـــا
فكأن الـــدربَ سجنٌ وذنـــوبْ

* * *

كلمـــا شمتُ بروقاً فى سماهـــا
ونجومـــــا ساطعـــاتْ
وشموسا مشرقـــاتْ
حجب الغيم عن الدرب سناهـــا

---

(١) يقصد بالمشعل : العصبة الأندلسية .

إن يوسف غانم لم يكتسب أدبه فى المهجر وحده ، فقد عمل فى التعليم والصحافة فى لبنان قبل الهجرة ، وكان قبل ذلك قد تلقى دراسته فى مدرسة الفرير فى جونيه ، غير أن الهجرة صقلت قلمه وبيانه .

وفى المهجر انضم إلى العصبة الأندلسية وظل يزوّد مجلتها « العصبة » بمقالاته وقصائده إلى أن توقفت عن الصدور . وكان ينشر أزجاله وقصائده ومقالاته فى مختلف صحف المهجر برغم أعماله التجارية التى تحاول صده عن الأدب وحمل القلم . ولم يصدر ليوسف من المؤلفات سوى مجموعته الزجلية « البرج الأخضر » المطبوعة فى البرازيل عام ١٩٥٣ .

وفى سنة ١٩٦٥ قضى يوسف غانم منتحراً فى مهجره البعيد . أتراه التعب من الغرب – الذى أشار إليه فى مقاله فى « القلم الجديد » – وضيق ذات اليد ، هما السبب فى انتحاره ؟ !

٢٨ – جورج حسّون معلوف
من العصبة الأندلسية

اشتهر جورج حسون معلوف بين المهجريين الجنوبيين بأنه موسوعة علم وأدب ، وبأنه لطيف المعشر ، ذو نكتة مستملحة . وقد ولد حسون فى بكفيا عام ١٨٩٣ ، وتعلم فى مدارس لبنان ، وتخرج فى الجامعة اليسوعية ، واشتغل عامين بالمحاماة . ثم هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩١٠ – كما يقول توفيق ضعون – أو عام ١٩١١ – كما يقول صيدح[١] والبدوى الملثم[٢] – ولكنه لم يلبث أن غادر الأرجنتين إلى البرازيل ، فعمل فى التدريس ، وفى التجارة .

وحينما أنشئت العصبة الأندلسية كان من أوائل مؤسسيها ، وعمل خطيباً لها مدة من الزمن . ونشر فى مجلتها « العصبة » كثيراً من مقالاته وأقاصيصه وقصائده ،

---

(١) انظر (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية) لصيدح

(٢) انظر (الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية) للبدوى الملثم

ومن المواضيع التى كان يترجمها عن اللغات الأجنبية التى يتقنها جيداً ، وهى الفرنسية والإسبانية والبرتغالية .

وكان فى اللغة من البحاثين المدققين وإن لم ينصرف إلى ذلك ، وفى الأدب من النقاد والشعراء والقصصيين المجيدين . وأول ما قرأت له كان مقدمته « لديوان فرحات » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٣٢ . وهى مقدمة طويلة استغرقت اثنتين وثلاثين صفحة من الديوان ؛ وقد تحدث فيها أولا على فرحات الشاعر الذى عرفه « كالفرخ يتململ محاولا الانفلات من البيضة التى لم تنفلق عنه بعد ، فأصبح نسراً يحلق فى جو الأدب ، فتخطى الغيوم وما فوقها حتى صارت الأرض فى عينيه كدارة الدرهم ، ولكنه ما زال يرتفع ويتقدم » .

ثم راح يتحدث على « الأدب العربى فى المهجر » ، وعاد بعد ذلك من جديد إلى دراسة ديوان فرحات وتحليله . فكان فى دراسته تلك أديباً قديراً ، ونقادة بارعاً .

وفى عام ١٩٥٤ أصدرت له العصبة الأندلسية فى منشوراتها كتاباً بعنوان « أقاصيص » ، جمع فيه عشر قصص ، بين موضوعة ومعربة ، وبين فنية وتاريخية . وقد جعلت « العصبة » ذلك الكتاب هديتها لمشتركيها ختاماً لعامها الثالث عشر .

أما تلك القصص فهذه عناوينها : « أسعد – من ذكريات الشباب – المخملة – صيد النمر – تريزا – دروس الأستاذ كروهل – شاتوبريان ومدام ركاميه – المزار – الصراع الأخير فى الكولوسيوم – أرايا » .

وليس من السهل أن ندرس تلك القصص والأحداث الأدبية والتاريخية فى هذا المجال ، لأن ذلك يتطلب مجالا أوسع من هذه الدراسة القصيرة .

وقبل وفاته بأعوام قليلة عاد لزيارة الوطن ، واستغرقت زيارته عاماً أو أكثر . وقرأت مرة فى أحد أعداد « المراحل » البرازيلية أنه كان سيصدر كتاباً حول أدب المهجر ، وقد نشر فصلا من ذلك الكتاب فى « المراحل » ، ولكن الكتاب لم يصدر بعد .

وقد توفى حسون عام ١٩٦٥ بحادث سيارة . وفى شهرى تشرين الثانى وكانون

الأول عام ١٩٦٥ أصدرت مجلة « المراحل » عدداً مزدوجاً خاصًّا سجلت فيه الخطب والقصائد التأبينية التى ألقيت فى الحفلة التى أقامتها « جامعة القلم » فى سان باولو لتكريم ذكراه فى شهر أيلول ١٩٦٥ .

٢٩ – نصر سمعان
(من العصبة الأندلسية)

فى الدراسة التى قدّم بها رشيد شكور (لديوان نصر سمعان شاعر العروبة) ، المطبوع فى (دار المراحل للطباعة والنشر) فى سان باولو – البرازيل – عام ١٩٧٢ ، أورد النبذة التالية عن حياة الشاعر :

« ولد فى ١٤ أيلول ١٩٠٥ فى بلدة القصير ، من أعمال حمص . ولما ترعرع درس فيها مبادئ القراءة بإشراف معلم من يبرود يدعى سابا ، ثم بإشراف معلم من حمص يدعى عبد المسيح كرامة . وفى بدء سنة ١٩١٣ دخل صف المبتدئين فى المدرسة العلمية الأرثوذكسية فى حمص . وفى أواخر سنة ١٩١٤ وقعت الحرب العالمية الأولى ، فأقفلت المدرسة أبوابها ، كما أقفلت جميع مدارس سوريا تقريباً ؛ فرجع إلى القصير ، مسقط رأسه ، وبقى فيها حتى عام ١٩٢٠ . فغادرها إلى البرازيل ، وقضى بقية حياته فى مدينة سان باولو ، حيث عاش ونبغ وشقى وتألم ، حتى العاشر من أيار سنة ١٩٦٧ ، إذ توفى تاركاً اللوعة والحسرة والأسى لأهله ومواطنيه ، ولكل من عرفه وعاشره » .

اثنان وستون عاماً ؛ تلك كانت رحلة العمر التى قطعها نصر سمعان فى الحياة ؛ خمسة عشر عاماً منها فى الوطن ، والبقية كلّها فى البرازيل ، حيث لمع اسمه بين أكبر شعراء الوطنية فى المهجر الجنوبى ، وكان خطيب الأندية والمحافل . ولكنّ شهرته ونبوغه فى الشعر ، رافقهما الإخفاق الدائم فى الحياة العملية والمالية .

لقد كان شاعراً مطبوعاً منذ حداثته ، رغم ما رأيناه من أنه لم يصب من حياة

المدرسة غير حظ ضئيل ، هو (صف المبتدئين فى المدرسة العلمية فى حمص) ؛ فهو فى هذا كزميله الشاعر المهجرى الجنوبى إلياس فرحات : كلاهما عانى حياة الفقر والحرمان فى المهجر ، وكلاهما نبغ فى الشعر أوسع نبوغ .

يقول فرحات فى وصف حياة المشقات التى عاناها فى ديار الهجرة :

طوى الدهرُ من عمرى ثلاثين حجّـة ... طويتُ بها الأصقاع أسعى وأدأبُ
أُغرّب خلف الرزق وهـو مشرّقٌ ... وأُقسمُ لو شرَّقتُ كاد يغرّبُ
فنشربُ ممّا تشرب الخيلُ تـــارةً ... وطوراً تعافُ الخيل ما نحن نشربُ

ويقول نصر سمعان :

أسعى وراء الرزق مجتهـــدًا ... والدهـرُ فى الحرمـان يجتهدُ
ما إن ذرفتُ الدمـــع فى بلـدٍ ... إلاّ وحنَّ لمدمعٍ بلـــدُ !

وهكذا تشابهت حياة الشاعرين الكبيرين فى المهجر الواحد ؛ وتزاملا كذلك فى الشـاعرية المبدعة ، والحس الوطنى ، وفى الشهـرة الواسعة بين الجوالى العربية المهاجرة . وكان نصر من أعضاء العصبة الأندلسية البارزين ، الذين واكبوها منذ ولادتها . وقد اشتملت مجلتها (العصبة) وكثير غيرها من صحف المهجر ، كالشرق ، والمراحل ، وغيرهما ، على العديد من قصائده ، التى ظهرت بعد وفاته فى (ديوان نصر سمعان) .

وأكثر ما كان يثير شاعريته المناسبات الوطنية ، فعند ذاك يتدفق القول عذباً صافياً على لسانه ، على الرغم من انصرافه إلى أعماله التجارية . وهو شاعر النادى الحمصى ، أكبر الأندية العربية فى المهجر . وفى ما يلى نماذج من شعره :

قُلْ للمـدلّ بجـــاه لا تزخرفـــه ... إلا الأباطيـلُ أشكالا وألوانا
الفقـــرُ فى أن تراك العينُ مرتدياً ... ثوبَ الغنى ويـــراك القلبُ عريانا

وأيضاً :

قـــل لمن صانَعَ الغريب ودبَّـت ... صخرةُ الوهم فى مسالك رشدِهْ
إنما الفخـر أن يريـــق أبيٌّ ... دمَـه عن حمى أبيـــه وجدّهْ
إنما الفخر أن تَسُلّ حُساماً ... تلهب الظالمين شعلـــة حـدّهْ
داس آمـــالك الغريب ومـــا زا ... ت تُغنّى بمدحـــه وبحمدهْ

وله قصائد تفيض بالنقمة والألم لمأساة فلسطين . ومن قوله فيها :

واحـيرة المجد فى قوم أُعِـدّ لهم ... عرسُ الجهاد فما غنُّوا ولا عزفوا
تحالفـوا تحت أعلام الإخاء على ... صون الإباء ، وفى ميدانه اختلفوا
أضحت فلسطين فى التاريخ لؤلؤةً ... حسناء ، والعرب بحراً كله صدف

وله فى الحنين إلى حمص قصائد كلها رقة وجمال . ومنها قوله :

تلك الخمائـلُ جنّاتٌ منـــوّرة ... بكلّ زهر ذكىّ الطيب عبـاق
وللنواعـير أنّات تبثّ بهـــا ... شكوى صبابة مشتاق لمشتاق
وحمص تنشر فى الدنيـــا نوافحهـا ... شذًى تؤديـــه آفـــاق لآفـاق
تُخاطب الله فى النجـوى ، وما نطقت ... إلا بكل شريف القـول مصداق
يا حمصُ لولا سنى ذكـراك ما عرفتْ ... روحى سنى أمل فى العيش برّاق
عمرٌ قصير المـــدى ما زلت أنفقـه ... على نجاح من الدنيـــا وإخفاق
والدهـــر بينهمـــا ما زال يترعُ لى ... كأسَ العذاب ، فما أقساه من ساق !

٣٠ – قيصر سليم خورى (الشاعر المدنى)
من العصبة الأندلسية

حينما أطلق رشيد خورى على نفسه اسم « الشاعر القروى » ، وعرف به فى الأوساط الأدبية والعربية كلها ، أطلق أخوه قيصر على نفسه اسم « الشاعر المدنى » ، وعرف به كذلك فى الأوساط الأدبية فى المهجر .

غير أن قيصر لم يستطع أن يطلق العنان للشعر كما فعل أخوه رشيد ؛ فهو ربّ أسرة تحتاج إلى كدحه المتواصل ليكسب لها الطعام والكساء وكراء البيت ، وليس رشيد مثله فى ذلك . فالشعر لدى رشيد وسيلة الحياة ، وهو لدى قيصر ترويح عن النفس من عناء الحياة ، حينما تمنحه الحياة فرصة للترويح عن النفس ؛ فقد شقّى قيصر فى غربته بمتطلبات العيش والأسرة .

ونحن نجده أحياناً ينظم الشعر شاكياً من قسوة الحياة ، ويستجير بالموت لينقذه منها :

لم أدْنُ من سبب أمــدّ لــه يــدى ... متناولا إلا وأبعــده القضــا
يا مانعـى اللذات ، جُـدْ بألذّهــا ... وامنــع فؤادى مـرة أن ينبضا
ماذا أرجّى أن ألاقى فى غــد ... غير الذى لاقيته فيما مــضى ؟ !
تبًّا لعيش لا تــرى نفسى بــه ... لولا خطوط الشيب شيئاً أبيضا

أو يصف جهاده فى سبيل صبيته ، ليضمن لهم الرزق :

إذا ما طوانى الليل أطلقت للسرى ... به قدمــاً هوجـاء أعصابها نارُ
سُرًى يستفيق العــزم تحت ظلامــه ... وتسهل أنجـاد ، وتعـذب أخطارُ
وما همّنى ليــلٌ وفى الــدار صبيــة ... يرافقنى منهم على البعـد أقمارُ
صغارٌ لقد حمّلت نفسى لأجلهــم ... معاصىَ هم منهــا بريئون أطهارُ
وما خاف من عقبى الخطيئــة والدٌ ... فأولاده فى موقف الحشر أعــذارُ

حتى إذا تعب من البث والشكوى تصلبت فى نفسه العزيمة ، فراح يتحدى الزمان :

كنْ يا زمــانُ كما تشاء فما أنا ... فى العيش بالشاكى ولا بالشاكرِ

ومثل هذه الحياة القاسية التى يصفها قيصر فى شعره ، لا تترك له سبيلا إلى العناية بالأدب ونظم الشعر إلا فى أوقات متباعدة . فهو يحاول أن يتملص ما استطاع من قسوة الحياة ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا إلا بالمنى والخيال ؛ فيحنّ إلى حياة الغابة ، ويتغنى بحريتها وجمالها لبعدها عن حياة البشر المليئة بالنفاق والأذى ، والمحفوفة بالأشواك والمخاطر ؛ فيقول فى قصيدة بعنوان « أغانى الغاب » :

هُم الناسُ قد أقصــاك عنهم رياؤهم ... ولولا رياءُ الناس ما شَطَّت الدارُ
كرامٌ متى جادوا بمــاء وجــوههم ... ضنينون إمّــا حان للبذل دينــارُ
ولا عيبَ فى الإملاق إن جـرّه النَّـدى ... وشرّ عيوب المرء بخـل وإكثارُ
فراراً إلى أرض بهـا تلمس النَّــدى ... فللناس أوطــار وللحر أوطــارُ
هلمَّ لرحب كلُّ ما فيــــه ضاحكٌ ... ترويك غدران وتشجيك أطيــارُ

أضاحك فيه العشب والزهر والندى أداعب منها ما أشاء وأختارُ
هى الغاب يغدو صدرها روحَ شاعر فتنضج أفكار وتجزل أشعارُ
تحسّ يدَ الرحمن فى حركاتها فتخشع علماً أن مبدعها جارُ

وحين تصفو نفسه نجده يرسل الحكمة جميلة قوية ، أو يتغنى بموطنه وأيام شبابه فيه ، ويحن إلى الفردوس الذى غادره إلى جحيم الغربة .

ومن حكمه قوله :

حبّ الظواهر أعمى كل باصرة فقيمةُ الناس رهن الثوب واللقبِ !
ولو تَساوَى لباسُ اثنين ما قدروا أن يفرقوا بين دجال وبين نبى !

وقيصر خورى من أعضاء العصبة الأندلسية منذ تأسيسها ، وقد ولد فى قرية البربارة عام ١٨٩١ ، وهاجر إلى البرازيل مع أخيه رشيد عام ١٩١٣ وله ديوان مطبوع صدر فى منشورات وزارة الثقافة فى دمشق عام ١٩٦٦ بعنوان (ديوان الشاعر المدنى) وهو يضمّ العديد من قصائده .

٣١ – ميشال مغربى

بين المقلين من شعراء المهجر الجنوبى ، مع الجودة والأصالة الفنية ، نجد الشاعر الحمصى ميشال مغربى ، الذى هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٤ ، وكان له من العمر أربعة وعشرون عاماً فقد ولد فى حمص سنة ١٩٠٠ ، وفيها أنهى دراسته الثانوية ، وأصدر قبل اغترابه ديواناً شعريًّا دعاه « العواصف » .

وفى المهجر انصرف ميشال إلى التجارة فنجح فيها ، ولكنها لم تلهه عن نظم الشعر الجميل من حين إلى آخر . وهو فى شعره متين الصياغة ، جميل الخيال ، رقيق الحس . وقد عالج فيه فنوناً من الوصف ، والحنين ، والتأمل ، والقصص الشعرى : التاريخى منه والأسطورى . كما نظم الشعر الوطنى الجيد فى مناسبات وطنية مختلفة .

والنماذج التالية ترينا مدى مقدرته الشعرية .

قال فى الوطنية ، معرباً عن نقمته على الذين تفرّق بين أخوّتهم فى الوطن نزعات الطائفية العمياء :

إن دينى أن أترك الدين من أجل بلادى وأعبد الأحجارا
وصلاتى أن لا إله سوى أرضى ، ولو كان أهلها كفّارا

وقال فى قصيدة بعنوان « كنارى الدفين » :

الثرى أرحبُ المنــازل بالطا ثر إن ضاق واسعُ الآفـاقِ
إيــه يا طيرُ إن سرَّ البرايــا بابُـه ظلّ محـكم الإغلاقِ
حسبنا فى الوجــود أنا وسعنا كل حسن الوجود بالأحـداقِ
وخطـرنا على الخيــال وهمنا بالأغاريــد والمعـانى الرقـاقِ
ليـس بالمرء وحده خُصَّ حُزن ولئن خصّ وحـده بالنفـاقِ
وذوات الأطـواق أكــرم مـن بعض نفوس تساق بالأطواقِ

وقصيدته « ليون وغرناطة » ، وهى من الشعر القصصى التاريخى ، ذات شهرة واسعة . ونذكر فى ما يلى نموذجاً من شعره التأملى ، وهو من شعر الموشحات الجميل :

ماذا وراءَ القـــبر يا خالـقى من بعد أن أخلع هذا الجسدْ
أعـددتَ ناراً ، أم تـــرى جنةً لشاعر على رضـــاك اعتمـدْ
يشفع فى محو معاصيهِ
بعض خصـــال حلــوة فيــهِ ترضيــكَ مــولاى مباديـهِ
معتقداً ما اعتقـدْ

* * *

فــؤاده بـــرغم آثـــامهِ ممتـــلئ حبًّا وإيمانـــا
كان كـزرّ الــورد فى طهـره لو أنت لم تخلقــه إنسانا
لكنه مسيّر بالقـدرْ
فإن يكـن بالذنب يومـاً عثرْ فأنت تدرى كم بكـى واعتذرْ
إليك ندمانـا

والواقع أن فى شعر ميشال مغربى نواحى تجعله يختلف عن الكثيرين من

شعراء المهجر الجنوبى ؛ فهو ينظم الشعر لإرضاء نزعة فنية فى نفسه ، لا للمناسبات الطارئة . ولذلك كان من المقلّين ، لأنه يعنى بموضوعه ، ويعمل ما استطاع لتجىء عبارته الشعرية موسيقية ، ذات تأثير وخلابة . وهو موفق فى ذلك إلى حد بعيد .

وما أجمل قوله فى « حمص » حينما عاد إليها مرة زائراً :

حَسراً أمُـرُّ على ربـوع طفولتى ومواكبُ الذكرى تمـر حيالى
مترفق الخطـوات ، لا أطأ الثرى إلا وقلبى سابـق لنعـالى
ولقد أكِبُّ على الحجـار مقبِّلا وأعفّـر الأهدابَ بالصلصالِ

٣٢ – توفيق ضعون

كل ما قرأته لتوفيق ضعون ، خرجت منه لتوفيق بصورة المصارع العملاق ؛ فأدبه أقرب ما يكون إلى المصارعة ، وقَلّ أن يسلم أديب أو شاعر – لاسيما من زملائه المهجريين – من لذعات قلمه . وأنت لا تمضى معه فى مقال أو كتاب إلا أحسست منذ البداية كأن المؤلف يصرخ فى حديثه إليك صراخاً عالياً . إلا أنه كثيراً ما يمزج هذا الصراخ بشىء من الطرافة أو النكتة ، شعراً كانت أم حكاية أم نادرة ؛ ثم يعود إلى أسلوبه الهجومى العنيف .

كذلك رأيته حين وقع فى يدى كتابه « ذكرى الهجرة » ، وهو أول كتاب يتحدث عن المهجر الجنوبى وأدبه بشكل واسع مفصّل وكذلك رأيته فى آخر كتاب له (كما هى – كتاب الأعوام) المطبوع فى دار (مجلة الشرق) فى البرازيل عام ١٩٦٦ . فقد رأيت المؤلف يجعل من نفسه محور المهجر وحياته وجاليته العربية ؛ فمن رضى عنه قال فيه كلمة خير متفضلا عليه بها ! . . ومن لم يرض عنه أنزل عليه سخطه ونقمته ، وجرّده من كل مزية حسنة ، وراح يتوسع فى ذكر فضله عليه ، وإحسانه إليه ، ورعايته له . . مما اضطرّنى مراراً إلى الكتابة إلى بعض الإخوان فى المهجر مستوضحاً عما جاء فى ذلك الكتاب .

ومع ذلك كان كتاب « ذكرى الهجرة » أول كتاب تعرفت بواسطته بأدباء العرب وشعرائهم فى البرازيل بشكل واسع .

وفى ما يلى نموذج من مقدمة الكتاب فى تعريف المؤلف بنفسه تحت عنوان : « وما على الرسول إلا البلاغ » :

« أنا توفيق بن فضل الله بن يوسف ضعون ، الغسانى أصلا ، الحاصبانى جدًّا وأباً ، البيروتى مولداً ، الزحلى نشأة ، واللبنانى تابعية ، البالغ اليوم من العمر اثنين وستين عاماً وشهرين وخمسة عشر يوماً ، قضيت منها فى هذا المهجر ثلاثين عاماً وثمانية أشهر ، تخللتها هجرة ثانية إلى جمهورية تشيلى دامت ثلاثة أعوام وشهرين ، بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ؛ أجلس الآن إلى منضدتى لأبدأ فى تحبير هذه الرسالة ، وساعة دير سان بنتو تدق مؤذنة بحلول الظهيرة من اليوم الخامس عشر من شهر حزيران (يونية) سنة ١٩٤٥ مسيحية ، الموافق السادس من شهر رجب سنة ١٣٦٤ هجرية . وذلك فى مكتبى الكائن فى الغرفة رقم ٢ من الدور الثانى من البناء الواقع تحت رقم ١٠٦ من لادیرابورتو جيرال ، فى مدينة سان باولو ، حاضرة سمّيتها إحدى ولايات الاتحاد البرازيلى الجمهورى فى القارة الأميركية الجنوبية » .

وقبل « ذكرى الهجرة » كان توفيق قد أصدر كتاباً دعاه « سيرة حياتى » ، وكتاباً آخر جمع فيه مختارات مما كان ينشره فى مجلته « الجديد » ودعاه « مختارات الجديد » .

ولا يبالى توفيق فى ما يكتبه أن يكشف محاسنه ومساوئه ؛ وليس فقط ما يراه فى الآخرين من مساوئ ، ومن محاسن – نادراً ما يجدها – وهو لذلك كان غنيًّا بالأعداء ، فقيراً بالأصدقاء المحبين بين المهجريين .

وحين أصدر الشاعر فرحات رباعياته عام ١٩٢٥ كتب توفيق ضعون مقدمتها . وكان فرحات وضعون صديقين حين ذاك ، ثم باعدت بينهما الظروف والاتجاهات الفكرية فى خصومة شديدة . وإليك كيف استهل توفيق مقدمته : « هذه رباعيات إلياس فرحات ، وقد خصّنى هذا الشاعر بشرف تقديم رباعياته لأسباب ثلاثة : أولا لأنه صديقى ، وثانياً لأننى أعرف الناس به أيام عسره ،

وثالثاً لأننى أجهل علم العروض مثله . هذا هو اعترافى الذى يجردنى من كل أهلية لتقديم ديوان من الشعر لمن يجيدون فهمه ولمن يجهلونه . . . » .

فإذا انتقل القارئ إلى المقدمة الجديدة التى وضعها حبيب مسعود للطبعة الثانية من الرباعيات ، عام ١٩٥٤ ، لمس بعد الفارق بين أسلوب الأديب الهادئ ، والنقادة الرصين ، وأسلوب الكاتب المصارع ، الذى يكتب كما تمليه عليه أهواؤه ونزواته .

والذى يبحث عن « رسالة أدبية » فى ما كتبه توفيق ضعون من مؤلفات ، وما نظمه من شعر ، وما أصدره من صحف فى البرازيل والتشيلى ، لن يجد تلك الرسالة ، ولكنه سيجد مكانها قلماً مسخراً للصراع ، الذى لا يعرف المهادنة ولا الهوادة. وقد توفى توفيق فى المهجر بعد أن أرهقته الشيخوخة ، وأنهكه الصراع ، وتجاوز التسعين من عمره .

٣٣ – نعمه قازان

فى سنة ١٩٣٨ صدر عن البرازيل كتاب باللغة العربية جميل الطبع ، صقيل الورق ، متين الغلاف ، تحمل الصفحات الأولى منه كلاماً من طراز غير ما اعتادت الكتب أن تحمله من مقدمات ، وعبارات إهداء ، وتحفظات حول حقوق الطبع والنشر .

أما عنوان الكتاب فهو « معلقة الأرز » ، ويحتوى على قصيدة تائية ذات مائتين وواحد وأربعين بيتاً ؛ وتليها قصيدة من شعر الحنين إلى الوطن . وأما صاحب الكتاب فشاعر من قرية « جديتّا » بلبنان اسمه نعمه قازان ، يقيم فى ريودى جانيرو بالبرازيل ، حيث يملك مع نسيبه سليم رزق مصنعاً كبيراً للأحذية ، ولكنه لا ينفق فى العناية به إلا بعض ما ينفق فى العناية بالشعر وفى رياضة نفسه على عمل الخير ، وعلى محبة الآخرين ، كما يظهر ذلك جليًّا فى شعره .

قلت إن لهجة الصفحات الأولى من كتابه جديدة وطريفة ، فالإهداء أنشودة

زجلية ، أغلبها مكتوب بلغة لبنان الدارجة ، وأقلها بالفصحى . وفى الصفحات التالية نجد أن ريع الكتاب « موقوف على الفقراء والمحتاجين » وأما ثمن النسخة فـ . . « قدر عطفك على الفقير ، ولفلس الأرملة قيمة عند الله » وأما حقوق الطبع والنشر فـ . . « مسموح بها لكل مؤسسة خيرية فى الوطن والمهجر ، حتى سنة ١٩٥٠ » . ثم تأتى المقدمة ، فإذا هى مجموعة خواطر تتألف منها عظة فى التسامى الروحى ، وصلاة مؤمنة بالله وبالإنسان وبالحياة .

هكذا نرى نعمه قازان ينحو فى أدبه منحى جديداً ؛ فهو شاعر يفهم رسالة الشعر الروحية ، وهو إنسان يحب الخير للبشرية ، ولا يجد مسوّغاً لفصل الشعر عن الإيمان بالله وبالإنسان وإحكام الصلة بينهما . فهو يقول فى إحدى قصائده تحت عنوان « الحل الأخير » .

كلّ شعر دِينٌ بغير حـــدودِ   فإذا حُدَّ فهو ديـن العبيـدِ
كلّ ديـن لله ، والله حـبٌّ   فإذا الحب ضـاق بالمبغضينا
ليس حبًّا ، كلا ولا الدين دينـا

وهذا القول يذكرنا بتعاليم ميخائيل نعيمه فى كتابه « زاد المعاد » خاصة ، كقوله : « إنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة فسيبقى لكم فى كرهكم ينبوع ألم ، ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم » .

وقازان لا يكتم تأثره بجبران ونعيمه ، فهو فى معلقته يذكر أن جبران هو أول أديب عربى فهم رسالة الأدب فحملها بجرأة وإخلاص ، وأما عن نعيمه فيذكر أنه الدرة الوحيدة التى وجدها فى بحور الأدب العربى ، التى غاص فيها إلى قعرها بحثاً عن الله . والذى يقرأ قصيدة قازان التى يقول فيها :

مـن ورائى الأزلْ   وأمـامى الأبـدْ
فامسحـى باليقينْ   عـن عيـونى الرّمـدْ
إنـنى فى الوجـودْ   روحُـه والجسدْ
مؤمنٌ بالنعـيمْ
كافرٌ بالجحيمْ

أعـــزلٌ إنّمـــا لست أخشى أحـــدْ
مِـــن ورائى الأزلْ وأمـــــامى الأبـــدْ

إنما يعود بالذاكرة حالا إلى قصيدة لنعيمه عنوانها « الطمأنينة » يقول فيها :

بابُ قلـــبى حَصينْ مـــن صنـــوف الـــكَدَرْ
فاهجمـــى يـــا همـــومْ فى المسا والسَّحَـــرْ
وازحـــفى يا نحـــوسْ بالشقـــا والضّجـــرْ
وانـــزلى بالألـــوفْ يـــا خطـــوبَ البشرْ
بـــابُ قلـــبى حصينْ من صنـــوف الـــكدرْ

والذى يراه نعمه قازان هو أن الأدب رسالة قبل كل شىء ، تطهر النفوس من أوضارها وتوجهها نحو إنسانية مثلى لتصل إلى غايتها من الكمال حين تتصل بمصدرها الأعظم : « الله » . وعلى هذا فالأدب هو كل ما يخفف من لوعة ، ويجفف من دمعة ، ويشدد من همة ، ويولد من بهجة . وكل ما عداه ليس أدباً ، ولا قيمة له .

والشاعر الذى يفهم الأدب بهذا الشكل ، إنما يرسم من نفسه صورة من أجمل صور الإنسانية الرحيمة ، والمحبة العظيمة ، والتضحية المتفانية .

أما إنسانيته الرحيمة ، ومحبته العظيمة ، فيدلنا عليهما قوله :

مذ بصقتُ القَذَى الذى فى عيونى أصبح الناسُ كلهم كاملينا

ومحاولته أن يشرح معنى الشعر بقوله :

هو فى النفس أن تضحّى كثيراً وكثيراً حتى تصـــير إلهـــا
كاملا فى محبـــة الأبعدينا

أما حبه للتضحية المتفانية فيدلنا عليه قوله :

ألا فاشربوا الوَحْىَ مـــن جرّتى ولا بأس أن تكسروا جـــرّتى
إذا كان فيهـــا الحيـــاة اشربوا ولا ترفعـــوها على صحّـــتى

والواقع أن الأدب إذا خلا من المعانى الإنسانية التى تقرب الصلة بين أجزاء الوجود كله ، وتحكم رابطة الحب بين أبناء الحياة بأسرهم ، فقد خلا من أجمل

ما فيه – وهو الروح – فالمعانى الإنسانية هى التى تكتب الخلود للأدب لأنها تزوده بمادة الحياة وتقرّبه إلى كل النفوس فى كل زمان ومكان ولسان .

وما دام قازان يفهم الأدب على هذا النحو فلابد لنا من معرفة رأيه فى الأدب العربى كله .

إن قازان ناقم على الأدب العربى ، قديمه وحديثه – إلا أقله – أشد النقمة لجفاف روحه ، وضحولة إحساسه ، ولكثرة ما فيه من معانى الرياء ، والتعاظم ، والنفاق ، والاستجداء ، والشهوانية ، وما إليها من المعانى التى تساعد على قتل الأدب أو انحطاطه . ونقمته هذه تظهر لنا على أشدها فى (معلقة الأرز) خاصة ، وفى روح قصائده الأخرى عامة . ومن أقوال قازان فى التهكم بالأدب اللفظى ، فى إحدى قصائده :

إذا قام شعرٌ بألفاظـــــــه تكون القواميس خيرَ الكتبْ

وفى المعلقة :

أقاس النحاةُ حـــدود الزمان ومرمى خيـــالى وعقليّـتى
لقـد حددوهـــا لأفـــكارهم فضاقت وزمَّت على فكـرتى

والحملة على الأدب العربى وانحطاطه تؤلف شطراً من معلقة الأرز ، فى حين يؤلف الإيمان شطرها الثانى . ولشدة نقمته على الأدب اللفظى نسمعه يهتف فى المعلقة مهدداً :

إذا فتـح الله يومـــاً عـــلىّ رفعتُ البنـــاء على « الكسرة »
فإن كنت نظماً فقـــد تكسرونى وإن كنت شعراً فيا منعـــتى

ولابد لنا من أن نذكر أن قازان شديد الإيمان بمبادئه التى يدعو إليها ، جرىء ومخلص فى نشرها ، فلا يبالى أن يغضب الناس من جرأته وإيمانه ، فهو القائل :

وإن تصلبـــونى ولى كلمـــة فلست لأرجـعَ عن كلمتى

ولعل اندفاعه هذا وتصلبه المتطرف هما سبب انسحابه من « العصبة الأندلسية » التى كان عضواً فيها فى بدء الأمر .

ويجدر بنا أن نذكر أيضاً أن لقازان فضلا على عدد من أدباء المهجر ، فقد

مد إلى كثيرين منهم يد المعونة ، ويسر لهم سبيل الظهور بأن طبع عدداً من مؤلفاتهم على نفقته الخاصة . فهو كما يقول توفيق ضعون : « قد هيأ بسخائه السبيل لظهور سواه وتواريه هو » .

وإشارة أخرى لابدّ منها ، وهى أن قازان الشاعر المبدع فى شعره الفصيح ، هو عينه الزجال « فرخ النسر » المبدع فى أزجاله العامية التى تطلّ علينا من حين إلى آخر فى صحف المهجر . وإذا كان (فرخ النسر) لم يجمع أزجاله فى كتاب ، فإن الشاعر نعمه قازان قد أصدر (معلقة الأرز) عام ١٩٣٨ ، وفى عام ١٩٦٤ أصدر (المحراث) ، وهو مجموعة شعرية ضخمة تقع فى ٣٥٤ صفحة من القطع الكبير ، وتشتمل على العديد من شعره الإنسانى والاجتماعى . ومن (المحراث) نعلم أن نعمه قازان قد ولد عام ١٩٠٨ فى جديثا / لبنان ، ودرس فى الكلية الوطنية فى الشويفات ، وتخرّج فيها سنة ١٩٢٦ . وفى خريف ١٩٢٦ هاجر إلى ريودى جانيرو / البرازيل ، وما يزال هناك .

٣٤ – محمود الشريف
وكتابه « ثورة قازان فى معلقة الأرز »

لست أعرف عن محمود شريف أكثر من أنه المصرى الوحيد الذى أعرفه بين أدباء المهجر . وأنه كان يعمل مع الشاعر نعمه قازان وقد تخصص بتمجيده والكتابة حول شعره ونثره ؛ ومن ذلك كتابه هذا « ثورة قازان فى معلقة الأرز » .

وهذا الكتاب يستحق أن نعقد عليه فصلاً طويلا لتحليل آرائه ومناقشتها ؛ فهو ثورة فى كتاب وليس كتاباً فقط كما عهدنا الكتب . هو ثورة تتناول مواضيع الحياة الهامة ولا سيما الأدب والشعر ، لتقلب إيمان الناس التقليدى بهما من إيمان عجوزى منهوك إلى إيمان إنسانى رحيب ، كله شباب وجمال وطلاقة . وهذه الثورة – ثورة شريف ، لا ثورة قازان – لها كثير من الحسنات التى نقف

عندها بإعجاب وبرغبة شديدة فى اقتفائها ، والعمل على نهجها ، على الرغم مما فيها من تطرف ومغالاة لا يخلوان من عيوب غير قليلة أيضاً . ونحن حين نقف عند بعض آراء المؤلف الناثر لمناقشتها ، إنما نفعل ذلك لأن نقاشنا ليس فى موضوع الكتاب وحده ، وإنما هو فى دقائق موضوعات الأدب العربى عامة التى يتناولها الكتاب فى ثورته الساخطة المحرقة .

أقول ثورة ساخطة محرقة ، والمؤلف نفسه يقول إنه ليس ميزاناً ولا شبيهاً بالميزان ، بل هو « أحد فئة ثائرة ، تهدم وتنظف لتبنى » (ص ٩) ، فعبّر بهذه العبارة الواردة فى مقدمة الكتاب عن خلاصة الكتاب كله .

وليست هذه الثورة هى الأولى فى تاريخ الأدب العربى ، ولا سيما فى عصر النهضة هذا ، وإنما هى واحدة من الحركات الانطلاقية المختلفة التى أبى أصحابها الجمود على القديم – مهما سما ذلك القديم – وإنما أرادوا أن تركض أقدامهم حرة طليقة فى مواكب الحياة المتجددة المتطورة دائماً . ولعل أعنف الثورات الأدبية وأبعدها أثراً قبل هذه – وأخصص فأقول فى عصر النهضة هذا – هى ثورة المدرسة المهجرية على أيدى أصحاب الرابطة القلمية ، وعلى الأخص جبران ، وأبى ماضى ، وصاحب « الغربال » ، وكذلك الريحانى ، فهى أبعد الثورات الأدبية أثراً فى حياة الأدب العربى الحديث ، إذ طفرت إلى الأمام طفرة واسعة المدى إلى حيث وصلت بكثير من نتاجه المتحرر إلى مثل سمت أرقى ما فى الآداب الغربية المعاصرة ؛ وكان قبلها يعتمد غالباً على القشور دون اللباب : كان أدب ألفاظ تنمقها التزاويق البديعية والبيانية ، ويجرى على نواميس « الصحراء » المدفونة تحت ركام أكثر من ألف عام من عمر التاريخ ، فإذا به يعتمد على جواهر المعانى والأفكار بدلاً من اعتماده على الأصداف والقشور . وأما ثورة اليوم فيأبى الأستاذ محمود شريف إلا أن ينسبها إلى نعمه قازان صاحب « معلقة الأرز » ، ويظهر نفسه فيها مجرد شارح لهذه الثورة وتلميذ مخلص لها ، متحمس فى تأييدها والدفاع عنها . والذى أراه أنا أن هذا الكتاب الذى ندرسه اليوم كان يصح أن يكون عنوانه : « ثورة محمود شريف فى معلقة قازان » ، وليس « ثورة قازان » نفسه ؛ فقازان إنما هو شاعر منطلق متحرر ، فك أقدامه وزنوده

من أصفاد الأسر والعبودية ليسير فى أدبه حرًّا طليقاً . وفى تحرره نراه ينتهج فى الشعر أسلوباً هو فى رأيه أصلح الأساليب للحياة . أما الثورة العنيفة فلست أراها صفة له مهما حاول الأستاذ شريف أن يبالغ فى تصويرها ونعته بها .

إذًا فالثائر فى هذا الكتاب هو محمود شريف نفسه ، وثورته تنصب على كلّ شىء ، وتحاول تحطيم كل شىء ، لبناء لغة جديدة وأدب جديد من نوع خاص – كما يريده هو – لأنه يراه أصلح الآداب للحياة ولإنشاء دنيا جديدة تقوم على أسس قومية ودينية وإنسانية جديدة . وهو فى ثورته متطرف إلى أبعد حدود التطرف : لا يؤمن برأى غير ما يراه هو وما يقال إن نعمه قازان يراه معه . وهو مندفع كل الاندفاع ، ومغال كل المغالاة فى تقـــدير مدى ما يسميه « ثورة قازان » .

ونحن نترك الآن « معلقة الأرز » فقد درسناها دراسة مستقلة فى القسم الأول من هذا الكتاب ، ونقصر حديثنا على ثورة شريف فى كتابه الضخم ذى الصفحات الثلثمائة والأربعين من القطع الكبير ، والذى جعل عنوانه ، « ثورة قازان فى معلقة الأرز » ، وطبعه فى المطبعة العربية فى سان باولو فى البرازيل سنة ١٩٤٠ .

وقبل أن أعرض آراء المؤلف التى تستحق التعليق والمناقشة ، أرى أن أشير إلى شىء قليل من حسنات الكتاب . ولعل أعظمها عندى هى جرأة المؤلف فى معالجة موضوعه ، وتعصبه الشديد الواعى للمبدأ الذى يدعو إليه للتحرر من قيود القديم ، وجعل الأدب دعوة إلى الاتحاد بالله ، لأن هذا هو أساس السعادة فى الحياة ؛ فالأديب أو الشاعر هو رسول الحياة ، وهو قائد البشرية – فإذا فسد الملح فبماذا يُملَّح ؟

ومما يلفت الانتباه بنوع خاص تلك الآراء الجريئة والجديرة بالتقدير لما فيها من إخلاص فى التوجيه ، وفى تشخيص الداء ووصف الدواء الناجع ، فى حديث المؤلف على الجهل والجمود : الجهل والجمود فى فهم الدين ، وفى فهم الوطنية ، وفى فهم الأدب . وأخصص فأذكر الصفحات التالية من الكتاب وهى ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١٣٧ ، وغيرها . وأذكر منها مثالا واحداً لأدلّ على موطن الجرأة الواعية عند المؤلف ، فقد قال فى الصفحة ٤٩ ما يلى : « هى قصة رجل

مسلم أحببته كثيراً واحترمته كثيراً ، أما الآن فقد تحول هذا الحب والاحترام إلى عطف وحنان ، وذلك بعد أن جار علىّ باللوم يزعمنى كتبت ما كتبت لأحط من شأن الشعراء المسلمين لغاية فى نفسى ، وكأنه يرمينى بالكفر لأننى انتقدت الأدب العربى من قمته إلى سفحه ، وكأنه يزعم الأدب العربى ملكاً للإسلام ، وكأنه يعتبر الإسلام لغة وفنًّا ، وكأننى مضطر لمحاباة الأدب المجرم الجاهل لأنه جاء فى لغة القرآن ، وكأن العرب قبل الإسلام كانوا يتكلمون الإنكليزية ، وكأن القرآن فى ذاته لم يكن تجديداً ، وكأنه لم يكن ثورة على الجاهلية لغة ودِيناً وحكومة ، وكأن الهندى لن يكون مسلماً لجهله لغة القرآن ولو صلى بالهندية » !

فمثل هذه الآراء الجريئة تحتاج إلى من يعيد النظر فى أمرها ، لئلا يظل الجهل والجمود هما عدتنا فى الحياة ، وهما سبيلنا إلى ما نكافح لأجله من حرية ورقى . ويا لخيبتنا وضياعنا إن ظلا كذلك !

وكذلك لابدّ لى من الإشارة إلى مواضع كثيرة غير هذه ، وُفّق المؤلف فيها توفيقاً كبيراً فى نقده وتوجيهه ، وفى تحليله وتعليله . مثال ذلك تعريفه للشعر والشاعر فى صفحة ٦٤ بقوله : « الشعر عبقرية أو رسالة تولد مع الإنسان ، وتشب وتكبر معه ، حتى إذا نضج طغت على نفسه وقادتها وأنطقتها . . . والشاعر روح قدس ، خلق للإنسانية بلسماً على جرح المظلوم . . . الشاعر هو الحبّ يتكلم . . »

وليس من السهل أن أمضى فى تتبع الحسنات الكثيرة فى هذا الكتاب النفيس الضخم ، لذلك أكتفى منها بما تقدم ، لأتخلص إلى التعليق على بعض ما فى الكتاب من آراء لا أقر صاحبها عليها ، وأتناولها بالرد والتحليل ، لعل فى هذا النقاش توضيحاً وتحديداً يعيّنان السبيل الذى يجب أن ننهجه فى أدبنا الحاضر ، إن كان ذلك فى الإمكان .

وقبل ذلك أود أن أقول إننى مع الأستاذ شريف فى ثورته على الأدب القديم ؛ لأننى أعتقد أن الأدب القديم يعتمد أغلبه على اللغة – ألفاظها وتعابيرها – كشرط أساسى للجودة والقوة . والذى أراه أن « الأدب » شىء ، و « اللغة » شىء آخر ، وبين الاثنين فرق بعيد جدًّا ؛ فالأدب هو رسالة الحياة : الحياة الواسعة الشاملة المتطورة ؛ وليست كذلك اللغة : أى الألفاظ الجوامد ، وإنما هى مجرد وسيلة

تنقل هذه الرسالة ؛ وكل رسالة فى حاجة إلى « ناقلة » للوصول إلى كل فهم وكل ذوق ، يغلب عليها البساطة والرقة والجمال لا الثقل والبلادة والتعقد . ومعنى ذلك أن اللغة التى هى « ناقلة » رسالة الحياة يجب أن تكون من البساطة والسهولة والجمال بحيث تصلح لهذه الرسالة المقدسة .

إلى هنا نحن متفقان ، ولكنا نختلف فى الطريق الذى يجب أن ننهجه إلى « الجديد » الذى نريده . وهذا الاختلاف – الاختلاف فى الطريقة لا فى الجوهر – هو الذى نريد شرحه فى ما يلى :

يقول المؤلف فى صفحة ٢٦ من كتابه : « غسلت ذهنى ، فلا أنا مصرى ولا أنا مسلم . . . وإذا شئت أن تفهمنى أيها القارئ ، فقدّر أننى كنت وأنا أقرأ شعر قازان ميزاناً أو أى شىء آخر حساس ، كالترمومتر ، لا صفة له . . . يقول كلمة الحق عن حالة الجو فى كل زمان ومكان » . فهل فعل محمود ذلك حقًّا ، وهو القائل فى الصفحة ٩ : « لست ميزاناً ، ولا شبيهاً بالميزان . . . » ؟

إن الذى يقرأ الكتاب يرى أن المؤلف لم يكن « ترمومتراً » ولكنه كان متعصباً لقازان أكثر من قازان نفسه ، وأن تعصبه هذا قد دفعه إلى محاولة هدم كل ماعدا معلقة الأرز من شعر ونثر ، ليجعل من شعر قازان « ماء قراحاً وسط صحراء جدباء . . هى الشعر العربى من ألفه إلى يائه » (ص ٢٩) ، وليجعل من معلقة الأرز وحدها « دستوراً للأدب الذى ينبغى أن يكون زاداً للأمة : أهى عربية أم غربية » (ص ١٣) وأيضاً « غاية الغايات فى الأدب القومى العالى » (ص ٤٧) ويقول إنها : « فوق النقد » (ص ١٣٥) ، وإنها « دين جديد اسمه (قرانجيل) – أى قرآن وإنجيل معاً – أو هو جوهر الأديان كلها » (ص ٢٤٤) ، وما إلى هذه الأحكام المطلقة التى أرسلها ، والتى جعل فيها صاحب معلقة الأرز فوق كل من تَقَدَّمه من الشعراء والأدباء . ولم يجد من يستحق الثناء منهم سوى اثنين هما جبران « الفجر » ونعيمه « فجر فى فجر » ، ولكنهما دون قازان أدباً وشاعرية ورسالة ؛ لأن جبران ، فى رأيه قد مهّد للثورة الأدبية الحقة ولكنه لم يجسر على أن يقول كلمته صريحة بل « مات قبل أن يستيقظ . مات قبل أن يحدق فى الشمس كالنبلة » (ص ٢٥٧) ، ونعيمه قد سار فى الطريق نفسه الذى اختطه

جبران وسار عليه قازان ، ولكنه « يلهث من التعب ؛ وينظر تارة إلى البحر الذى انتصر على لججه ، فيبتسم ويشمخ بأنفه ، وتارة إلى الدنيا الواسعة التى نجا بنفسه إليها فيكتئب ويوجس خيفة أن يكون فيها بحر آخر ينبغى عليه اقتحامه ، أو جبل يجب عليه تسلقه للوصول إلى الغاية . . . أما قازان فهو يسير إلى الأمام غير آبه بما مضى ، سعيداً لكل ما هو آت . . . » (ص ١٣) . وحبذا لو أنه اكتفى بأن يقول فى المعلقة إنها « ثورة جاشت فى صدر شاعر مصلح » (ص ٢٤٥) وهو أصدق وصف لها .

وهو فى سبيل إثبات هذه الآراء المطلقة لا يبالى أن يتصدى للمشهور من الشعر العربى الحديث ، فيفنده ويظهر زيفه ، ثم يقابل بعد ذلك بينه وبين « معلقة الأرز » ليثبت للقراء أنه لا يصل إلى سمتها الأدبى شىء مما كتب قبلها أو بعدها إلى اليوم : فهو يتعرض لملحمة « عبقر » لشفيق المعلوف ، « وبساط الريح » لفوزى المعلوف ، و « الأعاصير » للقروى ، وغيرها لغيرهم ، ثم يخرج منها دائماً بالنتيجة التى يريدها .

وأنا لا أستطيع أن أرى رأيه فى هذا ، ولا أستسيغ هذه البدعة فى النقد ؛ فالنقد فوق الأغراض – مهما تكن نبيلة – وغايته أن يحلل المنقود بدقة وبإخلاص ، ويبرز محاسنه وعيوبه دون تجن ، ودون غاية إلا أن يقول كلمة الحق فى أدب المنقود دون أن يربطه بسواه .

ولست أغض من قيمة « معلقة الأرز » إذا قلت إن الأستاذ محمود شريف قد بالغ كثيراً فى التعصب لها وفى تقديرها . فالواقع أن الثورة فيها – وهى ذات شقّين – ليست بدعة مبتكرة ؛ فمؤلفات جبران ونعيمه قد سبقتها إلى كل ما فيها تقريباً : فغربال نعيمه وحده يؤلف شقًّا منها ، هو الشق المختص بالثورة على الأدب واللغة والأساليب الكتابية ، ومؤلفات جبران ونعيمه الباقية تؤلف الشق الثانى الذى يهتم بالروح والرسالة الأدبية . ولكن هذا لا يمنع أن تبقى للمعلقة خصائص أخرى تميّزها ، فكل كتاب لا يمكن أن يخلو من المميزات الخاصة به .

وعدا ذلك نرى أن المؤلف الفاضل إنما يريد بكتابه هذا أن يفرض على الناس لوناً جديداً من الأدب هو اللون الذى يريده هو وحده ؛ وفى هذا تجنّ كثير على

الناس وعلى الأدب ؛ فكما أنه لا يصح للإنسان – مهما سما غرضه – أن يفرض على البشرية كلها لوناً واحداً من الحياة ، كذلك لا يصح لناقد – مهما سما غرضه أيضاً – أن يفرض على البشرية كلها لوناً واحداً من الأدب ؛ لأن الأدب هو صورة الحياة ، وبقدر ما تتنوع ألوانها ، كذلك تتنوع ألوانه ؛ وكما تتسع الحياة لأصوات الشلالات والجداول ، والعنادل والغربان ، والديكة والضفادع ، وغيرها جميعاً ، هكذا يكون فيها مجال واسع لأصوات فوزى المعلوف ، ونعمه قازان ، وجبران ، والقروى ، وشفيق المعلوف ، ونعيمه ، وغيرهم جميعاً ؛ وتآلف هذه الأصوات كلها فى الحياة يشبه تآلف ألحان الحياة والطبيعة أنفسهما ، ففيه جمال ، وفيه متعة ، وفيه سمو ؛ والحياة وحدها هى الناقد الأعظم الذى له وحده الحكم الأخير الفاصل فى اختيار أصلح هذه الأصوات للبقاء .

واللون الأدبى الذى يريد المؤلف فرضه على البشر هو الأدب الذى يدعو إلى الفضيلة ، وإلى معرفة الله : « فمن عرف الله ، ودعا له الناس ، فهو شاعر » (ص ٥٥) . ونحن نرى أن فى هذا اللون وحده سجناً شديد الضيق للأدب : فالأدب يجب أن تكون الحياة كلها جوًّا له ، يبسط فيه جناحيه ، وينطلق فى آفاقه كافة بكل حرية ، فلا تردعه قمة ، ولا تعوقه ريح ، ولا تحده حدود ؛ فإذا تقيد الأدب بأى الحدود فَقَدَ الكثير من مزاياه ومن جماله .

أقول هذا ، وأزيد عليه أن الأدب شىء والرسالة الأخلاقية والدينية وحدها شىء آخر ؛ فهذه محدودة ضيقة ، وذلك لا حدود له .

وشىء آخر ، فالأستاذ المؤلف ناقم كل النقمة على الأدب القديم كله ، يريد أن يحرقه كله ، فلا يبقى على شىء منه لأنه ليس فيه – على رأيه – شىء يصلح للحياة . وهو يرى أن « المكتبة الشعرية القديمة أمٌّ بلغت من العمر عتيًّا وماتت ، وها هو ذا يقبرها بكل احترام وإجلال » (ص ٣٥) . وأنا أرى فى هذا كثيراً من المغالاة ، فما كل القديم غير صالح ، ولا كله يستحق أن يقبر ؛ فلسنا نعدم فيه كثيراً من النفحات العبقرية ، التى ستظل جديدة مع الجديد نفسه ، بألفاظها ، وأوزانها ، ومعانيها ، لأنها تتحلى بكل الصفات التى يجب أن يتحلى بها الأدب الجديد .. غير أن ما قاله الأستاذ شريف ينطبق على القسم الأكبر

من الشعر القديم ، وعلى هذا يكون فيما قاله الأستاذ كثير من الصواب ولكن ليس فيه كل الصواب . وكذلك أرى كثيراً من الصحة فى ما قاله أيضاً الأستاذ سعيد عقل فى مقدمة « بنت يفتاح » من أن الأدب العربى القديم إنما يستند فى بقائه على قدمه وحده وليس على صلاحيته للبقاء . وهذه الحقيقة المرة تستوجب الأسف الشديد .

وفى الصفحة ٤٥ يقول الأستاذ شريف : « نحن أمة أغلبها جاهل ؛ فلماذا يظل بعضنا المتعلم فى عزلة عن الجهلاء لا ينتفعون بعلمه وبفضله ؟ ولماذا نظل هكذا ككهنة عين شمس : علومنا ألغاز وأفكارنا معميات ؟ » . وهذا صحيح كل الصحة ، ولكن العلاج الذى يصفه الأستاذ فيه ما يستحق منه إعادة النظر ؛ فهو يجيب عن سؤاله بقوله : « أنا أعرف أن من الصعب النزول إلى العامية ، وأصعب منه على العامة الصعود إلى الفصحى ؛ فماذا علينا إذا تنازلنا عن القيود اللغوية والألفاظ والتعابير الفصيحة إلى أقرب وضع للعامية » ؟ فى هذا العلاج بعد عن الحقيقة ، وغلو شديد فى التفريط باللغة . ومن الغريب أن نداوى كثرة الجهل بالتضحية التامة باللغة والإبقاء التام على الجهل !

إننا مع الأستاذ شريف فى أن اللغة يجب أن تساير العصر فى ألفاظها وتعابيرها ، ولكن لا على الشكل الذى تهبط فيه إلى أقرب وضع للعامية بعد أن تتخلى عن أكثر مزاياها : فعدا أن فى هذا إبقاء على الجهل ، فإن فى القضاء على الفصحى إلى الحد الذى يريده الأستاذ قضاء على القومية العربية ؛ فالفصحى هى الرابطة الوحيدة التى تشعر العرب حيثما كانوا برابطة القومية ، ولولاها لتفرق العرب طوائف ومللا لا تقع تحت حصر بسبب تعدد لهجاتهم التى تتطلب – لو أخذنا برأى الأستاذ شريف – أن تجاريها الفصحى جميعا ، فيصبح لكل لهجة منها لغة فصحى قريبة منها وخاصة بها .

وحتى هذا لا يرى الأستاذ فيه أمراً له أهميته ، فهو يقول فى الصفحة ١٥٤ : « لك أن تجعل من لغة الكتاب وحدة ، ولى أن أذكّرك بأن تلك الوحدة سائرة إلى التفكك شيئاً فشيئاً . . . لأن العامية طغت على الفصحى . . . وهكذا يكون عامى

اليوم فصيح الغد ، وهكذا يخلق الله ما أو من يضبط العامية ويجعلها لغة فصحى مستقلة بذاتها فى كل من بلاد الضاد » .

إن فى هذا تشاؤماً غير محدود المدى ، وإفراطاً ممعناً فى التعصب لفكرة الهدم فى سبيل البناء . فنحن حين نصل إلى مثل هذا الحد سنكون أعجوبة بين الأمم ، ويكون أدبنا أعجوبة بين الآداب : وما ظنّك بأدب أمة يكتب بألف لهجة عامية لا رابطة بينها ولا تجمعها وحدة ؟ إن هذا الهدم لا بناء بعده ؛ وهو هدم يتبعه هدم شنيع من نوع آخر ، هو هدم القومية العربية من أساسها ، والعياذ بالله ! ولذلك أستبعد كثيراً أن نصل إلى مثل هذا التفكك الذى يصوره محمود شريف مهما غالى المجددون فى التعصب لفكرة الهدم فى سبيل التجديد . ومن العبث الشديد أن لا نبالغ فى المحافظة على قوميتنا العربية ، فنحن من دونها لا يمكن أن نكون أمة . وأقوى روابط هذه القومية هى اللغة الموحدة التى تجمع بين كل الأقطار العربية .

والوسيلة الوحيدة للقضاء على فوضى الجهل عندنا هى ، فى رأينا ، تعليم العامة اللغة الفصحى التى تناسب العصر ، وليست القضاء على الفصحى للإبقاء على الجهل والعامية .

بقيت هناك أشياء تستحق التعليق والمناقشة ، ولكنها خاصة وليست عامة ، فهى تتعلق بإبداء الرأى الشخصى فى انتقادات شخصية ، مثل آراء المؤلف فى بعض الشعراء الذين ذكرهم فى كتابه : كالقروى ، وفوزى المعلوف ، وإلياس أبى شبكة وغيرهم ، فإن رأيى فيهم يخالف رأيه . . .

٣٥ – الشاعر فيليب لطف الله

من جامعة القلم

من بلدة بسكنتا ، التى ظهر منها ميخائيل نعيمه ، ورشيد أيوب . ولد هناك سنة ١٨٩٧ ، ودرس فى مدارسها الابتدائية ، وألم بشىء من الفرنسية والإنكليزية . وفى عام ١٩٢٠ هاجر إلى البرازيل . وهناك عمل مع أخيه سليم لطف الله فى التجارة . وكان سليم قد سبقه إلى الهجرة منذ عام ١٩١١ . ثم استقل فيليب بإنشاء مصنع لعلب الكرتون . وعاد عام ١٩٣٠ فحوّل مصنع الكرتون إلى مصنع للنسيج الحريرى لم يلبث أن أصبح من المصانع الكبرى . وبعد سنوات عاد فحوّل مصنع النسيج الحريرى إلى مصنع لحياكة القطن والصوف . واتسعت ثروته ومصانعه ، فأنشأ شركة للبناء وبيع الأراضى تعتبر الأولى فى سان باولو . وتزوّج فيليب ، وأصبح ربّ أسرة كبيرة تتألف الآن من خمسة أبناء ، كلّهم يحملون شهادات عالية ، وقرابة عشرين حفيداً وحفيدة .

ولم تصرفه التجارة والأعمال الواسعة والثروة الطائلة عن ممارسة الكتابة نثراً وشعراً وزجلاً ، وظهرت قصائده وأزجاله ومقالاته فى صحف المهجر الكبرى ، كالعصبة ، والشرق ، والمراحل ، وغيرها ؛ وتناقلت بعضها صحف الوطن . وعرف فيليب لطف الله كذلك بسخائه على الأدب والأدباء ، وعلى المشاريع الخيرية التى تنفع بلده . ومن ذلك ما جاء فى مجلة (المراحل) التى تصدر فى سان باولو (العدد ٢١٥ ، السنة ١٩ – تموز ١٩٧٤) من أن فيليب قد استعدّ مع نفر من أبناء بسكنتا فى البرازيل للتبرع بمبلغ من المال فى سبيل مشروع يعود على قريتهم بالخير الكبير . وفى تلك المناسبة اقترح ميخائيل نعيمه أن يشمل المشروع « مكتبة عامة وغرفة مطالعة ، وقاعة للسينما والتليفزيون والمحاضرات تتسع لخمسمائة كرسى ، وقاعة للألعاب ، تقوم كلها فى وسط حديقة من العشب الأخضر والأزهار المختلفة ، وتتّسع أرضه لبعض الملاعب الحديثة ؛ لكى يخلق من بسكنتا مدينة حديثة نموذجية فى لبنان » .

وفى البرازيل اشترك فيليب فى عدد من الجمعيات والهيئات الثقافية والرياضية ؛ فكان رئيساً لنادى جبل لبنان الرياضى ، ورئيساً للجمعية الثقافية العربية ، وأخيراً رئيساً لجامعة القلم .

أصدر فيليب بالعربية كتاباً عنوانه (نسمات برازيلية) يضمّ ترجمات من شعر عدد من كبار شعراء اللغتين الإسبانية والبرتغالية ؛ وكتاباً باللغة البرتغالية عنوانه (نسمات لبنانية) .

وفى عام ١٩٧٠ ، وبعد هجرة خمسين سنة ، عاد فيليب لزيارة لبنان ، وقضاء صيفية جميلة فى ضيعته الجميلة بسكنتا وغيرها من المصائف اللبنانية ، وحمل معه مخطوطة شعرية طبعها فى لبنان ، وجعل عنوانها (نسمات الجبل) ، وهو الجزء الثانى من ديوانه . وكان الجزء الأول يحمل العنوان عينه ، وقد صدر من قبل فى البرازيل .

ولقد سبق أن قدّمنا شيئاً من زجله ، وفى ما يلى نقدّم شيئاً من شعره .

يقول فى قصيدة غزلية عنوانها (ذكريات) :

هــل تذكرين لقــاءنا عبر السنين ... أيامَ بــدرى كان من نور الجبينْ

والحبُّ تقذفنا دروبُهْ

والشوق يلفحنا لهيبُهْ

والليل لا زهــرٌ وأشباحٌ مخيفــه ... ويلفّنــا بعباءة الحب اللطيفــه

وتضمّنــا أيدى الهــوى متعانقين ... وأهيم بين الناهــدين النــافريْنْ

* * *

ويقول فى المشيب والهرم ، من قصيدة بعنوان (الهرم) :

جاء المشيب يحاكى الثلج منتشراً ... على الجبال ، وبردُ العزم والهمَم

والعقل ما زال بالآمال منطلقــاً ... نحو الكمال ، وأضحى الجسمُ فى نعم

يا ضيعة العمــر فى جسم تُرقّعُــه ... وضيعة العقل فى واهٍ من الهَـرَمِ !

٣٦ – الشاعر برنْردُس القِزّى
البرازيل

عرفتُ برنردس القزّى الشاعر عن طريق مجلة (المراحل) بشكل خاص ؛ فقد كنتُ أجده فى القسم الأكبر من أعدادها ، إن لم أقل فى كلّ عدد منها تقريباً . ثم ظهر عام ١٩٧٣ ديوانه (أطايب شعرية) ليكرّس له مكاناً فى أدب المهجر الجنوبى .

لستُ أعرف شيئاً عن حياة القزى ، ولا من أين هاجر إلى البرازيل ، ولا متى كانت هجرته . والذى يهمّنى ههنا أن أفرد له صفحة من هذا الكتاب الذى يؤرخ حركة الأدب فى ديار الهجرة الأميركية منذ نشأتها إلى اليوم . ومن حق القزّى أن يكون له مكان فى هذا الكتاب ، لأنه شارك منذ أكثر من عشرين سنة فى حركة الأدب المهجرى ، وممّن لهم الفضل فى استمرار حياة الحرف العربى فى المهاجر الجنوبية إلى اليوم . وديوانه الوحيد ، الذى استطعتُ أن أطلع عليه بفضل الصديق الشاعر السورى وجيه وهبه الخورى ، يقدّم لنا مادة الدراسة السريعة .

ومنذ البداية أقول إن شعر القزى – مثل شعر فيليب لطف الله ، ونبيه سلامه ، وغيرهما من شعراء المهجر الأحياء ، غير المؤسسين – لا يمثّل الشعر المهجرى فى زهوته ، ولكنه يقف بين أجود ما بقى منه إلى اليوم . وهو لم يقدّم – وليس فى مقدوره أن يقدّم – جديداً فى الشكل والمضمون ، لأن زهوة الأدب المهجرى الأولى ذهبت ، وذهبت معها جدته فى الشكل والمضمون ، لتباعد الزمن ، ولأن الجديد فى المشرق سبق الجديد فى ديار الهجرة ، بكثرة الدم الجديد الذى يجرى فى عروقه ، ويظلّ يجدّد شبابه ، وعدم تجدد الدم فى عروق الأدب المهجرى بأجيال جديدة من الشعراء والأدباء الطموحين ويتلخّص كلّ فضل الأحياء من أدباء المهجر وشعرائه اليوم فى إبقاء الحرف العربى حيًّا فى تلك الدنيا البعيدة .

يتميّز شعر القزى بكثرة الغزل فيه ؛ فأغلبه من شعر الهوى والجمال . من ذلك قوله فى قصيدة عنوانها « غيرة » :

ردّى أزاهـــير الـــربى عن ثغـــرك المتنعّمِ
إنى أغـــار من الأزاهر أن تُقَبَّـــلَ بالفَم
صـــدقوا وقـــد قالوا بأنـ ـك روضـــةٌ لم تُغنم
والروضُ أجمـــل ما يكو ن بزهـــره المتبسّمِ
لكننى لا ، لست أرضى فـــوق ثغـــرك يرتمِى
حتى العبير من الزهـــور لَثَمتِ أم لم تلثمـــى !

وقوله بعنوان « حنين » :

رأتنى أقلّب فى وجههـــا لحاظ التشـــوّق والغـــيرةِ
فقالت : تمنّ ؟ أجبت : أجل حنين العبـــير إلى الزهـــرة !

وتكاد لا تجد معنى طرقه الشعر المهجرى من قبل إلاّ وله صدى فى شعر القزى : الوطنية ، والحنين ، والإنسانية ، والطبيعة ؛ حتى شعر المناسبات والإخوانيات سجّله القزى فى ديوانه .

ومن قصائده الإنسانية قصيـــدة قصيرة عنوانهـا (عطاء) ذات خمسة أبيات هى :

وتبسّطت لى كفّـــــه ترجو من الإحسان شَيْ
فوقفتُ محـــزوناً أقـــول وناظـــراه بنـــاظِرَى :
أَأَخى ، رجوتك ، ليس لى مال ، فلا تعتب علىْ
فأجابنى : شكراً ، لقـــــد أعطيت ما لم يُعطِ حَىْ
يكفيـــك أن ناديتنـــى – وأنا الفقير – بيا أُخَىْ !

ويناجى القزى فراشة فى قصيدة له عنوانها « لماذا تحترق » ، فيذكّرنا بنجوى أبى ماضى للفراشة ، مع الفارق الكبير بين خيال الشاعرين وبين أسلوبهما الشعرى . ويبدأ القزى قصيدته بالتساؤل عن السبب فى تهافت الفراشة على الاحتراق بالمصباح ، فيقول :

ما للفراشة فى المصبـــاح تحترق ؟ هل صُوّح الحقلُ : لا زهرٌ ولا عَبَقُ ؟ !
ولا جداول فى الأرياف تغـــدُ لها مِلءَ الجناحين ، تطفو ثم تنزلق ؟ !
هل غار كلّ نعيم فى الوجود ، فلا وهجٌ يلوّن بنت الحقل أو شفَقُ ؟ !

ثم يجيب عن تساؤلاته جواباً يرسمه خيال الشاعر ، وليس الحقيقة ؟ فيقول

لا ، لا ؛ هنالك مصباح على ألقٍ ... فوق الدياجى ، وكم يحلو لها الألقُ
فآثرتــه على ليـــل تعيش بــه ... غمًّا ، فهبّت إلى المصباح تحترقُ

ثم يخاطب الفراشة فيقول مُقارناً بينها وبينه :

إنى لصنــوك يا شقــراء فى أفقٍ ... محيّر اللون ، لا فجرٌ ولا غَسَقُ
ولا رياضٌ على عينىّ زاهيـــةٌ ... ولا سواقىَ بين الروض تنـــدفقُ
لا تحسدينى إذا ما كان بى رمــقٌ ... وأنت بُقيــا رمادٍ ما به رمــقُ
ليس الذى تحرق الأنوار مهجتــه ... مثل الذى فى ظلام الليل يختنقُ !

* * *

لقد ضمّ ديوان (أطايب شعرية) ١٢٩ قصيدة ، القسم الأكبر منها خطوات قصيرة جدًّا ، تتراوح ما بين البيتين والأربعة الأبيات ؛ وتتنوّع موضوعات هذه القصائد التى تجتمع فى ١٢٠ صفحة من القطع المتوسط . وقد طبع الديوان فى مطبعة المراحل فى سان باولو ، بمساعدة الشاعر الثرىّ المعروف فيليب لطف الله .

٣٧ — نبيه سلامه

من جامعة القلم[١]

على ضفة العاصى ولد نبيه سلامه عام ١٩٠٨ فى مدينة حمص ، التى ولد فيها كذلك أدباء وشعراء عديدون ممن عرفتهم المهاجر الأمريكية وتغنّى بشعرهم الشرق والمهاجر ، والذين برز منهم نسيب عريضة ، وعبد المسيح حداد وندرة حداد — من أعضاء الرابطة القلمية فى نيويورك — وميشال مغربى ، وسلوى سلامة أطلس ، وحسنى غراب ، وأخوه مدحت غراب — فى المهجر الجنوبى ، فى البرازيل — .

---

(١) أودّ أن أتقدم بالشكر العميق لأخى الكبير الأستاذ الشاعر وجيه وهبه خورى ، صديق نبيه سلامة وزميل صباه فى حمص ، فقد تفضّل وبعث إلىّ من دمشق بحزمة أوراق بخط يد صديقه نبيه دوّن فيها سيرة حياته ؛ كما تفضل بإهداء ديوان نبيه (أوتار القلوب) إلىّ ، فأعاننى على كتابة هذه الكلمة ؛ ولولا فضله ما استطعت كتابتها

لم يستطع دخول المدرسة إلاّ فى عام ١٩١٩ ، وكان عمره إحدى عشرة سنة . وكان ذلك لأن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان من جرائها إغلاق المدارس ، وإشاعة الفقر والمجاعة . وقد اضطر نبيه إلى الخدمة منذ أن كان فى الثامنة من عمره ، وكان أصغر إخوته السبعة ، وقد سافر أخوه الأكبر عارف إلى الحرب ، وظلّت الأسرة بعده دون عائل . وبعد الحرب هاجر خمسة من إخوته ، أما هو فقد دخل المدرسة . ورعاه المعلّم حنا جناز فى المدرسة الإنجيلية .

لم تزد دراسة نبيه على خمس سنوات – كما يقول فى مذكراته المخطوطة – ولكنه اعتمد على المطالعة ، وأخذ يكتب وينظم الشعر وهو دون الخامسة عشرة من عمره ؛ وشرع ينشر كتاباته فى جريدة (حمص) وجريدة (صدى سورية) .

اشتغل معلماً فى عدد من المدن السورية . وفى عام ١٩٣٥ غادر سوريا مهاجراً إلى البرازيل ملتحقاً بأمه وإخوته . وعمل هناك فى الصحافة حتى عام ١٩٤٠ ، ثم انصرف إلى التجارة ؛ ولكنّ الحظ عاكسه ، فالتهمت النيران متجره ؛ فضاقت به الدنيا . فهجر سان باولو إلى بلدة بعيدة فى داخلية البرازيل . ولم يعد إلى سان باولو إلاّ عام ١٩٦٧ ؛ وعمل هناك محرراً فى مجلّة (المراحل) ، وراح من هناك يراسل جريدة (حمص) فى مسقط رأسه .

وأصدر نبيه فى المهجر ديواناً شعرياً واحداً دعاه (أوتار القلوب) ، وجمع فيه العديد من القصائد المتنوّعة التى نظمها فى ديار الاغتراب ؛ وقسم كبير منها فى الحنين ، والوطنية .

فى عام ١٩٧١ عاد نبيه سلامة لزيارة الوطن الذى اغترب عنه ستة وثلاثين عاماً . وبعد عودته إلى البرازيل أصدر ديوانه الشعرى المذكور .

لقد أثرت حياته على شعره ، فظهرت هذه الآثار جليّة فى بعض قصائده . ومن ذلك أن إخفاقه فى العمل التجارى ، ونجاح الكثيرين غيره ووصولهم إلى الثراء ، جعله يتساءل عن السرّ فى ذلك . فقال :

هل الطريق التى أجتـــاز شائكةٌ أم الدليل الذى استخلصته خَدَعا ؟
هذى سفائنهم تختـــال مشرعـــةً أمّا شراعى فأذراه الهوى قِطعـــا !

* * *

ويقول أيضاً معبرًّا عن آلام الاغتراب ، والحنين إلى الوطن :

شطرتُ عمرى إلى ماضٍ ومغتربٍ : فذاك حيٌّ ، وهـذا يضمحلّ سُدَى
لى بالعروبة إيمـان أصيـح به ولى فؤاد سوى الأوطان ما عبـدا

* * *

وفى قصيدته الطويلة ذات الأناشيد المتعددة بعنوان (ذكرى حمص) يعبرّ عن حنينه إلى مسقط رأسه ، وإلى ذكرياته البعيدة ، ورفاق صباه وشبابه الأول فيقول :

تباركت يا حمص بين البـلاد وأمرع روضك طول المـدى
حملنـا خيالك بين الضلوع وما ظلّ من يحمل الفرقـدا
كأنَّ المهَاجـرَ حمصٌ تسيرُ وتنشر من حـولها السؤددا
معاذ الهوى أن يُضِلّ البعـادُ بنين يُحلّـونك الأكبـدا !

* * *

إذا ما ذكرت غـوانى حمصٍ فقـد قلت للطُهر أن ينحنى
حسانٌ يطيب بهنّ الربيـع ويلمع نجم الدجى الأدكنِ
ترفّ عليهنّ شمس الضحـى وترتدّ من حسنهنّ السـنِي

* * *

ويتذكر خمائل (المياس) وشلاّل (الدوير) ، فيهتف :

خمائل وشّى الإله حلاهـا فراحت تشدّ إليهـا النظرْ
يرفّ عليهـا الفراش اللعوب ليأخـذ عنهـا بديع الصـوَرْ
وتنشد فوق الغصون الطيـور فيصغى المغنىّ ويهفـو الوتَرْ
تَجاوَبُ ألحانهـا فى الرياض فتحسبُ عرساً بأعلى الشجـرْ
ويعبث فيهـا النسيم الرفيق فينشر من طيبهـا ما استتر

* * *

ونهـرٍ تململ فى جنبهـا يروّيه بالأدمـع الطاهـره
كصبٍّ يهمّ ببـاب الحبيب وتمسكه الصرخة الزاجـره
فلمّا تعـذّر نيـل الوصال تطوّح فى الهـوَة الفاغـره

وراح يقارع صلد الصخـور ⠀⠀ بنفس مـا ربدة ثائـره
وتلك الصخور على صمتها ⠀⠀ تـرد كتائبه خاسره

* * *

وفى قصيدته (قلبُ القلب) يهتف فى حنين وحرقة :

فى دوحة المياس خلّفتُ الصبى ⠀⠀ ومضى الشباب ولم أزل متطلّعا
أغـدو وأمسى حالمـاً برياضها ⠀⠀ يا من يردّ على الظماء المرتعا ! !

* * *

أما صور الشقاء التى رافقت إخفاقه فى حياة العمل التجارى ، والتى ألجأته إلى الهرب من سان باولو إلى بلدة تبعد عنها مسافة ٧٠٠ كيلومتر ، ليعيش هناك عشرين سنة بعيداً عن الأصدقاء وعن اللسان العربى : فهذه صورة منها فى مطوّلته الأخرى ، ذات الأناشيد المتعددة (غريب مرّتين) :

إذا جنَّ الظلام وحـان ليلى ⠀⠀ أخذت دخينتى ومـلأت كأسى
أعاف الناس ، لا أبغى سميراً ⠀⠀ سوى هاتين ، من جنٍّ وإنسِ
فأنشقهـا مشعشعة بنـارٍ ⠀⠀ وأبعثهـا مضرّجة ببـؤسى
نفرتُ من النهار إلى الدياجى ⠀⠀ فأصبحُ عنـدما الأحيـاء تمسى
أغالب ثورة الأنواء وحـدى ⠀⠀ كأن سفينتى تجـرى لتعسى
فلا الأرياح حاجبةٌ أذاهـا ⠀⠀ ولا المينـاء دانيـةٌ فتُرسى
أعيش مع الأناس ولستُ منهم ⠀⠀ كأنى قد أذنت لهم بحبسى
وما تحلو السجـون لساكنيها ⠀⠀ ولو فُرشتْ بأنواع الدمقس !
مغـانى العـرب مالكةٌ حنينى ⠀⠀ وسان باولو تضمّ رفاق أنسِى
غريب مرّتين ؛ ومن يقـاسى ⠀⠀ أذاة الهجـرتين حليفُ مَسّ
تقضّت ميعة الدنيـا عـذاباً ⠀⠀ فهل بعـد الكهولةِ من تأسِّ !
أودّ لقـاء من أهـوى بعينى ⠀⠀ مللتُ لقـاء خلاّنى بِطِـرسِ !

* * *

٣٨ – الشاعر يوسف الفاخورى

فى عام ١٩٦٨ غاب فى البرازيل وجه من الوجوه الشعرية التى طالما غرّدت فى ذلك المهجر الجنوبى ، وحملت إلينا مجلة (المراحل) ، بشكل خاص ، الكثير من أغاريده ، كما حملتها صحف المهجر الأخرى . وكان ذلك الوجه وجه الشاعر يوسف الفاخورى : وكان من المهاجرين الذين لم يُلههم الغنى الوافر ، ولا شغلتهم الأعمال التجارية الواسعة الناجحة عن الصداح ، وعن اللجوء إلى مداعبة أوتار الشعر ، ومغازلة ربّاته وشياطينه .

وفى غربته التى طالت نحو ٣٦ سنة ، ظلّ يوسف الفاخورى يحمل فى نفسه كآبة الغربة ، ولوعة الحنين إلى لبنان ؛ وكآبته الملازمة نجدها فى شعره الذى جمعه فى ديوان دعاه (نوى) ، صدر فى البرازيل قبل وفاته بسنوات قلائل . والعنوان نفسه معنى كبير من معانى الكآبة والحنين .

وهذا الحنين أمر طبيعى لمن غادر الوطن يافعاً ، مثل الفاخورى ، وعاش فى الغربة عشرات السنين ، بعيداً عن الأهل ، وعن الأحبة ، وعن موطن الذكريات الحلوة . وليس غريباً لذلك أن نسمع الشاعر يهتف بحرقة ولوعة :

أرز لبنان ، يعلم الله أنّـــــا ما برحنا على العهـــود الأَوالى
علّلتنـــا النوى بنيـــل الأمانى والتعلاّتُ من هـــزيل المقـــال
قد حملناك فى القلـــوب وسرنا فى ميادينهـــا الصعاب الطوال

كان الفاخورى بين كبار الأثرياء العرب فى البرازيل ؛ فقد كان يدير مصرفاً كبيراً ناجحاً ، ومعامل للنسيج أنشأها بكدّه وعرقه ، ويبنى عمارات كبيرة متعددة للإيجار . فكان فى عمله ناجحاً جداًّ ؛ وكان إلى جانب نجاحه فى العمل وثرائه سخىّ الكفّ ، ندىّ القلب ، كريم الإحساس مع الآخرين . ومن دفء شعوره الحادب الحانى يقول فى إحدى قصائده الجميلة الرقيقة :

أيهـــا الدهـــر ، أعدنى زهرةً تغمـــر السهل شـــذاً والجبـــلا
وعلى هام الذرى أغنيـــــةً تُرقص النسر وتُحيى الجنـــدلا

وعلى الظُلم أحِلْنِى عاصفـــاً وعلى الجرح المدمّى سلســـــلا
وعلى الفقـــر أقمنى ثــورةً وعلى الجهــل كتاباً منـــزلا

وبين العمل الجاهد الدائب ، والحنين اللاعج إلى الوطن ، يتدفق حنين آخر إلى الأيام التى تمضى مسرعة ، وتقرّب بسرعتها الشيخوخة . فيقول الشاعر فى ذلك من القصيدة عينها :

سلبَ الدهر من العمــر الصبا ومن الزهر استردّ الأجمـــلا
ومن الكــأس التى أرشفهــا أفرغَ الخمــر وخلّى التفَــلا
إنها الدنيا ، فخذها منحــــةً فمن الحكمة أن لا تغفـــلا
وأنــا البــاكى على أيامــه يعصر الروح فيجنى الحنظــلا
أعطنى المــاضى وتذكاراتــه وخــذ الحاضر والمستقبــلا !

والماضى وتذكاراته هى الوطن ، وهى الصبى ، وهى أيام الهوى الحلوة على شواطئ لبنان ، وفى ظلال صنوبره وسروه ، وعند بُخار أوديته المتصاعد نحو القمم الشوامخ ؛ وهى أيضاً أيام اللهو والعبث واللامسئولية .

لقد كان فى شعر الفاخورى رقة ولطف وعذوبة ، وكان فيه خيال جميل ، وحسّ مرهف أنيق .

٣٩ – الشقيقان الشاعران
إلياس قنصل وزكى قنصل

ليس من الممكن أن يتحدث المرء عن أدب المهجر الجنوبى ولا يتحدث عن الأخوين الشاعرين إلياس وزكى قنصل ، وهما أبرز أدباء العرب فى الأرجنتين ، وأبعدهم فى حلبة الأدب صيتاً ، وأجودهم أدباً وشاعرية . ولم يكن العمل للارتزاق فى ديار الهجرة ليلهيهما عن النظم والتأليف ، وعن نشر القصائد والمقالات فى كثير من جرائد المهجر ومجلاته ، وفى صحف الوطن فى بعض الأحيان .

وفى ما يلى نتحدث على كل من هذين الأخوين الأديبين على حدة :

٤٠ – إلياس قنصل

كتبت مرة إلى إلياس قنصل – عام ١٩٥١ – أرجو أن يبعث إلى بشيء من ترجمة حياته ، ومؤلفاته المطبوعة . فكتب إلى رسالة تاريخها ١٨ / ٧ / ١٩٥١ يقول فيها ما يلى :

« رأيت النور فى مدينة يبرود – سوريا – منذ أربعين سنة أو أقل قليلا ، حيث لبثت ثلاثة أعوام فقط ، وانتقل بى والدى إلى العالم الجديد ، ولا أزال .

أصدرت مجلة « المناهل » ، ثم حجبتها لدواع صحية .

توليت رئاسة تحرير « الجريدة السورية اللبنانية » سبعة أعوام » .

وبعد أن سرد قائمة طويلة بأسماء مؤلفاته ودواوينه الشعرية المطبوعة ، أضاف قائلا : « أنعمت علىّ الحكومة الوطنية السورية منذ سنة ١٩٣٦ بوسام الاستحقاق السورى – أول وسام لأديب عربى فى المهاجر » .

وكان هذا كل ما استطعت حين ذاك أن أعرفه من حياة إلياس قنصل . أما أدبه فقد اطلعت على الكثير مما كان ينشره فى صحف المهجر من شعره ونثره ، كما اطلعت على عدد من مؤلفاته الأدبية ودواوينه الشعرية كان قد أرسلها إلىّ منذ أن بدأت صلتى به – عام ١٩٤٩ – عن طريق الشاعر والأديب المهجرى المعروف جورج صيدح .

وما دام إلياس قنصل قد بلغ الأربعين ، أو دونها قليلا – كما يقول فى رسالته – عام ١٩٥١ ، فيكون قد ولد عام ١٩١١ ، أو عام ١٩١٢ ، أما جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » ، والبدوى الملثم فى كتابه « الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » فقد جعلا تاريخ مولده عام ١٩١٤ وهما يعرفانه معرفة شخصية ، ولا بد أن يكونا قد أخذا هذا التاريخ عنه هو نفسه أيضاً .

وإذا كان قد سافر إلى العالم الجديد وهو ابن ثلاث سنوات فيكون العام الذى سافر فيه هو عام ١٩١٤ أو ١٩١٥ . فى حين يقول صيدح إنه هاجر وهو فى العاشرة

من عمره ، ويقول البدوى الملثم إنه هاجر وهو ابن عامين . وفى هذا اختلاف بيّن لا أعرف من أين جاء مصدره . ونحن لذلك نأخذ بما جاء فى رسالة الشاعر نفسه[١] ، لأنه أدرى بنفسه من سواه .

ويذكر البدوى الملثم أن الشاعر لم يلبث أن « عاد مع سائر الأسرة إلى الوطن عام ١٩٢٠ ، ودخل المدرسة الابتدائية فى مسقط رأسه ولبث فيها أربعة أعوام لم ير بعدها مدرسة قط غير مدرسة الحياة ، ثم هاجر إلى الأرجنتين ثانية مع ذويه . . . »

ولم يذكر الشاعر فى رسالته إلىّ شيئاً من ذلك ، كما أن جورج صيدح لم يشر إليه فى كتابه ، بل جعل تاريخ هجرة الشاعر عام ١٩٢٤ . ولعله تجاوز عن بداية هجرته ، وجعل البداية الحقيقية هى الهجرة الثانية التى أشار إليها الملثم .

وقد أقام السيد إلياس فى ديار الهجرة إلى عام ١٩٥٥ ، ثم عاد إلى الوطن ؛ وكان يعتزم أن يبقى فيه نهائياً ، غير أنه لم يجد الأمور فيه كما كان يتخيلها ، ويرجوها ، فلم يلبث أن عاد إلى الأرجنتين عام ١٩٥٨ . وقد تلقيت منه رسالة مؤرخة ٢٣ / ٥ / ١٩٥٨ يقول فيها :

« أنا الآن فى مغتربى ، عدت إليه بعد أن قضيت فى ربوع الوطن العربى مدة درست خلالها أوضاعه ؛ وأعمل على وضع كتاب عن القومية العربية باللغة الإسبانية ، تلبية لرغبة إحدى دور النشر »

وفى هذه العودة القصيرة إلى سوريا طبع إلياس هناك أربعة كتب ، هى : (دولة المجانين – فلسفة حمار – غالب أفندى المغلوب – رباعيات قنصل) والكتب الثلاثة الأولى منها نثرية ، والرابع شعر . ولم يكن « غالب أفندى المغلوب » كتاباً جديداً ، فقد سبق أن طبع فى الأرجنتين قبل عدة سنين ، ولكنه أعيد طبعه من جديد فى الوطن .

وأما فى المهجر فقد صدر لإلياس قنصل عدد كبير من المؤلفات ، بينها خمسة دواوين شعرية . وهذه هى مؤلفاته المطبوعة فى المهجر :

---

(١) الرسالة محفوظة فى مكتبة الجامعة الأردنية مع أكثر من ٣٠٠ رسالة أخرى تلقيتُها من أدباء المهجر وشعرائه ما بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٦٠ .

١ – الدواوين الشعرية : (الأسلاك الشائكة – السهام – على مذبح الوطنية – العبرات الملتهبة – بسمات الفجر) وقد ذكر لى فى إحدى رسائله أن ديوان « السهام » أحبّ دواوينه إليه ، وآثرها عنده .

٢ – المؤلفات النثرية : (فى سبيل الحرية – على ضفاف بردى – بين معارك الثورة – البقايا – أصنام الأدب – عساف شوفان « جزآن » – صديقى أبو حسن – غالب أفندى المغلوب – العبقرى المجنون) .

وأصدر كتاباً عن الأدب المهجرى بعد عودته الأخيرة إلى الأرجنتين ، ودعاه « أدب المغتربين » ، كما أصدر رواية بعنوان (فى مهب الريح) .

من هذه القائمة الطويلة يتضح للقارئ أن إلياس قنصل من أوفر أدباء المهجر كلهم نشاطاً ، وأكثرهم تآليف . يضاف إلى ذلك عمله فى الصحافة ، إذ أصدر مجلة « المناهل » مدة ثلاث سنوات ، ورأس تحرير « الجريدة السورية اللبنانية » سبع سنوات ، وحرر فى جريدة « السلام » الأرجنتينية مدة كذلك ، ونشر الكثير من شعره ونثره فى صحف عديدة – غير الصحف الثلاث المتقدم ذكرها – منها (السائح – والسمير – والشرق – والمواهب – والعالم العربى – والقلم الجديد – والديار – والأديب) وغيرها .

وموهبته الأدبية متنوعة المجالات : فهو ينظم الشعر ، ويكتب الأقصوصة ، ويخوض فى النقد الأدبى ، وفى المعالجات الاجتماعية والسياسية . وهو يميل فى كتاباته النثرية إلى الفكاهة والظرف – وقد يبالغ فى هذين أحياناً – وفى النقد الأدبى كثيراً ما يكون نقده لاذعاً حاداً ، أو تهكمياً ساخراً ، فما يهمه كيف يقع كلامه ، ولا ماذا يصيب من المنقود .

والذى يقرأ كتابه « أصنام الأدب » يرى كيف صب جام غضبه ونقده الجارح على (ميشال مغربى – توفيق الشماس – الشيخ سعيد اليازجى – يوسف الخورى – عفيف الأشقر – شكر الله الجر – جميل بطرس حلوه – نعمة قازان – فائز السمعانى – سليم نادر – جورج كعدى – جورج صوايا – جورج مسرة – حنا زخريا) . وبين هؤلاء عدد من شعراء المهجر البارزين – إلى جانب عدد من المغمورين .

والواقع أنه لم يكن فى كل نقده لهم موفقاً – من حيث الرأى والبرهان – ولا كان فى كل نقده منصفاً .

خذ مثلا نقده لقصيدة « شلال تيجوكا » لشكر الله الجر لترى أن النقد كان بارعاً فى اللهجة التهكمية الساخرة ، ولكنه لم يكن مصيباً ألبته :

يقول شكر الله مناجياً الشلال :

غسلتُ بمـائك عينى وعدت فأبصرت ما الناس لا تبصرُ
فبالله قل لى ، إلامَ تظـلّ كذلك تجتـازك الأعصرُ
وأنت تكرّ كرور الزمـان فلا تستقرّ ولا تفـترُ
وهذا الوجـود كما كان قبلا شعوب تجىء وأخرى تروحْ
ودنيـا تضـجّ بسكانهـا فهـذا يغنى وهـذا ينـوحْ
وذلك مستسلم للقـدرْ

فى هذه الأبيات تأملات شعرية جميلة يثيرها الشلال الهادر المتدفق باستمرار فى نفس الشاعر ، وتساؤلات حائرة تبحث نفس الشاعر عن أجوبة لها ، مما لا يستطيع البشر أن يجيبوا عنه . ولكن إلياس قنصل لا يرى ذلك بل يأخذ الألفاظ بمعانيها المادية الجامدة ؛ فيعلق على هذه الأبيات متهكماً ساخراً ، فيقول : « لم نسمع بهذه القوة التى ينعم بها شلال تيجوكا إلا الآن : يغسل عينيه بمائه فيبصر ما لا يبصره الناس . . . لا شك فى أن الحكومة لو اطلعت على هذه القصيدة لحجزت المياه الموجودة هناك إلى أن تفحصها جيداً ، ثم ترى ما تقرره . . »

فى طريقة التهكم هذه ظرف وبراعة لفظية ، ولكن أين منها غاية النقد الحقيقية ؟ وبماذا كان يستطيع أن يعلق إلياس قنصل على قول جورج صيدح فى نهر بردى :

ملأت منك فمى بعـد امتلاء يدى ولو قدرت ملأت القلب والكبدا
حتَّى أقول لدهـر سامنى ظمـأ فى غربتى : « لن ترانى ظامئاً أبدا » !

والذى ينظر إلى نهر بردى فى دمشق ، يرى القاذورات التى ينساب عليها الماء : فَقِطَعُ أحذية هنا ، وأكوام قاذورات هناك ، وما إلى ذلك . . . أيمكن أن يشرب منه إنسان وهو بهذه الحالة ؟ ! . ولكن العبارة الشعرية فى بيتى صيدح هذين

تبعث فى النفس أعمق الحب ، وأحب الذكريات ، وأجمل الاعتزاز بالوطن الذى يسقى بردى حقوله وجنائنه ، ويخصب فيه الزرع والثمر والحياة .

* * *

وليس فى وسعنا أن نستعرض فى هذا الحديث جميع مؤلفات إلياس قنصل والذى كان لدىّ منها سبعة كتب ، بينها ديوان « بسمات الفجر » و « رباعيات قنصل » – فلا بد أن نكتفى باستعراض واحد من هذه المؤلفات ، ففيه ما يغنى ويفيد . ولذلك نختار « رباعيات قنصل » وحدها فى هذا الحديث .

لقد قضى الشاعر سنوات وهو ينشر رباعياته هذه فى الصحف ، حتى إذا ما اجتمع لديه منها عدد كاف جمعها فى هذا الكتاب الصغير ، فجاءت فى ١٥٤ صفحة . وقد ذكر فى نهاية الكتاب أن هناك أربعة أجزاء أخرى من هذه الرباعيات ستصدر فيما بعد ، ولكنها لم تصدر بعد ؛ فهل ستصدر يوماً ؟ !

وتدل رباعيات قنصل على شاعرية قوية تغترف من نفس كبيرة فى عاطفتها ، وفى إحساسها القومى ، والاجتماعى والإنسانى ، وتعبر عن أخلاق متينة ، وتمرد على نزعات التفريق بين المذاهب والطبقات الاجتماعية ؛ كما أن فى شعورها الوطنى نقمة على النفوس الضعيفة المتخاذلة التى هى من أكبر أسباب ما حل بالعرب من نكبات :

حسبناهم إذا غضبوا أسـودًا ... فكانوا يوم غضبتهم ديوكا
يفاخـر بعضُهم بالمكر بعضًا ... ويأبى أن يقرَّ به شريكا
وقد سمعوا المكاره والمـآسى ... تهدّدهم ، فما بدلـوا السلوكا
فلو أن الكلام يشيـد عرشاً ... لكان العرب أغلبهم ملـوكا

وفيه كذلك نقمة على الزعامة العربية التى جرّت الذل على العرب فى فلسطين وأضاعت هيبتهم وكرامتهم خارج فلسطين :

يا راقصين على أمجـاد أمتكم ... ومنزلين عليهـا العار والمحنـا
لا تحسبوا أنهـا تنسى خيانتكم ... وإن تناست وأخفت ثأرها زمنا
خزّ الغريب الذى يغشَى مقاعدكم ... سيستحيل على أشلائكم كفنا
كلّ الذنوب لها عـذرٌ ومغفرة ... إلا الذنوب التى تستعبد الوطنا

ونقمة على العصبيات والحزبيات التى ألهت العرب عن المجد ، وفوتت عليهم فرص النصر والكرامة :

ما هذه الأحزاب تشتم بعضها فتزيد آفاق البلاد ظلاما
إن السبيل مهيأ إلا لمن يرضى بأن ينحاز أو يتعامى
أتنافُسٌ ويد الغريب تسومنا خسفاً ، وتقتل مجدنا إعداما
كالطفل تشغله الدّمى وأبوه فى طور النزاع يكابد الآلاما

وما دمنا قد بدأنا بحديث الوطنية فلنذكر ههنا أن إلياس قنصل من شعراء الوطنية الذين يفيض شعرهم بالإخلاص والحماسة ، ولا يعرفون فى وطنيتهم تفرقة بين العناصر ، وتجزئة بين الأوطان العربية ، وتباعداً بين المذاهب والإخوان . وروحه الجميلة المخلصة هذه تتجلى فى كثير من القصائد الروائع التى حملتها إلينا دواوينه السابقة ، كما تتجلى فى قسم من هذه الرباعيات الجديدة . فهى خطرات قصار تتوارد عفو الخاطر ، وتوحى بها وقائع الحياة اليومية ، واستثارات العاطفة الشاعرة ، والموحيات المختلفة . ولذلك نجد فى هذه الخطرات نصيباً للوطنية ، وللأمور الاجتماعية ، وللعاطفة الإنسانية ، وقسطاً للناحية الأخلاقية .

وبعض هذه الرباعيات قد يأتى على سبيل الحكمة أو المثل السائر ، وقد يكون للعبرة والموعظة . أما القسم الوطنى منها فهو إخلاص ونقمة على الظلم واللؤم والدجل ، ودعوة إلى القوة والاتحاد لحماية الوطن ، والتحرر من عبودية الغريب ، وحنين فياض ، ونقد إصلاحى جرىء . فمن ذلك قول الشاعر ، وقد شاهد بعض مناظر وطنه على الشاشة وهو فى ديار الهجرة :

شاهدتُه فى مسرح عرض الرُّؤى فحزنت رغم عماره وجمالهِ
وطنى الذى قَتل الغريبُ سلامَه وأحَلَّ سرقة ماله وغلالهِ
ياليته جهل « الرقّ » وظلّ فى طور « التأخر » ناعماً بضلالهِ
أو ليتَه خَرِبٌ ، قضى أبطاله يوم الوغى ذوداً عن استقلالهِ

وقد يرى البعض فى البيت الثالث من هذه الرباعية شيئاً غير مرغوب فيه ، وهو تمنى الشاعر لوطنه ألا يعرف الرقى ، بل يظل ناعماً فى تأخره وضلاله ؛ غير أن المعنى الذى كان يريده الشاعر هو خلاص وطنه من المستعمرين الذين

لم يكونوا يجدون حجة يستعبدون بها الشرق إلا الزعم بأنهم يريدون « رقيه » ، لأنه فى نظرهم « متأخر » ؛ فهو يريد لأوطانه أن تعالج أمورها وحدها وهى موفورة الكرامة والحرية .

وفى بعض الرباعيات الوطنية نرى الشاعر يستنفر أبناء قومه ، وهو يلومهم ويؤنبهم على تخاذلهم وقناعتهم بالذل فيقول :

يا من تنازلَ راضياً عن أرضه ... لِعداته ، وسلاحُه موفورُ
ماذا تهُمُّ الناسَ غضبتُك التى ... هى حطَّةٌ وسخافة وغرور ؟
لا تلتمس لضياع مجدك حجةً ... يكفيك أنك خاسرٌ مقهورُ
أغمدتَ سيفك فى الوغَى ذلاً فلا ... تتوعَّد الدنيا وأنت أسيرُ

أما حنينه فى هذه الرباعيات وتعلقه الشديد بوطنه فيعبر عنهما قوله :

تلك البلاد يد الغريب تسومها ... خسفاً تهون لديه أية نقمةِ
نُكبَت بداء الذل بعد إبائها ... أوَليس داء الذلّ أكبر نكبةِ ؟
لكننى ، قسماً بها ، لو كنت ذا ... حظ ، وخيَّرنى الزمان بعيشتى
لنفرت من أبهى القصور مهاجراً ... وحننت للكوخ الحقير ببلدتى

هذه بعض روحه فى وطنياته ، أما رباعياته التى نظمها فى مواضيع اجتماعية وأخلاقية وإنسانية فإلى القارئ منها أشياء تدل على متانة فى الخلق ، ونبل فى العاطفة ، وصواب فى النظرة الاجتماعية .

والرباعية التالية تجمع بين النظرة الاجتماعية والأخلاقية معاً ، وفيها يقول الشاعر :

تَخِذتُ من الحسَّاد فى كل موقف ... موازين فى أحكامها منتهى الرشدِ
إذا غضبوا أدركت أنى موفّق ... فتابعتُ سيرى مطمئناً إلى قصدى
وإن سكتوا راجعتُ ما قد أتيتُه ... وأجريت فى إصلاحه غاية الجهدِ
فياربّ لا تعذل شرودى عن الهدى ... إذا زال عن أكبادهم حمأ الحقدِ

وكذلك نلمس متانة الأخلاق فى تحريضه على أن نستعيض من ضعفنا قوة ، ومن اندحارنا مقدرة على الثأر :

عذرتُك أن أذريت دمعك غاضباً ... وإن تذره ضعفاً فموتك أسترُ

خسرتَ عراكاً ما انطوت صفحاته وما زال فيه للمآثر أسطرُ
فإن تتخذ مما جرى لك عبرةً ضمنت سبيلا فيه لا تتعثرُ
وربّ اندحار لا ينالك عارهُ إذا شمت من أسبابه كيف تثأرُ

إن هذه النصيحة الأخلاقية التى تتمثل فى البيت الأخير تصيب الجماعات كما تصيب الأفراد ؛ والأمة العربية التى أضاعت فلسطين وكرامتها القومية فى جولتها الأولى مع العدو الصهيونى ، ما تزال أحوج ما تكون إلى الاستفادة من هذه النصيحة الغالية . لتعرف كيف تستعيض من اندحارها الأول انتصاراً ومجداً فى المستقبل القريب .

ورباعية أخرى تعلمنا أن نكون أقوياء فى نفوسنا لأننا فى عصر لا يفهم سوى لغة القوة ، والحق وحده فيه لا يمنح أصحابه نصراً إن لم تدعمه القوة . كذلك هو منطق العصر وواقع الحياة :

إن كان ضوءُ الحقّ نورَك وحده فجليل جهدك حسرةٌ وهباءُ
كم من عباقرة خبا إصلاحهم لم يَخبُ لولا أنهم ضعفاءُ
فاترك زمانك لا تلمه فإنما أخلاقنا وخلالنا الخرقاءُ
كفُّ القويّ لصفعة وتحية أما الضعيف فكفه استعطاءُ

إن الدعوة إلى القوة لهى النغمة التى نحتاج إليها ، وإلى هدهدة نفوسنا على أنغامها المنعشة المحببة ، فلو كنا أقوياء ما رضينا لأنفسنا بأن نغرس – بأيدينا – شوكة إسرائيل فى جنوبنا تعمل فيها وخزاً ونخزاً ، وتهدد بلادنا بالفناء والضياع . وهذه الدعوة تتكرر فى رباعيات قنصل بشكل ملموس ، لا يمر دون أن يترك أثره فى نفوس القراء .

ولست أريد أن أسترسل فى الحديث على هذه الرباعيات القوية فى روحها ، والمتنوعة فى مواضيعها ، والموفقة فى صياغتها ومراميها ؛ فالذى أوردته منهم يدل على بقيتها ، وكله يستحق الإعجاب والتقدير .

٤١ – زكى قنصل

لم أكن أعرف حقيقة شاعرية زكى قنصل قبل أن ينبهنى إلى ذلك الشاعر إلياس فرحات ؛ فقد كنت أقرأ لزكى قصائد قليلة متفرقة فى بعض صحف المهجر . ولكننى لم أهتم بدراسته دراسة جدية إلا بعد أن كتب إلى فرحات غير مرة يثنى على روحه وشاعريته ، ويحثنى على أن أكتب إليه .

ولم تبدأ صلتى به إلا فى عام ١٩٥٢ . وكان أول كتاب تلقيته منه يحمل تاريخ ١٩٥٢/٨/٢ . وكنت قبل ذلك قد اطلعت له على قصيدة رقيقة فى مجلة « المواهب » التى كان يصدرها فى الأرجنتين الصديق الأديب الشاعر يوسف صارمى . وكانت تلك القصيدة مرثية حارة من الشاعر لطفلته « سعاد » التى توفيت ولما تتجاوز الشهر الثامن من عمرها . ولشدة إعجابى بالقصيدة تناولتها بدراسة خاصة أذعتها حين ذاك من محطة الإذاعة الأردنية ، وأرسلت نسخة منها إلى مجلة « المواهب » فنشرت فيها . وعلى أثر نشرها كتب إلىّ زكى رسالته الأولى ، وهذه هى رسالته :

« أخى عيسى

سلمت يداك وإن نكأت جراحى ، وبعثت لوعتى من مكانها . أنا خجل منك يا سيدى ، فقد مرّ على صدور كلمتك الطيبة فى قصيدتى أكثر من شهر ، ولكن ثق أن تقصيرى لم يكن عن إهمال ؛ لا وعينى سعاد ، ولكن لسانى ما يزال معقوداً من أثر الفاجعة ، وما برح فكرى مهيض الجناح . فهل تكفى هذه الكلمات الباهتة المتعثرة للإعراب عن شكرى الجزيل لمـا غمرتنى به من منة ، وما أسديت إلى من يد ؟

أنا أقرأك بين الحين والآخر ، وأتتبع بشغف أبحاثك فى الأدب المهجرى . وثق أنى من المعجبين بك شاعراً وناثراً على السواء . وقد سرنى عزمك على إصدار

مجلة أدبية باسم « القلم الجديد » كما أبلغنى صديق الطرفين الأستاذ الصارمى ، ولعلى أستطيع خدمتك حين تنقشع عنى هذه الغمامة السوداء .

أتمنى لك الفلاح والعافية ، وأرجو أن يغمر الله طريقك بالظل والندى . واسلم لأخيك .

زكى قنصل »

ومنذ أن قرأت تلك القصيدة الحنون ، ثم تلقيت هذه الرسالة الرقيقة ، شعرت أن فى روح زكى قنصل وشاعريته من النبل والصفاء ما يدفعنى إلى صداقته ، وإلى البحث عن قصائده ومقالاته والتهامها حيثما وجدتها .

وفى مطلع عام ١٩٥٣ جمع زكى قصائده التى نظمها فى فقيدته « سعاد » فى كراسة صغيرة أنيقة ، وأهدى إلى نسخة منها . فلمست فى هذه القصائد القليلة من الرقة والحنان ما أكد لى أن زكى قنصل شاعر حق ، سامى الغرض ، نبيل الروح ، رقيق العبارة ؛ وأن فى شعره من الموسيقى الحلوة ، والخيالات المشرقة ، ما لا يجتمع مثله إلا للأقلين من شعراء المهجر الأحياء .

وفى ما يلى المقدمة النثرية القصيرة التى قدم بها الشاعر مراثيه لطفلته الفقيدة :

« بنيتى ! قد يزدهى العش الكئيب ثانية بالزغاليل والزغاريد ، وقد يعود الربيع مرة أخرى إلى هذه الصحراء العابسة يحمل إليها النضارة والخصب ، وقد تشرق العيون الغائرة ببريق الزهو والرجاء ، وقد تستعيد الشفاه اليابسة بسمات البشاشة والرضى ، ولكن القلب الذى بعثته من مثواه يحس ويحب ويحن ، وفجرت فيه ينابيع الأمل والألم ، سيظل هيكلا يتجاوب فى جوانبه اسمك العذب صلاة ندية شذية ، ويتألق فى محرابه رسمك الوضىء ذخيرة طاهرة مقدسة .

« لقد انقضى عام كامل على ارتفاعك فى السماء ، ولكن الجرح الذى فتحته فى صدرى وصدر أمك ما يزال ينزف دماً ، وينفث ناراً . وهذه الزفرات قطرات من هذا الجرح المشترك أسفحها على ضريحك الزكى فى هذه الذكرى الداجية » .

ويلاحظ القارئ كم فى هذه العبارات القليلة من جمال الأسلوب وشاعريته ، وما فى معانيها من رقة الإحساس ونبض القلب .

ثم يمضى الشاعر فى قصائده ، وأولها بعنوان « سعاد » ، وقد قدم لها بقوله : « حمل أيار – شهر الهوى والأمل – بشرى سعاد إلى قلب الشاعر ، فوقعت عليه وقوع الندى على جفن الزهرة ، فجاشت نفسه بهذه الأهزوجة » .

والقصيدة أهزوجة جميلة – لا بمعنى أنها من بحر الهزج – فهى أغنية روح تفيض بالغبطة لشعورها بزهو الأبوة لأول مرة . وهذا بعضها :

ضحك الصّباح ، فقلتُ : لولاها لما ضَحك الصباحْ
أهلاً عروسَ الفجر ! أهلاً بالصباحة والصّلاحْ
هاض الأسى جنحى فلما جئتِ طرتُ بلا جناحْ
وتكاثرتْ فىّ الجراح ، فكنتِ بُرءاً للجـراحْ

* * *

أسعاد ! هل أحلى من اسمك بين أسماء البشر ؟
لكأنه أهـزوجة نشوَى على شَفَـة الوتـرْ
لكأنه نجـوى النسيم يهـزّ أعطاف الشجـرْ
لكأنه قُبَل النـدى تنساب ما بين الزَّهَـرْ

ولكن فرحة الشاعر لم تطل أكثر من ثمانية أشهر ، ثم ذوت الوردة ، وضاعت الأهزوجة الحلوة فى طيات الأبدية . فتحولت أغرودة الشاعر الطروبة إلى دموع محرقة يزفرها فى قصائده الأخرى : (على صريح سعاد – سرير سعاد – أرجوحة سعاد – لعبة سعاد – عيد سعاد – عروس الزهور – عيدها الأول) .

لقد استوحى زكى هذه القصائد من تلك الطفلة التى تفتحت أمام عينيه برعماً يبعث السعادة ، وينشر بهجة الربيع فى نفسه ، ولكنها ما لبثت أن انقصف غصنها ولما تعرف من قاموس الحياة أكثر من حضن « ماما وبابا » ؛ فتبعثر معها جمال الربيع وبهجته فى نفس الشاعر الحزين ، فكانت مراثيه لهذا البرعم الصريع صلوات روح عذبها الألم ، وابتهالات تنتحب بدموع الأبوة الحنون ، ونجوى تقطر التفجع واللهفة ولوعة الذكرى . وهذه المزايا ترافق القارئ من مطلع

كل من هذه المراثى حتى خاتمتها ، والحنان الهامس ، العميق التأثير ، يقطر من كل مقطع فيها .

يقول فى قصيدته : « على ضريح سعاد » معاتباً الخالق على خطفها منه :

إنى لأشعرُ أنَّ إيمـــانى برحمتكَ انطـــوى
لم يبقَ عنـــدى ما يهزّ الشوق ، أو يغرى الهـــوى
حوّلتَ عُرسى مأتمـــاً ، ومسختَ أفراحى جوى
أيلامُ شاعرك التقىّ إذا تمـــردّ أو غـــوى ؟

ولكنه بعد أن يفرج عن نفسه بهذه الثورة القصيرة يعود إلى طفلتـه المنتزعة من حشاشته فيخاطبهـــا بوجد محرق ، يصور فيه عاطفته الأبوية أعمق تصوير فيقول :

أسعادُ ! جئتُك لا بشاشةَ فى العيون ولا بريقْ
دَجَت الحياة ، وشَاهَ فى عينى محيَّاها الأنيقْ
لا الروض زاه بعد زغلولى ، ولا غصنى وريقْ
ويحى ! أأغرق فى الدموع وليس لى أمل الغريقْ !

وهنا فى البيت الأخير بشكل خاص – نجد الصورة الشعرية المؤلمة : صورة النفس التى جرحتها الصدمة ، ونزفت دماءها بقسوة طاغية ، فهو يغرق فى دموعه ؛ ولكن للغريق العادى أملا فى النجاة أما هو فلا أمل له فى النجاة من دموعه وعذاب روحه :

هذا سريرك يا سعاد ، فأين صاحبةُ السرير ؟ !
عينى عليه ، ومهجتى ترتادُ حاشيـــة الأثـــيرِ
جرّدتِهِ ، لمـــا ذهبتِ ، من النّضارة والعبيرِ

وإذا كانت هذه الأبيات تصور الحنو الأبوى وقلب الوالد المفجوع أعمق تصوير ، فإن فيها إلى جانب ذلك كثيراً مما يزيد فى قوة هذه الصور ، وشدة تأثيرها فى النفس . فإن لتجانس ألفاظها . وتركيب حروفها وقعاً خاصًّا . فـ براعة فى التعبير تتفق مع الإحساس الذى يصوره . فالسينات الثلاث . والصاد – التى تشبهها مخرجاً وصوتاً – فى البيت الأول . وهى الصوت الذى يغلب على

البيت كله ، فيها حسّ يتصاعد من أعماق نفس الشاعر ليعبر عن غصة عنيفة . ومثل هذا فى الدلالة لفظتا « مهجتى » و « ترتاد » فى مكانهما من البيت الثانى ، فهما تعبران عن معناهما ، وعن الصورة التى تؤديانها ، أفضل تعبير .

ولعل القارئ يرى من هذه القصيدة – وهى نموذج واحد من مراثى سعاد – كيف استطاع الشاعر أن يعبر عن أحاسيسه العميقة بملء الصدق والحنان والجمال الفنى . ولا حاجة بنا بعد هذا إلى عرض نماذج أخرى من تلك المراثى وهى كلها متشابهة فى التصوير لأحاسيس الأبوة الجريح لدى الشاعر . وإننا لنحمد الله أن العش الذى فارقته سعاد قد عاد فملأته الزغاليل الجدد بالمرح والبهجة والجمال .

ولم أكن أعرف لزكى قنصل مؤلفات أخرى مطبوعة ، غير أن البدوى الملثم – وقد زار زكى قنصل فى الأرجنتين – ذكر له فى كتابه « الناطقون بالضاد فى أميركة الجنوبية » بعض المطبوعات الأخرى ، وهى : (الثورة السورية « تمثيلية مطبوعة عام ١٩٣٣ » – طارق بن زياد « تمثيلية » – أشواك « رباعيات شعرية » – أوتار القلب « مجموعة شعر وطنى ووجدانى » – شظايا « ديوان شعر مطبوع عام ١٩٣٩ ») . غير أننى أستغرب جداً أن تكون له مؤلفات مطبوعة ولا يجرى ذكر شىء منها فى رسائله المتعددة إلىّ منذ عام ١٩٥٢ ، مع أننى كنت بين الأوائل جداً ممن أهدى إليهم زكى مجموعته « سعاد » فى البلاد العربية حين صدور المجموعة ، ويزيد فى استغرابى أن جورج صيدح أيضاً لم يذكر أى كتاب مطبوع ، حين تحدث عنه فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » . وصيدح يعرفه معرفة وثيقة جداً ، وقد عاش معه فى الأرجنتين ، وكان زميلا له فى الرابطة الأدبية هناك ؛ ولو عرف له كتباً مطبوعة غير « سعاد » ما أهمل ذكره فى حديثه الطويل عنه . ولعلّ الملثم رأى تلك الكتب مخطوطة لدى الشاعر ، فأتى على ذكرها ولكنه لم يقل إنها ما تزال مخطوطة .

* * *

فى عام ١٩٧٠ صدر لزكى قنصل ديوان شعر صغير فى (منشورات دار مجلة الثقافة) فى دمشق . عنوانه (نور ونار) . ويشتمل على مجموعة من قصائد

الشاعر فى موضوعات مختلفة . غير أن الديوان جاء مشوّهاً وكثير الأخطاء ، ممّا اضطرّ الشاعر إلى إعادة طبعه فى (بوانس أيرس) فى الأرجنتين عام ١٩٧٢ بشكل أفضل من طبعة دمشق وآنق . وبهذه المناسبة كتب إلىّ بتاريخ ١٩٧١/٨/٢ يقول فى الطبعة الدمشقية من ديوانه :

« ديوان (نور ونار) الذى بين يديك ألقِهِ فى النار . . . فهو ملىء بالأغلاط المطبعية ، وبعض قصائده سقط منها أبيات فازدادت تشويها . . . وأنا الآن فى سبيل إعادة طبعه هنا ، وقد زدت عليه ضعفى قصائده » .

وفعلاً صدرت الطبعة الجديدة الأرجنتينية ، وبعث إلىّ زكى بنسخ عديدة منها أوزّعها هدايا على أصدقائى .

والذى يقرأ شعر زكى قنصل يجد أنه كثير الاهتمام بالشعر الاجتماعى ، وشديد الإحساس مع الكادحين من أبناء الشعب ، وقد ذكرلى فى إحدى رسائله – وتاريخها ١٧ / ٢ / ١٩٥٣ – أن لديه مجموعة شعرية بعنوان « على قارعة الطريق » وقفها على هذه الفئة المنسية من أصحاب المهن « الوضيعة » ، وهى تضم نحو عشرين قصيدة ، نشر بعضها وطوى البعض الآخر ، كما يقول . وقد أرسل إلىّ مع كتابه قصيدة منها لأنشرها فى « القلم الجديد » .

وكان عنوان القصيدة « البنّاء » – وقد نشرت فى العدد الثانى عشر من « القلم الجديد » – وهو عدد ممتاز خصص للأدب المهجرى وحده .

ومن قصائده هذه قصيدة بعنوان « العاملة » ، نشرت فى مجلة « المراحل » البرازيلية عام ١٩٥٧ ، يقول فيها :

هَبَّتْ إلى العمـــل فى خفـــة الحجـلِ
تسعى بـــلا ملـلٍ وتعيش بالأمـــلِ
ما أضيق الدنيـــا على الوَكِلِ
وأبرّها بالعـــامل الجـــذلِ
بالـــروح بَسْمَتَهـــا تُخـــفى رزيّتَهـــا
لو ذقتَ لوعَتَهـــا أو خضتَ غمرتَهـــا

أكبرتَ عزتهـا ولم تَقُـل :
« إن الشجاعة عـدة الرجـل »

وقصيدة « بياع الجرائد » وقد نشرت فى مجلة المراحل » أيضاً عام ١٩٥٧ ، ومنهـا :

قم فالصباح أطلّ من شرفاتـهِ تماوج الأنوار فى بسماتهِ
غمز الخمائلَ فازدهت أعطافها والطيرَ فازدحمت على غمزاتهِ
يا حاملاً خبر النفوس إلى الوَرَى لو أنصفوك تسابقـوا لفُتاتهِ
وزّعتَ نفسَك بينهم متأبطـاً عبثاً نهضتَ بـه على علاتهِ
طـوراً تحومُ على الجموع وتارةً تسعى إلى الفلاّح فى وكناتهِ
فى كلّ أذن من هتافك رنـةٌ وصدًى شجىّ الوقع من مطّاتهِ
كم ذا تحدّاك الشتـاء بقـرّه وبثلجه ، فضحكتَ من حملاتهِ
شمّرت عن زند يفيض صلابةً وكشفت عن صدر زها بثباتهِ

* * *

هو همزةٌ بين القلوب ، وسُلَّم تتنقل الأخبـار فى درجاتـهِ
ماتت حزازات السياسة عنـده وتعانق الأضـداد فى واحاتهِ

وله من هذا النوع قصائد أخرى فى (الفلاح – والخباز – والشرطى – وماسح الأحذية ، وبائعة الزهر – والمعلمة – والعتال) وغيرهم ممن يخوضون شقاء الحياة ليكسبوا السعـادة والنعمة للآخرين . ومن المؤسف أن زكى لم ينشر هـذه الروائع الإنسانية فى ديوانه (نور ونار) ، وكانت أجدر بالظهور فيه من أكثر القصائد التى حشرها الشاعر بين صفحاته ، سواء فى الطبعة الدمشقية وفى الطبعة الأرجنتينية .

ولزكى فى الحنين وفى الشعر الوصفى والتأملى قصائد غنائية رقيقة . خذ مثلا قصيدته « الدوحة العارية »[١] التى يقول فيها :

أكذا ستسلبنا الشبابَ يدُ الليالى الجائره
وتبعثر الأيـام آمال الشبـاب الزاهرة

(١) وهذه أيضاً غير منشورة فى ديوان (نور ونار)

وتعيث فى أحـلامه الغـرّ الفواتن ساخره
أكذا ستحرمنا النضارة والأمانى الساحرة ؟

* * *

لى فى الحمى أمٌّ نظيرك يا ابنةَ الروض الكئيبه
سلب البعاد فراخها ، وطوى أمانيها القشيبه
وقضى على آمالهـا الذهبية الغـرّ الخصيبـه
فاستسلمت لليأس والأحزان من هول المصيبه

* * *

أماه ! صبراً فى البلاء فهكذا شاء القـدرْ
لا تيأسى أو تستكينى للـكآبة والكـدرْ
فكما يعود إلى الرياض ربيعها ، وإلى الشجرْ
سنعود نحن إليك يوماً – والزمان أبو الغِيَرَ

* * *

ولقد عاد زكى إلى دمشق عام ١٩٦٨ متلهّفاً إلى رؤية الوطن الذى عاش يحنّ إليه عمره كلّه فى ديار الهجرة ، ولكنه أُصيب بصدمة حادّة مؤلمة ، اضطرّته إلى العودة عنه من جديد خلال أسابيع قليلة ، وفى صدره ألم وفى قلبه نقمة ، بعد أن انزوى فى قريته (بيرود) – كما يقول فى رسالة منه إلىّ تاريخها ٥ / ٧ / ١٩٧١ – « لا أبارحها إلاّ لساعات أطلّ فيها على دمشق أو حمص ، ثم أعود أدراجى ، لا أزور صديقاً ولا أتصل بزميل . . . وبعد شهر خطر لى أن أذهب إلى بيروت لمهمة أدبية ، فإذا أنا أصطدم بمدير دائرة التصاريح يقول لى إن طلبى مرفوض . . . »

ويعلّق زكى على المعاملة الشاذة التى لقيها قبل الوصول إلى سوريا من بيروت ، ثم فى أثناء وجوده فى سوريا ، فيقول فى الرسالة عينها :

« لم أستطع أن أعلم بالتأكيد سبب هذه التدابير الشاذة يؤخذ بها أديب قضى فى مغتربه أربعين سنة يحنّ إلى وطنه ويتغنى بأمجاده ، ويذود عن لغته وقوميته ، ويأبى أن يتنازل عن جنسيته لقاء أىّ إغراء وتجاه أىّ وعيد . ولكننى استنتجت بالقرينة والغريزة أن الجماعة كانوا يعتبرونى من الحزب السورى القومى ، فمنعونى أولاً

من الدخول إلى سوريا ؛ وبعد وساطات ومراجعات أثرتها من بيروت دامت أكثر من أسبوع ، رفعوا عنى « الحرم » ، فدخلتُها غير آمن . ولكنّ معنوياتى كانت قد انهارت . . . » .

أما كيف استطاع أن يغادر سوريا ؟ فإليك ما يضيفه فى الرسالة :

« عدت إلى الذين توسطوا لدخولى أروى ما جدّ معى . . . فعادوا إلى السعى الحثيث . . . حتى انحلّت المشكلة ، وكنت قد أصبحت فى أزمة نفسية شديدة . فذهبت إلى بيروت ، ومن هناك هتفت لأهلى بأنى غير عائد . ثم أخذت الطائرة وعدت إلى مغتربى . وهكذا لم تطل إقامتى فى وطنى إلاّ شهراً وبعض الشهر » . . .

ويقول زكى بعد ذلك :

« ولعلّ من المضحك – وشرّ البلية ما يضحك – أن التهمة التى زرعت فى طريقى الأشواك وأثارت علىّ المشاكل ، لا أساس لها من الصحة ؛ بل العكس هو الصحيح ؛ فقد كنت وما أزال على خلاف دائم مع جماعة الحزب السورى القومى » .

وبعد عودة زكى إلى الأرجنتين ، وفى غمرة من اليأس والنقمة والقنوط والكفر ، نشرت له جريدة (السلام) الأرجنتينية فى عددها الصادر فى ٢ نيسان (أبريل) ١٩٧١ ، رسالة قرابة صفحتين من الجريدة ، عنوانها (إلى حافظ الأسد من زكى قنصل) شرح له فيها القضية برمّتها ، وبكلّ تفاصيلها . كما بعث زكى بنسخ من هذه الرسالة إلى رئاسة الجمهورية السورية ، وجريدة البعث ، ودار الإذاعة السورية .

لقد كانت تلك صدمة أليمة الوقع فى نفس شاعر حسّاس ، كان يرى الدنيا من خلال وطنه العربى السورى ، ويرى الله من خلال بَرَدى .

* * *

وشعر زكى قنصل لا تفارقه النعومة والرقة حتى فى المواضيع التى تثور فيها الأرواح ساخطة متمردة . وإليك بعض شعره فى مأساة فلسطين ومن قصيدة له بعنوان « خرافة السلام » :

يا منكراً شكواى عُذرك بيّنٌ وَقْعُ الأنين على السليم ثقيـلُ

لـــو كنتَ مثلى لم تَضقْ بكآبتى ... صدراً ، ولم يُحرَم أساك عليلُ
أتســـومنى مَرَحَ الطليق وموطنى ... بين السلاسل والقيود ذليـــلُ ؟
هيهات يحملنى جنـــاحٌ خافقٌ ... وأخـــوه فى أصفاده مشلـــول
لهفى على القدس انطوت أعلامه ... وكَبَتْ بأشبال النضال خيولُ
يمـــشى الأصيل ابن الأصيل مطاطئاً ... فيه ، ويشمخ واغل مـــرذولُ
الهـــدنـــة النكراء أصل بلائنـــا ... فى عنق عاقدها الدمُ المطلولُ
لـــيت الذين استبشروا بسرابهـــا ... زلّت بهم قدمٌ وضلّ دليلُ
لا تختلق للذئب أعذاراً فقـــد ... يُفتى بتحليل الذنوب جميلُ
الجـودُ – إلا فى الكرامة – زينةٌ ... والصفحُ – إلا فى الجهاد – نبيلُ

* * *

يا شائدين على الرذيلـــة دولةً ... للبُطل يوم ضاحكٌ ، ويزول

وبعد كل هذا الذى قدّمناه من شعر زكى قنصل – وكله جميل ، رقيق ، بارع الصياغة متينها – نود أن نذكر أن زكى قنصل أحد الشعراء المهجريين الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، فلم ينل من العلم فى المدرسة إلا حظًّا ضئيلا جداً ، ولكنه درس على نفسه كثيراً إلى أن أصبح هذا الشاعر الممتاز فى شاعريته ، والمجيد فى كل قصائده .

لقد ولد زكى فى مدينة بيرود فى سوريا عام ١٩١٩ ، وتلقى دراسته فى مدارسها ؛ فتعلم مبادئ العربية والفرنسية ، ثم هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٢٩ ، وجاهد فى الحياة كما يجاهد المهاجرون : فحمل الكشّة ، وصارع الصعاب ، وعمل فى التجارة ؛ ولكنه كان ميالا إلى الدرس والمطالعة ، فدرس العربية والإسبانية على نفسه حتى امتلك ناصيتهما ، وأصبح قادراً على الكتابة ونظم الشعر . وعمل فى الصحافة منذ أن كان فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد ساعده على النجاح – فى العمل وفى حقل الأدب – خلقٌ عال ، ولطف جمّ ، وشمائل محببة . وكلها تبدو جلية فى منظومه ومنثوره .

٤٢ – جورج كعدى

شاعر كثير الخصب ، يعيش بعيداً عن البيئات العلمية والأدبية فى مهجره البعيد « بوليفيا » . لم يتلق من الثقافة المدرسية قسطاً كافياً ، ولكنه استطاع أن يخلق نفسه ، فكان أديبًا وشاعراً عصاميًّا يتقن عدداً من اللغات الغربية إلى جانب لغته القومية .

أما سيرة حياته فقد استقيتها من رسائله الشخصية المتعددة إلىّ ، وأما روحه الأدبية فمن شعره القليل الذى وصل إلى يدى عن طريق رسائله ، أو عن طريق عدد من صحف الأدب فى المهجر وفى الشرق .

ولد جورج كعدى عام ١٩١١ فى قرية « بسكنتا » النائمة فى عش من الفتنة عند قدم صنين المتربع على عنق الغيوم . وقد دخل المدرسة الأولية فى الضيعة ولكنه لم يقم فيها أكثر من سنتين . وفى عام ١٩٢٥ « طرحته النوى مطارحها » – على حد تعبير بديع الزمان الهمذانى – فإذا هو فى البرازيل يضرب فى طلب الرزق بين « الملايين التى كتب لها أن تفتش عن إبرة السعادة فى جبال القير والأسفلت والحجر والحديد » – كما يقول ميخائيل نعيمه – .

وفى البرازيل ، وإلى جانب الكفاح فى سبيل الرزق ، أكبّ جورج على الدراسة الليليـة فتعلم العربية والفرنسية والبرتغالية . وهناك بدأ ينظم الشعر العربى . فلما اطمـأن إلى ريش جناحيه راح ينشر منظوماته فى مجلات المهجر الكبرى ، كالعصبـة ، والشرق ، والكرمة ، والأندلس الجديد . وفى جهاد الحياة استطاع الشاعر الجديد أن يجمع ثروة مالية ضخمة ولكنه لم يفرح بها طويلا ، فقد حلت به كارثة مالية ذهبت بثروته كلها كما ذهبت بمكتبة ضخمة كان قد جمعها هناك . فغادر البرازيل إلى حيث لا يزال يقيم الآن فى لاباص ، عاصمة جمهورية بوليفيا وهنـاك بدأ جهاد الحياة من جديد بعزيمة وجلد حتى انتعشت حالته المالية وعاوده الاطمئنـان النفسى ، فمضى يغذى طبيعته الشعرية بالكتابة والنشر فى مختلف

الصحف من جديد ؛ كما عكف على الدرس مرة أخرى حتى أتقن الإسبانية وأصبح ينظم الشعر فيها ، كما يقول ، وألمّ كذلك بالألمانية والإنكليزية .

وفى أثناء ذلك كانت شهرته الأدبية قد ذاعت فى الأوساط المهجرية ، فدعته الجالية العربية فى الأرجنتين فأقام فى ضيافتها أربعة أشهر يخطب فى أنديتها ومجتمعاتها ، ويلقى من شعره . ثم دعته الجالية فى الشيلى ولقى هناك مثل الحفاوة التى لقيها فى الأرجنتين .

وفى سنة ١٩٤٨ اقترن الشاعر بفتاة فلسطينية المولد ، وقد أنجبت له ولداً دعاه « فاروق » وبنتاً دعاها « ثريا » . وقد استقبل كلا منهما بقصيدة تعبر عن عاطفة رقيقة وقلب شاعر ، ثم لم تلبث ثريا أن طارت من عشها ، فرثاها أبوها بعدد من القصائد جمعها بعدئذ فى كراسة صغيرة دعاها « ثريا » ، كتب فى مقدمتها زميله فى الفجيعة الشاعر زكى قنصل .

ولم يسلم شاعرنا الطموح من غزوات المرض التى أساءت إلى صحته كثيراً . ففى شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٥٢ دخل المستشفى لإجراء عملية « الفتق » ؛ فما يكاد ينتهى منها حتى أخبره الطبيب أن لديه قرحة فى المعدة وأنه ينبغى إجراء عملية أخرى لاستئصالها منه ، كما أنذره بوجوب الامتناع عن التدخين – وهو مدمن له – وفى عام ١٩٥١ كانت قد أجريت له عمليتان فى الأذن آذتاه كثيراً وأثقلتا سمعه ؛ وعملية ثالثة فى الأنف . ولقد أشار عليه الطبيب بعد ذلك بوجوب الإخلاد إلى الراحة الكاملة مدة تقرب من السنة وإلا ازداد سوء صحته . ولكن أنى له أن يوقف أعماله التجارية كل هذه المدة وليس لديه من يستطيع القيام بها سواه ؟

وفى خلال مرضه عام ١٩٥٢ ، وعلى قرب عهده بإجراء العملية ، بلغه نعى والدته وخاله معاً فى شهر حزيران (يولية) عام ١٩٥٢ ، فأصيب بإغماءة نقل على أثرها من جديد إلى المستشفى . وفى عام ١٩٥٨ أدخل المستشفى مرة أخرى وأجريت له عمليتان جراحيتان ناجحتان . وقد بلغ مجموع ما أجرى له من جراحات حتى عام ١٩٧٤ ثمانى وعشرين جراحة .

وشاعرنا الكعدى من الشعراء القوميين الذين وقفوا أقلامهم على نصرة القضية

العربية . وله مئات القصائد الوطنية التى يتغنى فيها بأمجاد العروبة ، ويستثير همم الأمة إلى استعادة تلك الأمجاد الماضية . وفى قضية فلسطين كتب العديد جداً من القصائد ، ونشر وأذاع الكثير من الخطب والمقالات بالعربية والإسبانية . وقد أصدر ديواناً شعرياً باللغة الإسبانية فى بوليفيا وقف ريعه على لجان إغاثة اللاجئين . وله من الكتب المطبوعة بالعربية مجموعته « ثريا » وديوانه « الكعديات » فى جزأين كبيرين ، و« الديوان الجديد » . وكلها مطبوعة فى لبنان .

إن الشاعر الكعدى قوى فى روحه وطموحه ؛ وهو يكره الغموض ولذلك ينقم على الأدب الرمزى نقمة شديدة ولا يحب أن يرى شيئاً منه منشوراً فى الصحف ، ويعتقد أن العناية به تسىء إلى الصحف التى تنشره . وهو يحب شعر القوة ، ويريد أن يكون كل شاعر « نيتشه » أو« المتنبى » فى حبه للقوة والعظمة .

ونأتى الآن إلى شعره فنذكر أن مجموع ما نظمه إلى الآن لا يقل عن ألف قصيدة متنوعة المواضيع ، وكثيراً ما كان يوقع بتواقيع مستعارة مثل « الشاعر المتألم » و« شاعر صنين » ، و« البدوى التائه » . إنه يكثر من النظم إلى حدّ الإفراط ؛ والكثرة تسىء إلى الجودة ، ولهذا يقل الجيّد فى شعره . واذا كانت الروح الوطنية والقومية هى الغالبة على شعره فإن له أيضاً بعض القصائد التأملية والوصفية الجميلة . ونحن نورد فى ما يلى أبياتاً من قصيدة خماسية يقول فيها :

زرعت أغراسى وراء الغيـــومْ فى روضة الإلهام بينَ النجومْ
حتى إذا ثارتْ بنفسى الهمومْ واجتاحت القلبَ دواهى الغمومْ
جلستُ فيها حالماً أستريحْ
ورحت بالأحلام أطوى الدُّنى ملتقياً بالفكر بنت الخيـــالْ
معلِّلا نفسى بطيب المـــنى مُرَفِّهاً قلبى بسحـــر الجمالْ
مختليًا فى جوّ روحى الفسيحْ
يا نفسُ حُولى كتلةً من شعورْ وعطِّرى بالحب هـــذا الأثيرْ
واحيى مع الأحلام حتى النشورْ دنيـــاك لولا الوهم كانت سعيرْ
ومسكن القصر كسكنى الضريحْ

وهناك قصيدة بعنوان « البدر » يقول فيها :

أيهـا البـدر أنت كأس لجين ... رفعتهـا كف الإله القـدير
ملأتهـا من الشعاع خمـوراً ... أسكرتنى بوهجهـا المسحور
فرفعت الصلاة شعـراً شذيًا ... فتهادى موجات وحى ونـور
وبنات الدّجى يرنّمن حـولى ... أغنيات حملن سر الدهـور
فأفاق الفـؤاد رغم جـروح ... ألصقته بالأرض مثـل الأسير

وفيما يلى أبيات من شعره المعبر عن العزة والإباء والطموح وعلوّ الهمة – يقول فى إحدى قصائده :

أمدّى بيـانى بوحى جديدْ ... ومدّى يديك لهـذا الشريدْ
فقـد فَرَشَ الناس دَرْبى مُدًى ... وغلّوا يدىَّ بِدُهم القيـودْ
أنا بلبـلٌ هاض منـه الأسى ... جناحاً طليقاً تخطّى الحـدودْ
فإن الحيـاة بعرفى غنـاء ... غناء يشقّ طريق الخـلودْ

ويقول أيضاً فى قصيدة أخرى :

طاردينى فى غـربتى يارزايا ... واهجمى هجمةً لهـدِّ قوايا
ففـؤادى لو تعلمين حـديد ... صهرت حسَّه الرهيفَ البـلايا
هو أقـوى من الهمـوم وأسمى ... من حقود تجتاح هذى البرايا
فأنا الشاعر الذى علّم الطير ... غنـاء فجَّرته من حشايـا
جبهتى تنطحُ السماء إبـاء ... همَّتى تأنف الخنى والدنايا

وفى ما يلى بعض شعره القومى ؛ ومنه قوله :

لا تقولوا هزيمة القدس عارٌ ... نَبْوةُ السيف هـذه لو تعونا
جيَّش الغرب ضدّنا كلَّ وغْد ... فغـدت تقحم الذئاب العرينا
أمة العرب لن تموت وفيهـا ... كالحسينى[1] وصحبه المصطفينا
أمة تبتغى الحيـاة ستحيـا ... رغم آناف معشر خائنينـا

ومنه فى الحنين :

يـأيها الطائر فوق الغمـامْ ... هلا ذكرت الأهل فى بلدتكْ ؟

---

(١) القائد الشهيد عبد القادر الحسينى .

في الواد ، في صنين ملهى الصبا | أيام تشدو الشعر في روضتكْ
الأم والأحبــاب فيــه ثَوَوْا | وأنت تجنى الهم في غــربتكْ
تشكو ومــا من سامع شاعــراً | هيهات تنفى الهم في شكوتكْ
فالجأ إلى الغابات عنـــد المسا | وأْنَس إلى الأزهار في وحــدتكْ
واذرف دمــوع اليأس في غربة | كل معاني الشوق في دمعتكْ
واحمُد لأمــر الله مستسلمــاً | حتى يمنّ الله في عــودتكْ

إن شاعرنا الكعدى من أكثر شعراء المهجر إنتاجاً ، وإذا كان في الكثير من شعره ضعف في الحبكة الشعرية فإن في روحه كثيراً من الجمال والقوة والحيوية ، وفي وطنيته المخلصة ما يدعو إلى أن نجله ونحبه ونعجب بإخلاصه وصدقه .

ولقد عاد الكعدى إلى لبنان مرّتين : الأولى عام ١٩٦٩ ، وفيها اغتنم الفرصة لطبع ديوانه (الكعديات ؛ والثانية في أواخر آذار / مارس ١٩٧٥ ، للاستشفاء وإجراء عملية جديدة .

صحفيون ادباء في المهجر

تمهيــد :

هناك طائفة من المهجريين امتهنوا الصحافة ، ومنها الصحافة الأدبية ، وكان لهم فيها شأن نابه وإنتاج قيّم ؛ وهم أحرياء بأن نفرد لهم مكاناً خاصاً من هذا الكتاب ، لئلاّ نغمطهم حقّهم وهم جديرون بالتنويه . ولم نفعل مثل ذلك من قبل لأدباء الصحفيين في المهجر الشمالي ، لأن أشهرهم هناك أديبان كبيران من أعضاء (الرابطة القلمية) هما : إيليا أبو ماضي ، صاحب جريدة (السمير) ، وعبد المسيح حداد ، صاحب جريدة (السائح) . وقد خصصنا كلاًّ منهم بدراسة خاصة في هذا القسم الثاني من الكتاب ، لأن أدبهم كان أبرز من عملهم الصحفي ، وإنما كان عملهم الصحفي مكملاً لعملهم الأدبي .

على أننا نرى من الوفاء وتوخّى الحقيقة أن نشير إلى ثلاثة آخرين من الصحفيين المهجريين الشماليين كان لهم فى الصحافة آثار بارزة ، كما كان لهم أثر كبير فى تغذية الحركة الأدبية فى المهجر الشمالى ، وهم :

١ ، ٢ – نعّوم مكرزل وشقيقه سلّوم

فى ٢٤ تشرين الأول «أكتوبر» ١٩٧١ طلعت علينا جريدة (النهار) البيروتية فى ملحقها الأسبوعى ، حاملة صورة الصفحة الأولى ، وصورة الصفحة الرابعة من عدد جريدة (الهدى) النيويوركية العربية ، الصادر يوم الجمعة ١٧ أيلول «سبتمبر» ١٩٧١، وهو العدد ٥١ من السنة الرابعة والسبعين لجريدة (الهدى) وفى تينك الصفحتين (بيان وإيضاح من صاحبة « الهدى » وإدارتها) هذا نصّه :

(الصوت المطبوع الذى كافح من أجل لبنان واستقلاله وكرامته ليكون أمة حرة : الصوت المطبوع الذى كان منارة للبنانيين المهاجرين فى هذه الأمة العظمى ؛ هذا الصوت سيسكت بعد صدور هذا العدد . بعد هذا العدد تتوقف « الهدى » عن الصدور ، كما تتوقف عن الصدور كذلك رفيقتها الصادرة بالإنكليزية : صحيفة « الليبانيز أمير كان جورنال ») .

هذا فى الصفحة الأولى ؛ وفى الصفحة الرابعة ، وتحت عنوان (صدى الخطرات) كلمة أخرى كانت كلمة (وداع ، وبيان ، وإيضاح) أيضاً ، تقول :

« الجو فى دار « الهدى » و« الليبانيز أميركان جورنال » وقت إعداد هذه الكلمة ، جوّ مأتم ومناحة : الوجوه واجمة ، الأعصاب متوترة ، الأيدى ترتعش ، والدموع تنهال دون محاولة تستير من العيون . عروسة الصحافة العربية الحسناء وشيختها الجليلة تتوارى عن العيان . . . ».

وفى ملحق النهار ، بين صورة الصفحة الأولى والصفحة الرابعة من « الهدى » و« الليبانيز أميركان جورنال » مقال طويل بقلم الكاتب اللبنانى المعروف فاضل

سعيد عقل ، عنوانه « نعوم مكرزل النمر ، و« الهدى » عرينه الذى يزأر » ، يبكى فيه جريدة (الهدى) ويؤبّنها ، ويرثى فيه عهدها الطويل فى خدمة العربية ولبنان فى ديار المهجر . وفى ذلك المقال الطويل يقول فاضل :

« بكيت عندما تلقيتُ نبأ توقف « الهدى » . . . الهدى التى تموت ماديًّا ، بعد أن صدرت فى اللغة العربية ، فى قلب الولايات المتحدة ، منذ عام ١٨٩٨ مدافعة عن لبنان ، كالقبطان الذى يرفع الراية وينتحر طوعاً ومبتسماً مع سفينته الغارقة » .

ويمضى فاضل سعيد عقل فيدوّن بتفاصيل مشبعة وافية تاريخ حياة جريدة (الهدى) وصاحبها نعوم مكرزل ، وشقيقه سلّوم مكرزل الذى تولّى قيادة دفّتها بعد وفاة نعّوم ، ثم مارى مكرزل ، ابنة سلّوم ، التى تولّت أمرها بعد وفاة والدها ، برغم جهلها باللغة العربية ، وقادتها فى طريق الحياة عشرين سنة أخرى ، حتى ودّعتها مع العدد (٥١) من السنة الـ (٧٤) من حياة (الهدى) .

* * *

هكذا كان أمر الهدى حتى تاريخ ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ .

ويجىء شهر حزيران (يونية) ١٩٧٣ ، وبعد أقلّ من سنتين ، وتطلع علينا مجلة (السياحة) البيروتية ، وفى إحدى صفحاتها عناوين بالحروف الكبيرة تقول : (« الهدى » النيويوركية . . . هل تصبح يوماً ركيزة الإعلام اللبنانى والعربى فى التصدى للصهيونية ؟)

وتحت العناوين مقال جاء فيه بعد العناوين مباشرة ، ما يلى :

« احتفلت « الهدى » النيويوركية بذكرى مرور ٧٥ عاماً على إنشائها ، وهى لاتزال تصدر بالعربية والإنكليزية منذ ذلك الوقت ، برغم الصعوبات المادية والمعنوية التى واجهتها »

ويضيف المقال ما يلى :

« وقد أقام أصحاب « الهدى » الحاليون ، وهم من آل أسطفان ، إحدى العائلات اللبنانية العريقة ، حفلة كبيرة بهذه المناسبة . . . إلخ » .

إذًا لم تمت « الهدى » مع العدد (٥١) من السنة الـ (٧٤) ، بل انتقلت من آل مكرزل إلى آل أسطفان ، وازدادت قـوة ونشـاطاً ، حتى لقد أقيمت

حفلتها المشار إليها « فى أكبر قاعة من قاعات الاجتماعات فى فندق « والدورف أستوريا » الشهيرة » . . . وتلقّى أصحابها برقية من الرئيس نيكسون ، فى تلك الحفلة عينها ، يشدّد فيها الرئيس « نيكسون » على أهمية الكلمة المكتوبة وحرية الرأى » — كما يقول مقال مجلة (السياحة) .

أما مؤسس « الهدى » ، نعوم مكرزل ، فقد رأيناه فى حديثنا على أمين الريحانى ، معلّماً فى قرية الفريكة ، يتعلّم أمين الريحانى فى مدرسته . ثم لم نلبث أن رأيناه يغادر الفريكة مهاجراً ، وفى صحبته تلميذه أمين الريحانى . وفى أميركا انصرف نعوم إلى الصحافة ، وهى مغامرة كبيرة يقوم بها مهاجر جاء يبحث عن الرزق . ولكنّ المغامرة كانت ناجحة إلى أبعد حدود النجاح .

وفى عام ١٨٩٨ أنشأ نعوم جريدة (الهدى) وصدر عددها الأول فى ٢٢ شباط (فبراير) من ذلك العام ؛ وكانت فى البداية مجلة شهرية ، وقد صدرت فى مدينة فيلادلفيا . ثم لم يلبث نعوم أن انتقل بها إلى نيويورك ، وحولها إلى جريدة نصف أسبوعية ، ثم إلى جريدة يومية . وكانت أول جريدة عربية يومية صدرت فى أميركا . وقد واكبت (الهدى) تباشير عهد الأدب المهجرى ؛ ورعت أقلام الأدباء الذين خلقوا تلك النهضة الأدبية فى الشمال الأميركى ، وظلّت ترعى الأقلام العربية دون انقطاع .

يقول فاضل سعيد عقل فى مقاله فى (النهار) :

« نعوم وسلوم مكرزل من عائلة لبنانية كريمة المحتد ، طيبة الأرومة ، لها فى الحقل الوطنى مواقف وخدمات تذكرها دائماً ؛ فمنها الصحافى ، والتاجر ، والوجيه ، ورجل الأعمال ، وسواهم ؛ وكلّهم من رجال الفكر والأريحية . . . نعوم مكرزل فرع باسق من تلك الدوحة العريقة :

أسس « الهدى » ثلاث مرات ؛ الأولى فى فيلادلفيا ، شهرية ؛ والثانية فى نيويورك ، يومية ؛ والثالثة فى نيويورك ، أسبوعية ، فى ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١١ . ثم أسس جمعية « النهضة اللبنانية » . . . كان كاتباً جدلياً هجومياً ، صلب العود ، قوى الحجة . . . جاهد فى « الهدى » و « النهضة » جهاد الأبطال ، فى الولايات المتحدة وأوربا من أجل القضية اللبنانية » .

وأما عن وفاته فيذكر فاضل سعيد عقل أنه قد توفى وهو فى باريس ، التى ذهب إليها مطالباً بإسناد رئاسة الجمهورية اللبنانية إلى أميل إدّه . وكانت وفاته فى آذار (مارس) ١٩٣٢ ؛ « ونقل جثمان نعوم مكرزل إلى نيويورك ؛ ثم عاد فنقل إلى لبنان فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٤ ، يرافقه شقيقه سلوم مكرزل ، حيث دفن فى مسقط رأسه ، الفريكة » .

* * *

بعد وفاة نعوم مكرزل تولى شقيقه سلوم جريدة « الهدى » وجمعية « النهضة اللبنانية » . وكان كاتباً قديراً وخطيباً لامعاً . وهو أول من أدخل (اللينوتايب) فى الطباعة العربية .

يقول فاضل سعيد عقل إنه قد أسس أيضاً : (صحيفة « بريد أميركا » سنة ١٩٠٧ ، وصحيفة « العالم الجديد » سنة ١٩١٠ ، و « المجلة التجارية » سنة ١٩١٨ ، و « العالم السورى » باللغة الإنكليزية ، سنة ١٩٢٧، وأنه قد اشتهر فى « الهدى » بمقالاته الافتتاحية تحت عنوان (الخطرات) ، بينما كان عنوان مقالات نعوم (الخواطر) .

وتوفى سلوم مكرزل عام ١٩٥١ ، فتولّت ابنته مارى زمام « الهدى » ، وأنشأت معها صحيفة أسبوعية باللغة الإنكليزية دعتهـا (ليبانيز أميركان جورنال) وسارت بالسفينة عشرين سنة ، حتى سلّمتها فى النهاية إلى أسطفان ، كما رأينا سابقاً .

٣ – راجى الظاهر

صاحب جريدة (البيان) ؛ وكان قبل شراء جريدة (البيان) يعمل محرراً فى جريدة (السائح) ، مع صاحبها عبد المسيح حداد ؛ ثم عمل مدة مع إيليا أبى ماضى فى جريدة (السمير) . وبعد ذلك ابتاع جريدة (البيان) ، فى واشنطن ، واستقلّ بإصدارها . ثم نقل إدارتها من واشنطن إلى نيويورك عام ١٩٥٣

وراجى الظاهر من ذوى الأقلام القديرة ، والغيرة المتقدة على قضايا الأمة العربية . وله فى كلّ عدد من أعداد جريدته الأسبوعية مقالات ومعالجات ومذكرات تدلّ على مقدرته الأدبية ، وامتلاكه ناصية البيان السليم .

فى عام ١٩٥٧ ابتاع راجى الظاهر امتياز جريدة (السائح) من صاحبها عبد المسيح حداد ، بعد أن شاخ عبد المسيح ، وتوفى أخوه سدره، ولم يعد يستطيع وحده النهوض بأعباء العمل الصحفى فى جريدته التى كانت تصدر أسبوعية . فتوقفت (السائح) ، وأصبحت جزءًا من (البيان) . وانضمّ عبد المسيح كذلك إلى أسرة (البيان) ، فكان له فى كل عدد من أعدادها مقال أو أكثر ، حتى وافته المنية عام ١٩٦٣ .

* * *

وفى المهجر الجنوبى نجد طائفة أخرى من الصحفيين الأدباء ، انقطعوا إلى العمل الصحفى ، وجعلوا من صحفهم منابر للأقلام الموهوبة ، وللكلمة المناضلة . ومن هؤلاء :

٤ – موسى كريم

فى شهر كانون الثانى (يناير) عام ١٩٧٢ تألفت فى البرازيل لجنة لتكريم موسى كريّم ، صاحب مجلة (الشرق) التى كانت تصدر فى البرازيل باللغتين : العربية والبرتغالية . ووجهت اللجنة دعوة بتاريخ ٧ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٢ إلى أدباء المهجر والبلاد العربية للمشاركة فى تلك الحفلة ، التى أقيمت بعدئذٍ فى مساء يوم الخميس السادس عشر من آذار (مارس) من ذلك العام ، فى بهو النادى الحمصى فى سان باولو . وكانت الدعوة تحمل توقيع (وفاء نسيم نصر) وتوقيع (شاكر الدبس) .

واشترك العديدون من أدباء المهجر والعالم العربى فى تكريم صاحب الشرق ، وابن بيرود (سوريا) البارّ ، والأديب الصحفى المهجرى اللامع موسى كريّم .

وفى شهر تموز (يوليو) عام ١٩٧٤ ، أى بعد سنتين وبضعة أشهر فقط من حفلة التكريم ، صدرت مجلة (الشرق) وعلى صفحتها الأولى الداخلية صورة موسى كريّم فى أحد مواقفه الخطابية ، وإلى جانبه عبارة (مات موسى كريّم ، صاحب هذه المجلة) ، وتحت الصورة اسم المجلة (مجلة الشرق) بحروف سوداء ، كبيرة ؛ وتحته النعى التالى :

(نقوم والألم يحزّ قلوبنا بإعلان خبر وفاة صاحب هذه المجلة ، المرحوم الصحفى موسى كريّم ، وذلك فى الثانى عشر من حزيران المنصرم (يونية) . والجزء القادم سيخصّص كلّه لذكراه) .

إذاً ، لقد انطفأ النور فى عينى موسى كريّم ، ابن يبرود السورية ، المولود ، لا فى الوطن ، بل فى البرازيل ، والمتوفى كذلك فى البرازيل ، والمجاهد فى حقل الصحافة العربية والحرف العربى مدة ثمان وخمسين سنة ، منها سبع وأربعون سنة فى مجلة (الشرق) ، وهى كبرى المجلات العربية وأشهرها فى المهجر الجنوبى ؛ وكانت منذ إنشائها لوناً جديداً فى الصحافة المصوّرة ، ذات الأهداف القومية ، والاجتماعية ، والأدبية ؛ وظلّت منذ البداية تصدر باللغتين : العربية والبرتغالية ، وتعنى بأخبار المجتمع العربى – البرازيلى ، وحفلاته ، وأعياده ، وأعراسه ، وضيوفه ، واحتفالاته الدينية ، وندواته الفكرية .

أما سيرته فقد لخّصتها لجنة تكريمه عام ١٩٧٢ فى النبذة التى وزّعتها مع الدعوات إلى المشاركة فى تكريمه . ونحن نوجزها فى ما يلى :

ولد فى البرازيل ، فى مدينة سان سيمون فى ولاية سان باولو . وأخذه أبواه صغيراً إلى الوطن ، حيث أتقن العربية والفرنسية . ثم عاد إلى البرازيل . وهناك أنشأ أولاً مدرسة خاصة ؛ ثم تولّى إدارة المدرسة الخيرية المارونية ، ومعهد التجهيز الفرنسى .

ثم هجر التدريس إلى الصحافة والعمل الفكرى ، وكان قد بدأ نشاطه الصحفى فى الخامسة عشرة من عمره فى مجلّة مدرسية أنشأها عام ١٩١٣ ، وعاشت بضع سنين .

وفى سنة ١٩٢٧ أنشأ مجلته (الشرق) ، وجعل منها ميداناً لأقلام الأدباء

والشعراء ؛ وكانت سبّاقة إلى احتضان النهضة الأدبية فى المهجر الجنوبى . وهى مجلة كبيرة ، أنيقة الإخراج ، صقيلة الورق ، جميلة الصور والطباعة .

وقام موسى كريم برحلات عديدة إلى بلاد الشرق العربى ، درس فيها أوضاعها ، ونشر عنها وثائق تاريخية بالعربية والبرتغالية . وقد نال من عدد من الدول العربية أوسمة رفيعة تقديراً لجهوده وجهاده فى سبيل القضايا العربية ؛ كما نال أوسمة أخرى رفيعة من عدد من المؤسسات والحكومات ؛ ومنها دولة الفاتيكان ، والحكومة اللبنانية ، والحكومة السورية ، والحكومة المصرية ، والحكومة البرازيلية التى منحته عدداً من الأوسمة فى أزمنة مختلفة .

أما مؤلفاته وأعماله الأدبية فمنها باللغة العربية : (نابوليون بونابرت ؛ تأثيرات سياحية ؛ عشيقات الإمبراطور ؛ حقائق وعبر ؛ النزلاء الشرقيون فى البرازيل) .

ومنها بالبرتغالية : (قصائد جبران ؛ فلسفة جبران ؛ راجى الراعى ؛ تاريخ لبنان ؛ مسيحيون ومسلمون ؛ شرائع البادية ؛ تاريخ لبنان ؛ خلفاء بغداد ؛ ذكرى الأمير أمين أرسلان ؛ حدث فى دمشق ؛ شعراء وخلفاء ؛ سوريا ولبنان وفلسطين ؛ المملكة العربية السعودية).

وترجم إلى البرتغالية : (سير الخلفاء الراشدين ؛ أشياء من نتاج المتنبى ، والمعرّى ، وأبى نواس ، وعمر بن أبى ربيعة ؛ مقدمة ابن خلدون ؛ رحلة ابن بطوطة ؛ دراسة دانتى ورسالة الغفران ؛ ملحمة « عبقر » لشفيق معلوف) .

ولقد كانت مجلّته حريصة على أن تقدّم كلّ عون وتشجيع للأدب المهجرى ، فكان موسى كريّم يُصدر فى منشوراتها بعض الكتب والدواوين الشعرية . وأذكر من منشوراتها مجموعة (أحلام الراعى) الشعرية ، لإلياس فرحات . وقد صدر عام ١٩٥٢ ، ووزّع هدية على قراء المجلّة ، وقدّم له الناشر موسى كريّم .

لقد كان موسى كريّم ، كما قال عبد الله يوركى حلاّق ، صاحب مجلة (الضاد) الحلبية فى نعيّه : « مجموعة طاقات عجيبة ، وقوى مبدعة خلاّقة » .[١] وكانت كلمته ، كما قال فيها جورج صيدح فى كتابه (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية) : « كلمة العروبة تتردّد فى جميع كتبه ، عربية كانت أم برتغالية » .

---

(١) مجلة (الضاد) العدد ٧ و ٨ – ١٩٧٤

٥ – السيدة مريانا دعبول فاخورى

ظهرت السيدة مريانا دعبول فاخورى بين اللامعين من الصحفيين المهجريين فى المهجر الجنوبى عن طريق مجلّتها (المراحل) التى أنشأتها سنة ١٩٥٥ على غرار مجلة (الشرق) ، لموسى كريّم ، وبمثل اتجاهاتها الاجتماعية المصورة ، وورقها ؛ وباللغتين العربية والبرتغالية اللتين تصدر بهما (الشرق) . وقبل مجلة (المراحل) لم يصل اسم مريانا إلى الشرق ، ولعلّه كان مغموراً كذلك فى المهجر .

لقد سبق أن أشرت إليها فى فصل (العنصر النسائى وإسهامه فى الأدب المهجرى) من هذا الكتاب ؛ ولكننى لم أفعل هناك أكثر من أننى جئت بنموذج من أدبها . ولكننى ههنا أقدّم شيئاً من سيرة حياتها ، كما تلقيتُ ذلك منها شخصياً ، مع رسالة تحمل تاريخ ١٢ / ٧ / ١٩٧٣ ، وكانت قد عادت حديثاً إلى البرازيل من جولة فى البلدان العربية ، زارت فيها الأردن ، والتقت بالعديد من أدبائه ورجال السياسة فيه .

ولدت مريانا عام ١٩٠١ فى (كبّا) ، من قضاء البترون ، فى لبنان . ودرست فى مدرسة الضيعة ، ثم فى المدرسة اليسوعية فى البترون ، وفى مدرسة الأميركان فى طرابلس . وهى تجيد البرتغالية والإسبانية والإنكليزية .

وقد هاجرت عام ١٩٢٤ إلى كوبا . ثم عادت إلى لبنان عام ١٩٢٩ ، وعملت مدرّسة فى مدرسة قريتها . وبعد سنة واحدة هاجرت من جديد إلى الأرجنتين . وراحت تعمل مدرّسة فى المدرسة السورية اللبنانية ، وفى بعض البيوت . وهناك شرعت تنشر بعض كتاباتها فى مجلة (الإصلاح) التى كان يصدرها فى الأرجنتين الطبيب الشاعر العربى جورج صوايا .

فى سنة ١٩٣٨ اشتركت مع زوجها إلياس فاخورى فى تمثيل رواية (سور يا الثائرة) للشاعر المهجرى جورج عساف .

وانتقلت مع أسرتها إلى البرازيل عام ١٩٤٠ ، وكان زوجها قد سبقها إلى هناك . وأقامت الأسرة فى سان باولو .

فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٥ صدر العدد الأول من مجلتها (المراحل) . وهى الآن المجلة العربية المهجرية الوحيدة التى تصدرها امرأة . وعن طريق (المراحل) انتشر اسم السيدة مريانا دعبول .

كانت ظهور (المراحل) على أثر غياب مجلة (العصبة) التى كانت تصدرها العصبة الأندلسية فى البرازيل . فانتقل رئيس تحرير (العصبة) الأديب المهجرى المعروف حبيب مسعود للعمل رئيس تحرير للمراحل . وانتقلت أقلام الباقين من أدباء العصبة الأندلسية للكتابة فى المراحل ، إلى جانب مجلة الشرق . وهكذا استطاعت مريانا أن تجمع حولها طائفة من ذوى الأقلام المعروفة فى المهجر .

ولقد راحت مريانا تحاول المستحيل لكى تجمع بين (المراحل) و (الشرق) فى مجلة واحدة ، أو فى جهد مشترك بينها وبين موسى كريّم ؛ ولكنّ موسى رفض كلّ محاولاتها ؛ ممّا أدّى إلى قيام منافسة حامية بين المجلّتين ، وقد ظهر أثر ذلك فى المقال الذى رثت فيه مريانا دعبول صاحب الشرق بعد وفاته ، فى العدد (٢١٥) من مجلة المراحل ، الصادر فى شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٧٤ ، تحت عنوان (مات موسى كريم) ، إذ قالت كاشفة عمّا كان فى نفسها من ضغن عليه فى حياته :

« . . . وكم تمنيت لو أنه كان بالإمكان الوصول إلى تفاهم بيننا ، يوحّد قوّتنا الصحافية فى نظر المحيط البرازيلى ، وفى نظر أبناء قومنا ، فنتقاسم المسؤولية دون أن يكون بيننا من أسباب التفرقة التى تربى الحزازات النفسية » .

ثم تضيف قائلة :

« لا أريد أن أنتقد أخلاق الرجل الكبير من وراء هذا التلميح ؛ فللرجل نزعته الخاصة ، وخطّته التى رسمها لنفسه ولم يشأ أن يتساهل بها ، ولو فعل لأضاف إلى مجده مجداً كبيراً » .

والحقيقة أن موسى كريّم ما كان ليضيف إلى مجده شيئاً لو أنه تعاون مع السيدة مريانا ، ولكنه كان سيضيف أمجاداً عريضة إليها هى ، لا إليه ؛ فمجلّتها هى تقليد لمجلّته ؛ وهو ذو مجد أدبى عريض ، ليس لها شىء منه . ومجلّته وجدت قبل مجلّتها بأكثر من ربع قرن ؛ ولم يكن فى حاجة إلى معونة من أحد ؛ ولكنّ مريانا كانت فى حاجة إلى اسمه وشهرته ومجده ، لتدعم بذلك كلّه مجلّتها .

هذه حقيقة لا بدّ من الاعتراف بها ، بعد أن كشفتها السيدة مريانا نفسها فى رثائها لخصمها صاحب (الشرق) .

على أن هناك حقيقة أخرى تستحق أيضاً أن تُذكر ، وفيها فضل للسيدة مريانا : ذلك أنها هى التى كانت وراء إنشاء (جامعة القلم) فى البرازيل عام ١٩٦٤ ، لتحلّ محل (العصبة الأندلسية) التى ماتت فى منتصف الخمسينات . ولا تزال مريانا ترعى هذه الجامعة الأدبية ، وتفتح صفحات مجلتها (المراحل) لأقلام أصحابها ولأخبارها .

٦ — يوسف صارمى

أما يوسف صارمى فهو أديب وشاعر ، ولد فى قرية « كفر جوايا — اللاذقية » سنة ١٨٩٧ ، وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٣٠ . وقد أصدر مجلته « المواهب » سنة ١٩٤٥ فى مدينة توكومان أولا ، ثم انتقل بها إلى بوينس أيرس عام ١٩٤٨ وظلّت تصدر شهرية حتى عام ١٩٦٥ ، حين غادر الصارمى الأرجنتين عائداً إلى سوريا .

ولعل من أهم ما يجدر التنويه به ههنا أن يوسف صارمى لم يقطع صلة أسرته وأبنائه المولودين فى المهجر بلغتهم العربية ، بل جعل من نفسه معلماً لهم ، حتى جعلهم يتقنون لغة قومهم كما لو كانوا متخرجين فى مدارس الوطن العربى . وجعل من « المواهب » منبراً للأقلام العربية القديرة ، ومحامياً عن قضايا الحرية فى البلاد العربية . وهو جدير بالتنويه لأدبه وفضله ، وصدق وطنيته .

وفى ما يلى أبيات من شعر الصارمى ، وقد جعل عنوانها « حنين مهاجر » :

نشقتُ أريجاً هبّ من جانب الحمى ... فقلت ، وقلبى للحمى شدّ ما يصبو :
سلامٌ عليهـــا نفحة عربيّـة ... إذا ما نشقنا عطرها انتعش القلبُ
تُذَكرُ أوطاناً ، وتحيى دوارســاً ... من الأمل الذاوى ، فيستروح الصبُّ
وهــل لغريب غير ذكرى بلاده ... ملاذٌ إذا ما طال أو قُطع الدربُ

ومنه أيضاً قصيدة قالها فى حفلة استقبال الشاعر الوزير عمر أبى ريشة فى الأرجنتين عام ١٩٥٣ ؛ وقد تطرق فيها إلى البلاد العربية وكارثة فلسطين ، فقال يخاطب أبا ريشه :

أىْ فتى العرب ، يا رسول بلادى ... وبلادى هى المنى والسُّولُ
أيَؤولُ المجدُ المضيَّعُ فى القد ... س ، أم المجد غاله الدهرَ غولُ ؟
أتضم البلادَ رايتُها الكبر ... ى وشيكاً أم ذاك أمرٌ يطولُ ؟
أتظل اليهود عبئاً ثقيلا ... أم لها يومُها الأحمُّ الوبيلُ ؟

ثم يتساءل فيها كيف ارتضى حكام البلاد العربية حمل العار ، بسكوتهم عن استباحة اليهود لفلسطين ، فيقول :

كيف قرّت على الهوان ، وما أبـ ... ناء قحطان للهوان سليلُ
واطمأنت إلى المناصب ، والعزّ ... طعينٌ بصدره وقتيلُ ؟
ومئات الألوف من أسَر الشعـ ... ب جياع ، مشردون ، فلولُ ؟ !

وقد عاد الصارمى إلى دمشق عام ١٩٦٥ ، ولا يزال يقيم فيها إلى الآن .

٧ – عبد اللطيف الخشن

وأما عبد اللطيف الخشن ، صاحب « العلم العربى » فلا يقل عن يوسف صارمى حفاظاً وغيرة على العروبة وحقها فى الحرية والكرامة . وقد جعل من جريدته مسرحاً للأقلام الحرة ، تصول فيها وتجول دفاعاً عن قضايا الأمة العربية . وحظ السياسة من جريدته أوفر كثيراً من حظ الأدب ، ولكنها لا تخلو أحياناً من الشعر والأبحاث الأدبية .

والخشن شاعر وناثر ، جزل العبارة ، فخم الصياغة . وله شعر كثير منشور فى جريدته وغيرها . ومن شعره قوله فى وصف البخيل :

يسبِّح للريال إذا رآه ... ويسجد فى الصباحَ وفى المساء
يبيع لأجله عيسى وموسى ... وأحمد ، بل جميع الأنبياء

إذا طالبتَـــه يومـــاً بفلس لمنكوب ، أصيب بألف داءِ
وإن وافيتـــه ظمآن يومـــاً لتشرب ، لم يُغثك بكأس ماءِ

وله قصائد عديدة فى كارثة فلسطين ، وفى اللاجئين الفلسطينيين ، تفيض كلها بالألم والنقمة والثورة العصوف .

وقد ولد عبد اللطيف فى قرية سحمر فى البقاع « لبنان » ، وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٢٤ . وفى عام ١٩٣٤ أصدر جريدته « العلم العربى » .

وفى عام ١٩٥٨ غادر الأرجنتين فى جولة استطلاعية فى الأقطار العربية ، فزار أكثرها رغبة فى الوقوف على أحوالها ، والتعرف إلى أهلها وقادتها ، ودراسة أوضاعها عن كثب . وقد استغرقت جولته هذه شهوراً ، فزار فيها مصر ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، والسعودية ، وغيرها .

* * *

كلمة أخيرة

عرف القارئ من هذه الفصول أسماء العديد من الصحف والمجلات العربية التى ظهرت فى المهجرين ، الشمالى والجنوبى ؛ وكان منهـــا فى الشمال : الهدى : والسمير ، والسائح ، والبيان ، والفنون ؛ وفى الجنوب : العصبة ، والشرق ، والمراحل ، والمواهب ، والقلم العربى ، والكرمة ، والأندلس الجديدة . وعرف أسماء أصحاب هذه الجرائد والمجلات ، وبينهم عدد من أعظم شعراء المهجر .

وطبيعى أن هذه لم تكن كلّ صحف المهجر ، فقد ظهرت هنـــاك صحف أخرى عديدة ، بعضها اختفى منذ زمان ، وبعضها ما يزال يعيش إلى اليوم فى مختلف ديار الهجرة . ولهذه الصحف كلها فضل عظيم على بقاء الكلمة العربية حية إلى اليوم فى تلك الديار البعيدة ، كما كان لها كلّ الفضل فى نهضة الأدب المهجرى فى إبّان زهوته وإشراقه . ولولا تلك الصحف ما عرفنا الأدب

المهجرى ، ولا كان له هذه المكانة التى احتلّها من تاريخ أدبنا العربى المعاصر .

ومن المؤلم حقًّا أن هذه الصحف تتوارى تباعاً ، وتتضاءل أعداد القراء العرب فى الأميركتين ، لأن أبناء المهاجرين الأوائل قد ابتعدوا كثيراً عن لغة الآباء ، وأصبحوا يقرءون ويكتبون بلغات البلدان التى ولدوا ونشـأوا فيها . وهذا طبيعى جدًّا ، ولكنه كذلك يبعث على أشدّ الأسف .

فى العدد (١٠٣٧) من جريدة (حمص) الصادر بتاريخ ١٩٧١/١/١٢ كتب الصديق الأديب السورى عيسى فتوح كلمة تحت عنوان « احتضار الصحافة العربية فى المهجر » ، نعى فيها جريدة (السلام) العربية الأرجنتينية ، التى كان يصدرها فى بوينس آيرس وديع شمعون ، والتى عاشت أكثر من سبعين سنة ، وكانت أقدم جريدة عربية أميركية بعد (الهدى) النيويوركية ، إذ أنشئت عام ١٩٠٢ .

وليس موت (السلام) أمراً عجيباً ، فهى واحدة من عشرات الصحف والمجلات المهجرية التى غالتها يد الموت ، وغالت معها القسم الأكبر من أصحابها . ونحن نعلم أن الأدب المهجرى عامة قد أصبح جزءًا من تاريخه ، وأن المهاجرين العرب قد انصرفوا عن مؤازرة الصحافة العربية والإقبال عليها .

ولقد عرفنا أن جريدة (الهدى) كانت من قبل تبيع أكثر من ثلاثين ألف نسخة ، ثم تقلّص العدد فى الأعوام التى سبقت بيعها إلى آل الخازن أقل من خمسة آلاف نسخة ، ممّا لم يعد يسمح باستمرارها ، فاضطرت صاحبتها مارى مكرزل إلى إعلان وفاتها عام ١٩٧١ ؛ ثم علمنا أنها باعتها إلى آخرين .

سنة الطبيعة تأتى على كلّ حى . وقد أتت على الصحافة العربية فى المهجر ، والأدب العربى المهجرى عامة ، لولا بقايا من الأقلام التى شاخت وما تزال تناضل بفتور ووهن ؛ مدّ الله فى حياتهم .